عبد الفتاح أبو الفضل

كنت نائبًا لرئيس المخابرات

دار الشـروق

كنت نائبًا
لرئيس المخابرات

طبعة الشروق الأولى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

إهـــداء

إلى رمز مصر
إلى أمي التي أوصلتني
. . إلى زوجتي
التي شاركتني كفاح السنين

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في إبريل ١٩٦٨ وفي ١٢ سبتمبر ١٩٨٦ وصلني خطاب من السفير محمد عبده حسنين مخلوف لأنني ذكرت في كتابي هذا مآثر والده الأستاذ مخلوف مدرس اللغة العربية والدين بمدرسة الخديوية الثانوية، ومآثره على طلابه في الوطنية والأخلاق وإنني أعيد شكري وامتناني وتقديري واحترامي للأساتذة الأفاضل الذين شربنا منهم الحرية والوطنية وحقيقة ثورات مصر المتتالية مما حدا بي أن أغوص في بحر هذه الثورات التي قام بها شعبنا العظيم في جميع العصور ضد الطغاة والمستعمرين الأجانب وشجعني بكلماته «أن تكون فترة تأملي التي جاءت تحت صورتي في آخر الكتاب مجالا لبحث أو دراسة أو مذكرات أخرى»، ووفيت بوعدي وصدرت لي سلسلة في تأملات في ثورات مصر بدءاً بمقاومة الحملة الفرنسية والصحوة المصرية في عهد محمد علي والثورة العرابية وثورة ١٩١٩ وثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وهي الثورة التي عاصرتها وعملت بها فجاءت في جزئين.

وكتب الأستاذ محمد صالح في مجلة حواء بتاريخ ١٩/ ٧/ ١٩٨٦ ذاكرا أنه يرى أن أهم وأخطر جزء من هذه المذكرات ذلك الذي يتعلق بالسودان وبالفعل صدر لي كتاب «مصر والسودان بين الوئام والخصام».

وكتب الأستاذ فيليب جلاب في جريدة الأهالي ٩/ ٧/ ١٩٨٦ معلقًا على ما ورد من أحداث في الكتاب وتعرض لما جاء في الكتاب قائلا «وأغرب ما يرويه عبد الفتاح أبو الفضل في ثنايا الكتاب ما يتعلق بشخصية السيد محمد حسن التهامي في عهود الملك فاروق والرئيسين عبد الناصر والسادات سواء في الحرس الحديدي أو تسجيل مكالمات الرئيس عبد الناصر نفسه أو كمبعوث للرئيس السادات في

المفاوضات مع مندوبي إسرائيل» ولقد جاء في كتاب المرحوم الأستاذ الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين «حوارتي مع السادات» أن السيد عبد الفتاح أبو الفضل نائب مدير المخابرات المصرية السابق ذكر في كتابه اتهاما بالشك في علاقة بين التهامي والمخابرات الأمريكية» ورد عليه السيد حسن التهامي بخطاب عفيف في مجلة المصور بأن بهاء الدين من أسباب هزيمة ١٩٦٧ وأخذ يهدده بأخذه بالمطرقة والسيف.

ورد أحمد بهاء الدين عليه في المصور «أنه لم يرتكب ما يستحق عليه الضرب بالسيف لأنه أخذ هذه المعلومات عن كتاب للسيد عبد الفتاح أبو الفضل. وكان الأولى بالسيد حسن التهامي أن يطلب السيد عبد الفتاح أبو الفضل للمبارزة خاصة أن أبو الفضل ضابط ورجل سيف».

وحيث إن هذا الكتاب الأول من نوعه لما جاء فيه من أحداث تجربة مصر للعمل في حقل المخابرات وأعمالها بل أول تجربة عربية في هذا المجال الذي كانت ممارسة هذه الأعمال مقصورة في نشاطات أعمال الدول العظمى الغربية فقط، ولذلك تناولت الصحافة المحلية والعربية التعليق على هذا الكتاب ولذلك وجدت من اللازم أن تحوي الطبعة الثانية كل ما قيل عن هذا الكتاب وما أثاره من موضوعات.

كما أني تعمدت أن أستكمل نبذة عن العمل في الجهاز السياسي الثوري «الاتحاد الاشتراكي» ودوره في العمل الوطني العام كما عاصرته ومارست العمل العام فيه.

كل ذلك جزء من المتابعات التي أثارتها الطبعة الأولى وإلى لقاء حميد مع الطبعة الثانية بإذن الله.

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

٤٣ شارع محمد مظهر ـ الزمالك

ت ٣٤١٣٤٠٩

هـذه المذكـرات: لمـاذا؟

عند ظهر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ ، ثالث أيام العدوان الإسرائيلي ، وصلت إلي بور سعيد لأتولى قيادة المقاومة الشعبية هناك بعد انسحاب عشوائي للجيش المصري من سيناء ودون أي اشتباك جدي مع الجيش الإسرائيلي .

ومنذ بدء العدوان في ٥ يونيو عاصرت حالة الفوضى التي أصابت الجيش المصري سواء وأنا على الطريق من القاهرة أوفي مركز قيادة القوات المسلحة في الإسماعيلية أو عندما شاهدت المعدات المحترقة والرجال القتلى والمصابين على الطريق بين القنطرة والإسماعيلية ، نتيجة تضارب أوامر قيادة الجيش بالانسحاب ثم بالعودة من وإلى سيناء .

وصلت إلى بور سعيد وأنا في غاية الإحباط وتوجهت مباشرة إلى مقر قوات الحرس الوطني التي كانت تحت قيادة الزميل العقيد جمال السيد إبراهيم وكانت تمثل قوات المقاومة الوحيدة هناك . كانت قواته خليطا من الرجال من مختلف الأعمار والمهن ، فمنهم كبار الموظفين والعمال والطلبة والتجار وعمال البحر فضلا عن عدد من شباب اليونانيين ، وكان القائد ورجاله في حالة معنوية مرتفعة وكانت علامات التصميم على الصمود ، وعدم الاستكانة للهزيمة واضحة على وجوههم التي كانت تعبر عن الاستهانة بالحياة في سبيل الدفاع عن بلدتهم بور سعيد .

أعادت هذه المعنويات المرتفعة الثقة إلى نفسي وأزالت عني تماما حالة الإحباط التي انتابتني وأنا في الطريق إليهم .

توليت قيادة الحرس الوطني ، وبعد مدة تمكنا من تكوين مقاومة شعبية بعد أن حصلنا على السلاح والذخائر .

وعندما وقفت وحاربت قوات المقاومة الشعبية والحرس الوطني وخلفها فصيلة صغيرة من قوات الصاعقة في معركة رأس العش أثبتت هذه الفئات من الشعب المصري قدرتها على الصمود وتحقيق النصر .

وفي صباح اليوم التالي لمعركة رأس العش الليلية خرج الشعب البورسعيدي بأكمله يحتفل بالنصر ملتفا حول المقاتلين من رجال المقاومة وجنود وضباط الصاعقة المصرية وقامت السيدات بغسل المدرعات لإزالة غبار المعركة إمعانا في تكريم أبنائهن المقاتلين .

في هذ ه اللحظة بالذات راودتني فكرة تسجيل ذكرياتي ومشاهداتي كشخص عاصر منذ الطفولة كثيرا من الأحداث السياسية .

وبعد عودتي من بور سعيد بأيام ، بعد النصر في معركة رأس العش كنت أزور شقيقتي وكان أولادها الشبان من طلبة الجامعة مجتمعين في غرفة مجاورة مع زملاء لهم. طلب مني أولاد شقيقتي أن أجتمع بزملائهم بعد أن علموا بوجودي وأنني كنت أقود المقاومة الشعبية في بور سعيد، بالإضافة إلى عملي كواحد من قيادات العمل السياسي بالاتحاد الاشتراكي .

لاحظت منذ بداية الحوار مدى تحفزهم وسخطهم من النتائج التي وصلت إليها مصر بهذه الهزيمة . وبهذا الحجم. طلبت منهم أن يعبروا عن أنفسهم سواء على شكل أسئلة أو استفسارات أو تعليق على أن يتركوا لي التعليق والإجابة في النهاية . وكانت جميع أسئلتهم وتعليقاتهم مرآة عكست بصدق مدى شعورهم بالمرارة والسخط والإحباط والضياع ، وأنهم كانوا ضحية التغرير بهم من القيادات السياسية. وشعرت أن هذه الهزيمة كادت أن تصل بهم إلى حالة اليأس ، وهي أخطر الحالات التي تصاب بها الشعوب وبخاصة فئات الشباب .

وجاء دوري في الحوار، وحتى أعيد إليهم التوازن النفسي قمت بشرح معركة رأس العش والتي قام بها شباب وشيوخ مصر من المتطوعين والجنود أمام قوات إسرائيل المزهوة بحلاوة النصر .

وضربت مثلا آخر بعملية إغراق السفينة الإسرائيلية الحربية «إيلات» على أيدى عدد قليل من جنود البحرية أبناء مصر . هم طاقم زورق طوربيد صغير .

وأردت أن أختم حديثي بكلمة تشجيع فقلت لهم إن البركة في شباب مصر لتحقيق ما يبدو لنا الآن أنه مستحيل.

رد أحدهم بتلقائية صادقة «إن من خرب مصر عليه أن يحقق النصر ثم على الشباب بعد ذلك وليس قبلها أن يتولى استئناف المسيرة وإن جيلكم (يقصد جيلي) هو الذي تسبب في الهزيمة فعليكم إزالة هذا العار أولا قبل أن تطلبوا منا أي عمل».

وتبعه شاب آخر قائلا«أرجو ألا يتولاك كمسئول سياسي ومن النظام أي شك أو تفكير بأن مطالبة الشعب ـ بعد تنحي عبد الناصر بالتمسك به وبنظامه تأييد له، ولكنها مطالبة بتصحيح الأخطاء وإزالة الهزيمة وعلينا كشباب بعد ذلك أن نتولى المسئولية. وإن ماعبر عنه زميلي بأن الذي خربها هو الذي يجب أن يصلحها هو تعبير صادق لموقف شعب مصر كله برغم ما شاب ذلك من مظاهر راقصة مخجلة من أعضاء مجلس الشعب».

وكان ردي «كلامك مطابق للحقيقة ولذلك كان في قبول عبد الناصر ونظامه المسئولية والاستمرار في العمل العام لإزالة آثار العدوان أبلغ دليل على أن جيلنا لا زال في الميدان ليصحح الأخطاء وسوف يتحقق النصر على الرغم من أننا خسرنا معركة، وسواء أردتم أم لا فإن الشباب سيشارك في إزالة هذا العار لأن المعركة القادمة كأي معارك مضت، عمادها هو الشباب شباب الجيش وشباب العاملين وأننا لم ننكسر بدليل هذا التعبير الصادق عن تصميم الشباب الذي جاء على ألستنكم حالا»

وبعد هذا اللقاء مباشرة صممت على ضرورة كتابة هذه المذكرات.

لقد عايش جيلي الاحتلال البريطاني وكفاح الشعب والفرقة الحزبية التي أجلت الجلاء والاستقلال لمدة سبعين عاما، وحرب فلسطين، وما سببته نتائجها من مرارة للضباط الشبان الوطنيين، والإعداد للثورة ثم الثورة فالجلاء، وضغوط الدول العظمى في ظل استقلالنا الوطني، ومحاولة إدخالنا في دوائر التبعية ومناطق النفوذ، والتي انتهت بهذه الهزيمة، كل هذا أصبح من الواجب تسجيله للأجيال بعدنا حتى لا تتوه الدروس في خضم مرارة الهزيمة أو ضمن أفراح السلام.

وقد قمت بتسجيل ذلك كله بعد أن قام جيلي ونظام ثورة ٢٣ يوليو بالتحضير للعبور في أكتوبر سنة ١٩٧٣ .

هذا التسجيل اعتبرته وديعة يجب أن أردها لأصحابها من شباب الأجيال اللاحقة لجيلنا سواء الذين قهرتهم هزيمة ١٩٦٧ وطالبونا باستئناف الكفاح ليتسلموا منا البلاد كاملة السيادة، أو من أجيال الشباب القادمة وبذلك يمكن أن يطلعوا على كفاح الفرد المصري عندما يريد لأمته الحياة .

وهذه المذكرات محاولة لتسليط الأضواء علي جميع مراحل حياتي كمصري في مواجهة أحوال مصر ، منذ كنت صبيا بالمرحلة الابتدائية إلى أن جعلني قدري أقوم بدور وطني متواضع في التحضير للثورة، وأشارك في الكفاح مع جيلي من طلبة المرحلة الثانوية وما خالجني وخالج جيلي من الشباب أثناء الدراسة بالكلية الحربية، والأحداث السياسية في هامش المرحلتين، وخلال تفكيرنا فيها وحكمنا عليها . ثم أحداث الحرب العالمية الثانية وتأثيرها على مقدرات مصر وأنا ضابط في الجيش المصري . ومدى انعكاس السيطرة البريطانية على الجيش المصري كذلك سجلت فيها معركة فلسطين وملابساتها من وجهة نظر المقاتل في الجبهة، والمعارك التي خضتها في أراضي فلسطين، ومدى تجاوب شباب المقاتلين مع نداء الوطن والعروبة، وما صاحب ذلك من فساد القادة السياسيين وعجز القادة العسكريين . مما عجل بالتحضير للثورة .

رويت أيضا في هذه المذكرات عن التنظيمات الوطنية بالجيش بعد حملة فلسطين وما كنا نتداوله في اجتماعاتها عن أحوال البلاد . وسجلت أيضا أحداث ثورة ٢٣ يوليو، وقيامي بالخدمة في المخابرات، والدور الذي قمت به مع الضباط الوطنيين في هذا الجهاز من أعمال، أدت إلى النهوض به ليصبح واحدا من أكفأ الأجهزة في العصر الحديث برغم بعض المآخذ التي لا يخلو منها أي جهاز مخابرات في العالم .

وبعد ذلك سجلت تحليلا لأحداث العدوان الثلاثي والكفاح الشعبي المسلح في مواجهته حيث شاركت في هذا الكفاح . وأخيرا سجلت معالم السلبيات في داخل أجهزة الدولة والتي كانت السبب الرئيسي في هزيمة معركة ٦٧ ودور المقاومة الشعبية في بور سعيد وكنت بالإضافة إلى قيادتي لها عضوا بالأمانة العامة للاتحاد

الاشتراكي العربي أمارس من خلالها الخدمة العامة. لذلك قمت بتسجيل الاتحاد الاشتراكي كجهاز سياسي في فترة من أدق فترات التطور السياسي والاجتماعي في مصر حيث كانت تجربته مجال جدل داخلي وخارجي انتهت بتحول البلاد إلى نظام تعدد الأحزاب السياسية لتمثيل اتجاهات عقائدية مختلفة في ظل انفتاح اقتصادي سلبياته أكثر من إيجابياته.

وتلزمني كلمة حق إزاء ما قيل أو اتبع أو نشر عن بعض الفساد الذي تناول جهاز المخابرات المصري في فترة من الفترات حتى أصبحت كلمة «المخابرات» - إذا قيلت في أي وسط كان سواء في مصر أو في أي قطر عربي - تثير الرعب والاشمئزاز والكراهية مع استمرار هذه النظرة السيئة عن هذا الجهاز إلى الآن. وبالتالي شعرت بضرورة توضيح دور المخابرات الحقيقي كجهاز وطني قام بأعمال مشرفة وهي الأصل. أما أي مآخذ أو شوائب، فما هي إلا مجرد عوارض شاذة بوسعنا الحد منها.

ومن الظواهر الشاذة في بلدنا أن عناصر من المثقفين، علماء وأدباء وكتاب وصحفيين، تزعمت حملة التشويه ضد هذا الجهاز لدرجة المناداة بإزالته من الوجود واستبعاده تماما من أجهزة الدولة.

وكمبدأ عام يجب أن نعترف بأن فكرة إزالة أو إلغاء أو استبعاد جهاز المخابرات من أي دولة لمجرد انحراف بعض أفراد أو أقسام منه هي فكرة خاطئة، لأن الأوضاع السليمة والمثلى تقضي ببتر الفساد أو الانحراف لا إزالة الجهاز نفسه نظرا لشدة الحاجة لجهاز المخابرات في أي دولة صغيرة كانت أو كبيرة لتحقيق أمن الدولة الداخلي والخارجي.

محمد عبد الفتاح أبو الفضل

وكـانت النشــأة

النشــأة:

ولدت في ٢٨ إبريل سنة ١٩٢١ بحلوان الحمامات من ضواحي القاهرة والوالد من مواليد سنة ١٨٨٢ ، وكان مهندسا معماريا بدأ حياته بقريته صفط الملوك مركز إيتاي البارود مديرية البحيرة، وبدأ تعليمه بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم. ثم نزح إلى القاهرة بداية من التعليم الابتدائي ليقيم في منزل في السيدة زينب يضم جميع شباب وأطفال العائلة الذين يدرسون بالقاهرة وكان يشرف على هذا المنزل عم الوالد. وقد درس والدي الهندسة ثم التحق بالعمل مهندسا بالري المصري بالسودان وعندما عاد إلى القاهرة مارس العمل الحر كمهندس وخبير لدى المحاكم الأهلية، وبجانب عمله الهندسي كان يقوم بتدريس العلوم الرياضية لطلبة الأزهر الشريف.

أما والدتي فقد حصلت على التعليم اللازم للقراءة والكتابة والحساب في إحدى مدارس الأقباط بحي الناصرية القريبة من منزل والدها بعابدين. هذا المنزل الذي كانت تقيم فيه أسرة الجد كلها بما فيها أسرتنا وكان المنزل بشارع البرموني رقم ٦ بحي عابدين. ويقيم في أحد الطوابق الخال الكبير الدكتور على راشد الذي أتم تعليمه بقصر العيني ثم تخصص في كلية طب فرنسا. والخال الأصغر أحمد يحيي راشد المحامي يقيم في طابق آخر من المنزل مع الجد للوالدة يحيي راشد، والجد كان يعمل موظفا بوزارة الأوقاف. ويملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية. وكان الخال الأصغر أحمد يحيي راشد أثناء دراسة الحقوق يجلس مع خاله الأصغر حسن مميشن أمام منزل خاله، خلف الحرس السلطاني، عندما مر موكب السلطان حسين وتعمدا ألا يقفا احتراما للسلطان أثناء مروره عليهما لأنهما في ذلك الوقت كانا يمثلان الطبقة المتنورة، وكلها كانت تمقت السلطان حسين الذي جاء على أثر خلع

الخديو عباس، والذي كان محبوبا من الشباب والشعب لمواقفه ومساندته للحركات والزعماء الوطنيين في كفاحهم ضد الاستعمار البريطاني. واعتبر السلطان في تصرفهما هذا إهانة له.

واستفسر عمن يكونان وأمر برفتهما من مدرسة الحقوق الحكومية، فالتحقا بأول جامعة أهلية بكلية الحقوق جامعة فؤاد (الملك فؤاد.. ثم جامعة القاهرة) أما الجدة من ناحية الوالدة. فقد كانت تقيم بشقة صغيرة أعلى المنزل مع حفيدتيها من بنتيها المتوفيتين. وأسرتي تقيم في الدور الأول.

كان للمنزل حوش كبير به فسقية ويطل عليه مندرتان إحداهما يقيم فيها سائق العربة الحنطور التي يمتلكها خالي الدكتور والأخرى يقيم فيها زميل جدي من الطفولة الحاج محمد جنيد الشهير بالحاج محمد زغزغ، حيث كان وهو طفل بقرية الأسرة صفط الملوك عندما يأكل الذرة المشوية يفرك الكوز بيده بما يشبه (الزغزغة) ويضع ما يفركه في كف يده، ثم يضعه في فمه ومن ثم أطلق عليه زغزغ وكان الحاج محمد جنيد في سن مقارب لسن الجد، وإن لم يتعلم بالمدارس. وحضر إلى القاهرة ليزامل الجد في كل شيء وكان يقوم ببعض الخدمات الخاصة بالجد. ومقابلة ضيوفه ويحضر جلساته مع أصدقائه في الشتاء داخل المندرة مع المنقد (دفاية) أو على الرصيف أمام المنزل في الشارع بعد عصر أيام الصيف وبعد رش الشارع بالمياه للترطيب أمام الجلسة التقليدية. وكان المنزل يواجه جامع الخلوتي، ويتولى الحاج محمد جُنيد (زغزغ) خدمة هذا الجامع تطوعا ويواظب على صلاة الجماعة في مواقيتها، وهو الذي يجهز الجامع للصلاة عند الفجر كما كان يقوم بتوصيل أطفال الأسرة كلها إلى المدارس ويعود بهم وكنا كأطفال ننجذب إليه حيث كان يعد لنا شراب القرفة في مندرته. وأثناء الشراب كان يحكي لنا ذكرياته عن ثورة عرابي. حيث كان أحد جنود جيش عرابي أثناء الثورة واشترك معه في معركة كفر الدوار وحج إلى بيت الله الحرام عدة مرات.

وعيت على نفسي طفلا صغيرا يرسلونه إلى كتاب الشيخ زكي بقنطرة سنقر (ملحق بجامع الشيخ جنبلاط) بالقرب من المنزل يصحبني صديق الطريق الحاج محمد زغزغ في الذهاب والإياب وكان هذا الكتاب داخل سبيل جامع جنبلاط وبه دكك خشبية لها أدراج في ثلاثة صفوف كل صف خاص بسنة من سنوات الدراسة الثلاث.

وفي سن الخامسة التحقت بمدرسة أولية يطلق عليها مدرسة بشير أغا دار السعادة. وقف المدعو بشير أغا بشارع درب الجماميز، والذي كان يوازي شارع الخليج المصري وكانت المدرسة أيضا قريبة من المنزل ـ والتحقت بهذه المدرسة سنتين وأتقنت الكتابة والقراءة ومبادئ الحساب مع حفظ بعض آيات القرآن الكريم.

وفي سن الثامنة التحقت بالمدرسة المحمدية الابتدائية بالحلمية الجديدة. وأتذكر وأنا بالسنة الثانية بالمحمدية الابتدائية في أحد أيام الخميس وكنا نسمع المحفوظات لمدرس اللغة العربية الشيخ عاشور، وكان نشيدا وطنيا له وقع موسيق جميل «اسلمي يا مصر إنني الفدا ذي يدي إن مدت الدنيا يدا».

وإذا بنا نفاجأ بصوت موسيقي الجيش تصدح تحت نوافذ الفصل. أطل الشيخ عاشور من الشباك وبصوت جهوري وبعصبية وجدناه يهتف «يسقط الإنجليز» تركنا مقاعدنا وتجمعنا بجواره ننظر من الشبابيك. وإذا بطابور من جنود الجيش البريطاني يمر في الشارع، تتقدمه فرقة موسيقى ويسير الجنود على نغماتها والشعب مصطف ـ بالرغم منه ـ على جانبي الشارع وبعد أن انتهى الموكب مختلطا بهتاف وغضب شيخنا الجليل عاشور عدنا إلى أماكننا والشيخ عاشور ينهج من الانفعال والغضب عدنا ونحن ننظر بإعجاب وتقدير لأستاذنا دون أن نفهم مصدر هذا الإجلال.

هذه الواقعة استمرت في مخيلتي طوال اليوم الدراسي وفي طريق العودة إلى المنزل بمصاحبة الحاج محمد زغرغ، وأجريت معه حوارا ممتعا سعدت به مع رفيق الطريق، بعد أن رويت له ما حدث في الصباح، وكل ما كان يهمني هو سؤاله عن سبب هتاف الشيخ عاشور بسقوط الإنجليز وخروجه على وقاره المعهود أمامنا في الفصل واستفسرت منه عمن يكون الإنجليز ولماذا يلعنهم الشيخ عاشور. أجابني الحاج محمد زغزغ بأبسط الكلام وهو «أن هؤلاء الإنجليز هم جنود دولة معادية اعتدت على أرض مصر واحتلتها بمعاونة حاكم البلاد الخائن الخديو توفيق».

«أما سبب هتاف الشيخ عاشور فلأنه يستصرخ أهل بلده ليتنبهوا للص الذي يسرق بلادهم!».

وصلت إلى المنزل على وعد من الحاج محمد أن يروي لي باقي قصة عرابي كلها وحروبه ضد الاحتلال وكفاحه ضد الخائن الخديو توفيق.

عدت وأنا متشوق لإجراء حوار مع الوالد الذي كثيرا ما كان يروي لي وللأشقاء

والشقيقات قصصا من القرآن الكريم بأسلوب في غاية التشويق وجلست إلى الوالد في حجرته بعد الغذاء ورويت له قصة الشيخ عاشور وهتافه ضد الإنجليز وتعليق الحاج محمد عليها وسألته «لماذا يا أبي في الوقت الذي يكره فيه الشيخ عاشور والحاج محمد الإنجليز فإن بعضا من الشعب المصري على جانبي طريق موكب الإنجليز بالموسيقى يصفقون؟ ولماذا أغلبهم لا يصفقون وينظرون إلى المشهد بغير اكتراث ولا مبالاة؟» وكان رده الذ ي لا أنساه «ياولدي إن العلم أساس الحياة في هذه الدنيا لذلك عندما أنزل الله سبحانه وتعالى رسالته على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام بدأ هذه الرسالة الكريمة بالأمر بالعلم والتعليم والقراءة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ فالواقعة التي حضرتها اليوم يا ولدي يتفاوت رد فعلها باختلاف المواقف في مواجهتها وكلها تعود إلى درجة العلم لكل فرد من المصريين الذين شاهدوا الموكب بموسيقاه المثيرة».

درس لا ينسى

أما عن الجد فكان رجلا مهابا مع خفة ظل، وهو محور الأسرة كلها يكاد يكون ممسكا بعجلة قيادة المنزل. يوميا ومن بعد صلاة العصر يعقد جلساته مع جمع من أصدقائه وأهل الحي الذين يواظبون على الصلاة في جامع الخلوتي. وفي فصل الشتاء يجتمعون في مندرة الحاج محمد زغزغ الذي يقوم بتحضير المشروبات الساخنة كالقرفة، أما صيفا فيجتمعون على الرصيف أمام المنزل بعد رش الشارع بالمياه للترطيب وتقدم المشروبات الباردة كالسوبيا والليموناده. وكثيرا ما كنا كأطفال نتسلل لنأخذ أماكننا وسط جلسة الجد ونحصل على نصيبنا من المشروبات اللذيذة ونستمع إلى أحاديثهم عن الدين وعن الحركات الوطنية وعن الوفد المصري وسعد زغلول وصحبه الذين قاموا وكافحوا ضد المحتل البريطاني، علاوة على بعض القفشات المضحكة.

عشت طفولتي وشبابي وجزء من رجولتي في منزل الأسرة بعابدين. ويعتبر حي عابدين حي الطبقة المتوسطة من أبناء الموظفين باستثناء سراي عبد الرازق بشارع باب باريس (خلف قصر عابدين) وهي أسرة ثرية كان لها دور كبير في العمل السياسي والحركة الوطنية في مصر. كذلك كانت في نفس شارعنا سراي إدريس باشا راغب، وبالقرب من شارعنا كان سراي أسرة أبوجبل ومقر إبراهيم باشا

خليل. ومتاخم لحي عابدين حي الحلمية الجديدة وكان بها قصر تيمورو قصر توفيق نسيم. وكان بنفس حي الحلمية الجديدة مدرستي الابتدائية، المدرسة المحمدية وملعب كرة قدم خلف المدرسة الخديوية الثانوية، وكان أيضا هناك حوش القربية يتدرب فيه كل يوم خميس فرسان وموسيقى الحرس الملكي ونراها صباح كل يوم خميس تمر بين مباني الحرس الملكي بجوار قصر عابدين إلى حوش القربية. وبالقرب من المنزل أيضا كان شارع درب الجماميز الموازي لشارع الخليج المصري والموصلان إلى حي السيدة زينب وكانت مدرستي الأولية مدرسة بشير أغا دار السعادة بهذا الشارع وكذا مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية والمدرسة الخديوية الملاصقة لجامع فاضل باشا الذي كان يقرأ فيه المقرئ الشهير الشيخ محمد رفعت سورة الكهف كل يوم جمعة. وكان يقطن شارع درب الجماميز أسر اشتهرت بمصارعة الديوك كانت تمتلك ديوكا متخصصة في المبارزة، وكنا نشاهد جانبا منها حيث تنتهي كل مبارزة بقتل أحد الديوك المتبارزة في وحشية.

ويتاخم حي عابدين خلف منزلنا حي سنقر، حي الطبقة العاملة ومعظم سكانه كانوا إما نازحين من ريف مصر أو من الواحات. أما النازحون من الريف فكانوا يعملون في أفران الخبز ويصنعون الخبز الذي يحملونه للبيع في المنازل. أما أهل الواحات فكانوا يعملون في جمع القمامة من المنازل ليحملوها للحريق في المستوقد التابع لحمام السوق ويطهون في أفران هذا المستوقد الفول المدمس الذي تخصصوا في بيعه مع البليلة على عربات يد خاصة صباح كل يوم. أما بقايا حريق القمامة فكان يستخرج منها «الاسرمل» الذي كان يستخدم في بناء المنازل وتغطية أرضية أسطح المنازل كمادة عازلة وواقية من الأمطار.

وهذا الخليط من أبناء الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة كان على علاقات طيبة بتبادل الخدمات (الكنس ـ جمع القمامة ـ بيع الخبز والفول ـ خبز العيش. . إلخ) وكان كثير من أبناء الطبقة العاملة زملاء لي في الدراسة، وفي الكتاب وفي المدرسة الأولية. وبعضهم وصل معي إلى مرحلة التعليم الابتدائي. كما اشترى عم مصيلحي وهو من بائعي العيش مربع المباني الذي يضم المخبز والحمام وأصبح موسرا.

وكل عام، كان يقام مولد سيدي الخلوتي المدفون بالمسجد أمام منزلنا وكان الجد

والأسرة أثناء ليالي مولد سيدي الخلوتي يوزعون شراب القرفة للمترددين على المولد كما يقدمون الفتة واللحمة لخدم المسجد وللفقراء .

صداقة الطفولة

كان لي أصدقاء من أبناء الحي واستمرت صداقتي بهم طول حياتنا ، منهم المرحوم صلاح والي ، وكان لأسرته عربة حنطور يجرها زوج من الخيول وعربخانة للخيول ، وكثيرا ما كنا نذهب إليها لرؤية الخيول بحارة شق الثعبان أمام منزلنا مباشرة . وتوفى هذا الصديق حين كان طالبا بكلية الحقوق بجامعة الإسكندرية . ومنهم المرحوم المهندس الجيولجي جلا ل على مصطفى والذي زاملني في المدرسة الخديوية الثانوية ثم درس في كلية العلوم وآخر منصب له كان رئيس هيئة المساحة الجيولوجية ، وصديق آخر هو الأستاذ محمدعلى النقادي وزاملني أيضا في التعليم الثانوي والتحق بكلية الحقوق وكان آخر مناصبه هو مستشار ورئيس محكمة الاستئناف العالي ثم مستشار بالنقض قبل أن يحال إلى المعاش ، والصديق المرحوم فؤاد رجائي مهندس زراعي ، عمل بالتدريس ، والمرحوم محمد غالب وقد وصل إلى الابتدائية وتوفى والده الموظف بالسكة الحديد ولم يكمل تعليمه واضطر للعمل في دائرة أبو جبل الذين كانوا على معرفة بالمرحومة والدته ثم عملت على إلحاقه للعمل بالمخابرات العامة وعمل معي كثيرا ، وسافر معي إلى السودان في أعمال المخابرات وتوفي أثناء الخدمة وكان من أصل سوداني .

وكانت سيدات الأسرة ـ جدتي للوالده وزوجات أخوالي ـ يحتفلن في أحد أيام الشهر بيوم يطلقون عليه (المقابلة) يتقابلن في ذلك اليوم المحدد بقريباتهن وصديقاتهن وزميلات دراستهن وكن في ذلك الحفل يعزفن البيانو ويستمعن إلى «الفونوغراف» وبعض ألوان الطرب وتقدم أثناء هذا الحفل المشروبات الباردة أو الساخنة حسب الفصل شتاء أو صيفا ، ويقدمن أيضا الحلويات والمكسرات وكان هذا تقليداً لمعظم الأسر المتوسطة وكنا كأطفال نتسلل لسماع أحاديثهن التي كثيرا ما كانت تتناول نشاط أزواجهن في الحركة الوطنية وكنا نغافلهن ونلتقط جانبا من الحلوى والمكسرات .

كان للجدة قريبة مسنة في نفس سنها كثيرا ما كانت تحضر وتقيم مع الجدة لعدة أيام. وكان يصحبها خادم يحفظ سير الأبطال أبوزيد الهلالي والزناتي خليفة وعنترة ابن شداد وسيف بن ذي يزن، وكان هذا الخادم يتقن التلاوة ويغني الشعر مصاحبا ذلك بربابة كان يحملها (أي كان يقوم بما يقوم به الشاعر في المولد بالريف) فكان يجمع أطفال العائلة حوله بمندرة الحاج محمد زغزغ ويأخذ في العزف على ربابته موسيقى شجية تتناسب مع ما يتلوه من قصص وشعر، وبجانب ذلك كان يطوف بالحي من وقت لآخر ما يسمى بصندوق الدنيا وهو عبارة عن صندوق مرتفع يوضع على حامل وتوضع دكة أمام الحامل كنا نجلس عليها ويغطي علينا بغطاء من القماش وننظر خلال عدسات مثبته في الصندوق نرى خلالها صورا ملونة جميلة ويبدأ حامل الصندوق في الغناء ويشغل صندوقه باليد فتظهر العدسات المكبرة صورا ملونة جميلة، لأبطال لها قصص يأخذ حامل الصندوق في سردها وكلها عن الشجاعة والإقدام والفروسية والحب الشريف العفيف.

مرحلة التعليم الثانوي

انتهت المرحلة الابتدائية وكنت في سن الثالثة عشرة، في عام ١٩٣٤، وبدأت مرحلة التعليم الثانوي في أواخر عام ١٩٣٤ بالمدرسة الخديوية وفي تعليمي الثانوي عاصرت نخبة من المدرسين كانو مربين ومعلمين في نفس الوقت؛ فكانوا يلقوننا بجانب العلم تجاربهم في الحياة من واقع علمهم الغزير ووطنيتهم وتجاربهم الشخصية.

كان الأستاذ مخلوف، مدرس اللغة العربية والدين خلال حصة الدين يشرح الآيات البينات ويربط شرحه بواقع الحياة مما حبب إلينا دروس الدين.

وكان الأستاذ الجندي مدرس العلوم ينتمي سياسيا إلى حزب الوفد. برغم حصوله على درجات علمية عالية من فرنسا تؤهله للعمل في مراكز عليا بديوان وزارة المعارف فقد كانت الأحزاب المعارضة للوفد عندما تصل إلى الحكم تضطهده وتعيده للتدريس بالمدارس. وكان هذا الأستاذ يشرف على مجلة المدرسة السنوية والتي كنت أنا عضوا في مجلسها. وكان أثناء اجتماعات هيئة تحرير المجلة يفتح

حوارا في أحد الموضوعات الوطنية وينقلب الاجتماع إلى مناظرة وأسئلة وأجوبة ساعدت على تفتحنا سياسيا واجتماعيا ووطنيا، وقد علمنا أنه كان من جماعة اليد السوداء الفدائية، والتي قامت بالأعمال الخارقة ضد المستعمرين. وأعوانهم من الخونة.

ولجنة تحرير المجلة كانت تضم طلبة من مختلف النوعيات ومن مختلف الأحزاب، وكان هناك الوفدي المتطرف مثل عبد الملك هاشم الكبير ومن الحزب الوطني محمد فريد أبو العز (دكتور صيدلي صاحب أجزاخانات بقصر العيني والهرم والمعادي) وفؤاد إسماعيل (الشاعر) والذي كان بلا لون حزبي وعبد الودود رياض (القاضي الآن) وعبد الرحمن الشرقاوي (الشاعر والكاتب الصحفي الآن).

أما الأستاذ محمد إبراهيم أستاذ مادة التاريخ (وقد حصل بعد ذلك على الدكتوراه وعمل أستاذا لمادة التاريخ بآداب القاهرة) فقد كان موسوعة تاريخية عناصرها الأساسية الأمانة والصدق والحق. وقد سعدت بالتلمذة على يديه في السنة الثالثة الثانوية وكان يدرس لنا مادة التاريخ المصري الحديث وكان ينتهي بأسرع ما يمكن في حصصه من الدرس المقرر. ثم يغلق دفتره ويبدأ في شرح الحقيقة ويشجعنا على اقتناء واستعارة المراجع التاريخية التي منها يمكن أن نصل إلى الحقيقة وذلك من مكتبة المدرسة أو من دار الكتب.

الاشتراك في أول عمل وطني

كان ذلك في عام ١٩٣٥ . وكنت في السنة الثانية الثانوية بالمدرسة الخديوية. كان ذلك أثناء وزارة توفيق نسيم باشا حيث كان قد وعد بإلغاء دستور ١٩٣٠ المكروه من الشعب وكان هذا الدستور من بنات أفكار إسماعيل صدقي السياسي الداهية ورجل الملك. وعد نسيم باشا الشعب بأنه سيستبدل دستور سنة ١٩٣٠ بعودة العمل بدستور ١٩٢٣ المؤيد من الشعب لأنه يحد من سلطات الملك. في ذلك الوقت صدر مرسوم ملكي يقضي بإلغاد دستور ١٩٣٠ وأن يتولى الملك بواسطة وزرائه سائر سلطات البرلمان. في نفس الوقت أشيع أن وزارة نسيم تنوي وضع دستور جديد وسط بين دستوري ١٩٢٣ و١٩٣٠ في الوقت الذي أعلنت فيه بريطانيا أنها غير راضية عن دستور ١٩٢٣ وكذلك دستور ١٩٣٠ نفسه وإزاء هذا

التصريح والإعلان البريطاني تكهرب الجو الشعبي، وخرجت الجماهير ومعها الطلبة من جميع أنحاء مصر في مظاهرات صاخبة. واشتركت مع طلبة المدرسة الخديوية في تلك المظاهرات واتجهنا مع جموع غفيرة من الشعب وطلبة المدارس الأخري والجامعات إلى منزل نسيم باشا بالحلمية الجديدة نهتف بسقوط نسيم باشا «يسقط نسيم أبو عقل تخين». كان هذا بمثابة أول مشاركة لي في عمل وطني سياسي أمارسه في حياتي بعد أن تفهمت أبعاده، وكان باختصار شديد هو المطالبة بإعادة حكم البلاد دستوريا بدستور سنة ١٩٢٣ الذي يحقق شيئا من الحرية للشعب ويحد بعض الشيء أيضا من سلطات الملك.

وفي اليوم التالي للمظاهرات توجهت مع طلبة المدرسة الخديوية في مظاهرة إلي الجامعة (جامعة فؤاد الأول) وتدخل البوليس في فض هذه المظاهرة وحدثت مصادمات كان من أبرزها أن قتل البوليس أحد الطلبة على كوبري عباس بعد أن حاصرته قوات الأمن، كنت أثناء ذلك بجوار زميل الدراسة محمد علي النقادي (مستشار بالقضاء حاليا بالمعاش) وكان يرتدي نظارة لا يمكن السير بدونها وأثناء اشتباكات البوليس وقع على الأرض وأصيب في وجهه، وكسرت نظارته وأصبح غير قادر على السير. سحبته أثناء تصاعد المصادمات جانبا إلى أن هدأت الحال وعدت به إلى منزله. كانت نتيجة هذه المظاهرات التي اشتركت فيها لأول مرة في حياتي، أن اضطرت حكومة بريطانيا إلى إيقاف اعتراضها على إعادة دستور ١٩٢٣ وذلك في عام ١٩٣٥ وصدر مرسوم ملكي ينص على إعادة العمل بدستور ١٩٢٣.

الرجوع إلى التاريخ القريب

في إجازة صيف ١٩٣٦، وبعد وقوفي على العمل الوطني الذي نجح في إعادة دستور سنة ١٩٢٣ وكان نتيجة سقوط وزارة نسيم وتشكيل وزارة علي ماهر الذي مهد لتكوين جبهة وطنية للمطالبة بالجلاء، وجدت نفسي متعطشا لدراسة تاريخ هذا الاستعمار البريطاني في مصر والسودان بعد هزيمة عرابي وعودة الخديو توفيق الخائن للسيطرة مع الإنجليز على مقدرات هذا الشعب. وحيث إن جميع المراجع والكتب التاريخية المدرسية المتاحة لي ولجيلي في ذاك الوقت لم أجد فيها المادة المتكاملة والكافية لهذه الدراسة، فقد بدأت في الاستعانة بكثير من المراجع التاريخية

ولجأت إلى خالي المحامي أحمد يحيي راشد الذي سبق وشارك في ثورة ١٩١٩ وبعض الأقارب. هذه المعلومات التاريخية كنا نفتقر إليها أنا وجيلي كله. وبدأت في التقصي والاطلاع والمراجعة وأخذت أدون لنفسي مذكرات خاصة منذ تولي الخديو عباس حلمي ولاية مصر حتى يمكنني فهم كل ما يجري من أحداث أثناء فترة المفاوضات وبالذات لأفهم على ماذا سيتفاوض المصريون مع الإنجليز. ولقد تعمدت أن تتناول مذكراتي هذه الفترة لأن معظم جيلنا والأجيال الحاضرة تفتقر جميعا لهذا الجانب من تاريخ بلادنا.

الأمل يتجدد

في آخر عام ١٩٣٦ اعتلى ملك شاب العرش وكل الشعب أمل فيه، وحصلت البلاد على دستور ١٩٢٣ الذي جاء ببرلمان منتخب أفرز حكومة قومية متعاونة مع باقي الأحزاب، وبتضامنهم أمكن إبرام معاهدة ٣٦ وألغيت الامتيازات الأجنبية البغيضة، والنحاس على رأس حكومة متمسكة باحترام الدستور، وانتهى تحكم المندوب السامي، وتغير اللقب إلى سفير من المفروض أنه ليس له أي حقوق للتدخل في شئون السياسة الداخلية في البلاد. يتوج هذا الأمل النحاس باشا رئيس الوفد بموقفه المتشدد مع رجال القصر الملكي احتراما للدستور عندما أصر عند تتويج الملك بعد بلوغه سن الرشد سنة ١٩٣٧ أن يقسم اليمين دستوريا أمام البرلمان وليس في احتفال ديني في الأزهر كما كان يريد رجال القصر. لكل ذلك وفي سنة ١٩٣٧ كنا كشباب يملؤنا الفخر والأمل في مصر ورجال مصر، ولكن كثيرا ما «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن» فقد بدأ رجال القصر يستعدون الملك الشاب قليل الخبرة على الأحزاب وعلى التدخل في شئون الحكم متجاوزا سلطاته الدستورية. كما بدأ السفير البريطاني يعاود تدخله في الحكم خصوصا عندما شعر بأن الحكومات لم تكن قد تخلت عن عقدة المندوب السامي. وكذلك بدأت الجبهة الوطنية (التي كان لها الفضل في الحصول على معاهدة ١٩٣٦) تتفكك وأصبح التناحر والصراع والخلاف هو الجو السائد بين الأحزاب.

وزاد الطين بلة حزب الوفد نفسه ـ حزب الأغلبية ـ أخذ يتحلل من الداخل بخروج أعضائه المؤسسين الواحد بعد الآخر.

بناء على ما غرسه في جيلنا الآباء والمدرسون الأفاضل ما كنا نتصور أن هناك مصريا متمسكا بدينه ووطنه يرضى بالخنوع والعبودية لا للأجنبي ولا لحاكم فما بالك بالحكام الذين كنا نتأمل صورهم المنشورة في الصحف والمجلات وعليهم سمات الرجولة والعزم، ثم نصدم فيهم عندما نقرأ في الصحف مدى ما يرتكبون في حق بلادهم. وبعد زيادة وعينا واطلاعنا على مدى تفسخ الوزراء ورؤساء الوزارات ومدى تمسحهم بأعتاب القصر وبناء على ما كنا نطلع عليه في الصحف عن تدخل السفير البريطاني في شئون البلاد ضاربا عرض الحائط بسلطات الملك أو الحكومة أو حتى البرلمان ومدى استهتار رجال القصر بالدستور واستعداء الملك على الدستور كنا نصدم بهذه المواقف وهذه الصور المزيفة . كل ذلك جعلني أثور بيني وبين نفسي ومعي جيلي بأكمله على هذه الأوضاع المقلوبة وأخذت أدونها بمذكراتي أولا بأول وهي تقريبا الأسباب الرئيسية ليس بالنسبة لي شخصيا ولكن بالنسبة للشعب المصري الذي كان مثلي يثور فيما بينه وبين نفسه على هذه الأوضاع. وفي خضم هذه الأفكار المتناقضة وغير الودية الأبعاد كثيرا ما فكرت بعد اشتراكي في أول مظاهرة سياسية وأحجمت عن الانضمام إلى حزب الوفد وهو الحزب الذي كانت تستهويني تصرفاته ومواقفه الشجاعة والوطنية، وإلى أن جاء عام ١٩٣٧ ، وكان الوفد بالحكم والنحاس باشا رئيسا للوزراء. وتناولت الصحف بالتفصيل قضية نزاهة الحكم في موضوع مشروع كهربة خزان أسوان. وحدث خلاف داخل حزب الوفد حول التصديق لشركة بريطانية بالاتفاق المباشر، وليس بالمناقصة للقيام بتنفيذ المشروع، وكانت نظير سبعة ملايين جنيه، وكانت أغلب الشركات العالمية الأخرى تعرض تنفيذ المشروع بخمسة ملايين جنيه فقط . وقام الوزير الوفدي محمود غالب بالنشر في الصحف عن هذه الملابسات والخلافات وأيده النقراشي باشا في ذلك وهو أيضا كان أحد الوزراء الوفديين ومن التنظيم السري الوطني (اليد السوداء)، وعند إعادة تشكيل وزارة النحاس باشا، استبعدت النقراشي ومحمود غالب من التشكيل الوزاري الجديد. استمرمحمود غالب باشا في النشر عن هذا المشروع متهما الوزير الوفدي المختص بالمشروع عثمان محرم باشا بعدم النزاهة . . وصدر قرار حزب الوفد بفصل النقراشي ومحمود غالب من الوفد كان أحمد ماهر زميل الكفاح مع النقراشي وصديقه رئيسا لمجلس النواب وجاء رأيه مطابقا لرأي

النقراشي ومحمود غالب. وطالب بضرورة عرض مشروع كهربة خزان أسوان في مناقصة عالمية عامة، ولم توافق وزارة النحاس باشا على ذلك وصدر قرار بفصله هو الآخر من الوفد.

وبخروج هؤلاء الثلاثة من حزب الوفد كونوا حزبا جديدا أسموه الحزب السعدي، وكنت في هذه السن متأثرا بدور كل من أحمد ماهر والنقراشي لاشتراكهما في عصابة اليد السوداء ذات الأعمال الخارقة في الكفاح الوطني وبعد اطلاعي في الجرائد اليومية على مدى الفساد الذي أخذ يتضخم في صفوف المستوزرين من حزب الوفد وكنت في حيرة من الرأي من ناحية الانضمام لأحد الأحزاب فقد ذهبت إلى دار الحزب السعدي، وانضممت إلى لجنة طلبة المدارس الثانوية بالحزب وأخذت في تكوين لجنة بالمدرسة ولكنها كانت عدديا وجسمانيا أضعف من لجنة طلبة الوفد. و كثيرا ما جر عليّ هذا الانضمام التعرض للاعتداء عليّ أثناء المظاهرات، وأثناء النقاش بحوش المدرسة.

تأملات فيما كان يجري حولنا سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨

في ذلك العام كنت بالرابعة (شهادة الثقافة العامة) وكنت أقضي معظم وقت فراغي من المذاكرة إما في لعبتي المفضلة (المبارزة) أو في النشاط السياسي، فأجتمع مع لجنة الطلبة السعديين بالمدرسة. أو في دار الحزب وكنا نتناقش على ضوء ما نقرؤه في الصحف الحكومية والمعارضة للأوضاع السياسية في هذه الفترة، وبخروج أحمد ماهر والنقراشي من الوفد كانت صحيفة «البلاغ» قد انقلبت إلى جريدة معارضة للوفد، وكان صاحبها عبد القادر حمزة وكان ابنه فؤاد حمزة زميل دراسة بالخديوية. وكثيرا ما كانت صحيفة «البلاغ» والوفد في الحكم تهاجم حكومة الوفد وحزب الوفد وكثيرا ما كانت الحكومة تصادرها. وقانون الصحافة في ذلك الوقت كان يقضي بمصادرة العدد المنشور به الموضوع الذي يزعج الحكومة، وكذلك يتعرض المسئول عن التحرير للتحقيق في النيابة فإذا وجدت النيابة في العدد ما يستحق تقديمه للقضاء صودر العدد فقط ويسمح للجريدة باستئناف الصدور بحكم القانون. وقد قدم رئيس التحرير للمحاكمة ولكن غالبا ما كانت النيابة تفرج عن الأعداد المصادرة. وتفرج عن رئيس التحرير في معظم الأحوال. وفي النادر كان يحول رئيس التحرير للقضاء. ولم أعاصر أي حكم ضد أي رئيس تحرير أبدا

بل كان يحكم له بالبراءة لأن ما ينشر ليس فيه ما يخالف القانون، ولكنه كان نقدا موجها إلى رجال سياسة يعملون في الخدمة العامة ويجب مساءلة ونقد العمل العام بحكم الدستور الذي يؤكد على الحرية. وما كان يحدث للبلاغ كان يحدث لصحف الوفد عندما تكون خارج الحكم. كل هذه التصرفات البسيطة في مظهرها والعظيمة في معناها كانت الشغل الشاغل لعقولنا المتفتحة بالأمل. وكان شعورنا كله تقديرا لجمال وعظمة الحرية وكان ذلك مما يجدد فينا الأمل تحت ظل الحياة الدستورية والتي من أهم معالمها احترام القانون من الحاكم والحكومة. وكان يعكر صفو هذا الجو المملوء بالأمل أحزاب الأغلبية سواء الحقيقية أو المزيفة عندما تكون في الحكم والتي كثيرا ما كانت تنتهز حصولها على الأغلبية البرلمانية فتمارس الحكم الاستبدادي وتنفرد بالسلطة دون مراعاة لقانون أو لدستور البلاد مطمئنة للأغلبية البرلمانية. حتى إذا كانت هناك أصوات معارضة في البرلمان أو اقترعت ضد الحكومة فإن هذه المعارضة تخرصها الأغلبية خصوصا بعد أخذ الأصوات وكان الشعب المصري هو الضحية برغم أنه هو الذي كان يعطيهم أصواته. الشعب كان مقهورا بحكوماته وأحزابه بعد أن كان مقهورا بالقصر والمعتمد البريطاني فقط وهذا كان من سخرية القدر بهذه الأمة.

ما بعد التوجيهية

بعد أن نجحت في امتحان إتمام الشهادة الثانوية وكان يطلق عليها «شهادة التوجيهية» قسم علمي سنة ١٩٣٩ وأثناء إجازة الصيف أعلنت الحرب العالمية الثانية في أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ وقدمت أوراقي للالتحاق بالكلية الحربية، وفي الوقت نفسه تقدمت أيضا للالتحاق بكلية الحقوق جامعة فؤاد (القاهرة) حتى إذا لم أقبل بالكلية الحربية «والتي يحتاج دخولها إلى واسطة في الغالب والتي ابتليت بها بلادنا حتى ذلك الوقت» كنت سأستمر في الدراسة بكلية الحقوق لأنني دائما كنت أتوق لدراسة القانون وما حوله من دراسات إنسانية، كنت قد مهدت نفسي لها من واقع ممارساتي في العمل السياسي وأنا طالب بالثانوي. ولكني اخترت الكلية الحربية على أساس أنه يمكنني بعد التخرج منها أن ألتحق بالانتساب إلى كلية الحقوق وهذا ما حدث فعلا. واخترت الالتحاق بالكلية الحربية بعد مناقشة ومراجعة للنفس

سواء عن اقتناع كامل بها. أو عن بعض الاقتناع ولكن كانت هناك عدة أسباب عن تفضيلي الكلية الحربية، وهي:

١ ـ استهوائي لدور ضباط الجيش المصري الأبطال في ثورة عرابي سياسيا وعسكريا.

٢ ـ اقتناعي بأن أي تنظيم عسكري سياسي عادة لا تنفجر بداخله بذور الخلاف والشقاق بعكس التنظيمات السياسية المدنية التي كانت الثورات تشتعل على أيديها ولكن سرعان ما تنطفئ شعلتها من كثرة الخلافات فيما بينها.

٣ ـ بعد دراساتي عن الجندي المصري والضباط المصريين الذين اعتمد عليهم محمد علي في حروبه وفتوحاته وحقق بهم المعجزات بمقاييس عصره.

٤ ـ اعتقادي الكامل بأن أشرف ما يصبو إليه الإنسان المصري هو الدفاع عن وطنه وشعبه. ولا يمكن أن يتحقق هذا الكفاح ضد المحتل إلا عن طريق الانخراط في الجيش

٥ ـ اقتناعي بأن الضابط خريج الكلية الحربية بما يحصل عليه من ثقافة عامة مدنية وعسكرية تمكنه من مواصلة الطريق في ميادين العلم والمعرفة والثقافة بمداومة الاطلاع أو بالالتحاق فيما بعد بالكليات النظرية أو الدراسة من المنازل.

٦ ـ بعد معاهدة ١٩٣٦ أعيد تنظيم الجيش المصري (الكلية الحربية) على أحدث تنظيم. وكان الفضل الأكبر في ذلك لعزيز المصري باشا رئيس أركان حرب الجيش. بالإضافة إلى تشجيع بريطانيا لذلك التطوير. أملا في استخدام الجيش لخدمة أغراضها، خاصة بعد أن أطلت نذر الحرب العالمية الثانية.

في كلية الحقوق

قبلت في كلية الحقوق. وانتظارا للكشف الطبي، وكشف الهيئة (الواسطة) في الكلية الحربية. لم أضيع الوقت، وانتظمت في دراسة الحقوق بالجامعة. ومكثت بها أتلقى العلم لمدة ثلاثة شهور، كانت من أمتع فترات حياتي، حيث شعرت من المحاضرات التي كنا نحضرها أنها فعلا مدرسة الحياة، وكان أساتذتنا نخبة من العلماء الوطنيين المتخصصين في موادهم منهم الدكتور وايت إبراهيم

والدكتور عبد المنعم بدر والدكتور حشمت أبو ستيت والشيخ محمد أبو زهرة أستاذ مادة الشريعة. استهوتني جدا مادة الدستور، وكان أستاذها يقف عند كل مادة بدستور سنة ١٩٢٣، ويتلو علينا من واقع محاضر جلسات اللجنة التي وضعت الدستور آراء أعضاء هذه اللجنة في كل مادة، ثم يأخذ في التعليق والنقد المتعمق.

وخرجت بنتيجة أثناء هذه الدراسة الممتعة في المدة القصيرة التي أمضيتها في كلية الحقوق أنه لإيجاد حكم متوازن في بلد ما يجب أن يحقق دستورها التوازن الكامل بين السلطات وأن تحترم كل سلطة اختصاصات السلطات الأخرى.

في الكلية الحربية

في نوفمبر سنة ١٩٣٩ قبلت في الكلية الحربية، وتركت الدراسة في كلية الحقوق. درست مع دفعتي في الكلية الحربية لمدة ثلاث سنوات كاملة وتعتبر الدفعة الوحيدة التي استكملت برنامج الدراسة المدنية والعسكرية المقررة في هذه الكلية. وهذه الدراسة طبقا للنظم الحديثة تعتبر كافية، وعلى جانب من الأهمية للتخرج. وتخلل فترة الثلاث سنوات أحداث مهمة منها:

١ ـ استبعاد عزيز المصري من رئاسة أركان الجيش المصري كطلب السفير البريطاني بحجة أنه كان يروج الدعاية للألمان. وماطل علي ماهر رئيس الوزراء في طلب السفير البريطاني باستبعاده، وأحالة إلى حسين سري باشا. وكان لعزيز المصري باشا سمعة طيبة سياسيا وعسكريا وبرغم عدم اطمئنان الإنجليز له فقد كانوا يعتبرونه من أكفأ العسكريين في العالم.

٢ ـ حادثة محاولة هروب عزيز المصري إلى ألمانيا في مايو سنة ١٩٤١، وكنت بالقسم المتوسط بالكلية الحربية وقد قام بها عزيز المصري بالاتفاق مع الطيار حسين ذو الفقار صبري والطيار عبد المنعم عبد الرءوف (يمت لي بصلة القرابة) في محاولة للاستيلاء على طائرة عسكرية والهروب بها إلى ألمانيا. ولخلل في مفتاح بنزين الطائرة هبطوا بها اضطراريا في حقل في «قليوب». وتمكن الثلاثة من الوصول إلى مشارف القاهرة بعربة بوليس استعارها عزيز المصري من إحدى نقط الشرطة بالقليوبية بحجة أن سيارته تعطلت، وكان ضابط البوليس ممن تخرجوا على يديه عندما كان مديرا لكلية البوليس. واختفوا في منزل الفنان

عبد القادر رزق (أصبح عميدا لكلية الفنون بعد ذلك) في إمبابة وكان من أعضاء حزب مصر الفتاة. ومن المعجبين بشخصية عزيز المصري. وفي النهاية قبض عليهم رجل القلم السياسي المشهور إمام إبراهيم، وقدموا إلى المحاكمة العسكرية. وجهزت قاعة الألعاب الرياضية بالكلية الحربية لهذه المحاكمة. وكنا ونحن طلبة بالكلية الحربية نشاهد الجموع العسكرية والمدنية التي تحضر هذه المحاكمة، وكلنا إعجاب بهذه المغامرة الوطنية المثيرة. ولم تتم محاكمتهم للنهاية حيث دفع المحامين حافظ رمضان وعبد العزيز الشوربجي وحماده الناحل بعدم دستورية قانون الأحكام العسكرية الذي يحاكمون بموجبه لأنه قانون كان قد وضعه الإنجليز ولم يتم تصديق البرلمان المصري عليه. وقمت في أحد أيام إجازاتي الأسبوعية بزيارة قريبي المعتقل الطيار عبد المنعم عبد الرءوف في مكان التحفظ عليه بثكنات الجيش في منشية البكري ووقفت منه على ملابسات عملية الهروب. وعلمت منه أن عزيز المصري باشا بعد فشل حركة رشيد عالي الكيلاني في العراق. وعدم مساعدة الألمان له في الوقت المناسب اعتزم أن يذهب بنفسه إلى الألمان للاتفاق معهم على القيام بحركة مماثلة ضد الإنجليز في مصر لتحقيق الاستقلال على شرط أن تمده ألمانيا بما يطلبه من أسلحة وألا يتخلوا عنه كما تخلوا عن رشيد عالي الكيلاني في العراق. وأيامها، ولأسباب غير معروفة لي تم فصل الطالب يوسف أدهم من دفعتي من الكلية الحربية وقيل إنه كان على اتصال بعزيز المصري أيضا. وبعد توقف المحاكمة العسكرية وعدم ثبوت تهمة الخيانة من تحقيق النيابة العامة أفرج عنهم. ولم يسكت السفير البريطاني على ذلك، بل طلب من الحكومة المصرية اعتقال عزيز المصري واعتقل بالفعل في ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٢ واستمر معتقلا لمدة عامين وثلاثة أشهر وكان الاعتقال عقب قضية العوامة المشهورة بقضية الراقصة حكمت فهمي والجاسوس الألماني «أدلر» Adler أو حسين جعفر وهو اسمه المصري والتي حوكم فيها أيضا أنور السادات.

٣ـ حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ وقد تم وأنا طالب بالسنة النهائية بالكلية الحربية، وكان له وقع أليم في نفوسنا كطلبة عسكريين مصريين على وشك التخرج للعمل كضباط بالجيش لتوكل إلينا مهمة الدفاع عن شرف بلادنا. وقد اعتبرنا هذا الحادث طعنة موجهة إلى شرف مصر من مستعمر غاصب لا يحمل أي

شعور احترام أو تقدير لحليفته مصر المرتبط معها بمعاهدة تنص على الاحترام المتبادل بين الدولتين .

الخدمة بالجيش والأحداث

ويقترب شهر مايو سنة ١٩٤٢ ويتم تخرجي من الكلية الحربية وأعين ضابطا صغيرا (ملازم ثان) بالكتيبة الرابعة مشاة بالقنال ورئاستها بالقنطرة غرب . وذلك بعد الأحداث المهينة والمؤلمة في ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .

وتتوالى الأحداث السياسية إذ يخضع النحاس باشا رئيس الوفد ورئيس الحكومة . وتحت ظل إعلان الأحكام العرفية ، لمشيئة وتصرفات السفير البريطاني (لورد كيلرن) خضوعا كاملا ويستبد بالوطنيين المعارضين له ويجري عملية اعتقالات بالجملة لجميع الشرفاء بحجة تعاطفهم مع الألمان أو لمجرد الاشتباه في موقفهم المعادي للإنجليز ، وأحيانا بلا أسباب سواء استجابة للسفير أو استجابة لأهوائه السياسية . وكان على رأس من اعتقلهم علي ماهر باشا وعزيز المصري باشا . وبنفس القدر من التساهل يتراجع عن تشدده مع القصر وتهاون في حقوقه الدستورية مع رجال القصر وأعطى الملك حقوقا مخالفة للدستور . وفتح شهيته للتدخل . كل ذلك جرى ، وظن الساسة والزعماء أن كل هذه الأمور خافية على الشعب ولكنها على الأقل كانت تصلنا كضباط شبان يمثلون شريحة واعية من شرائح الشعب . مثل تلك الأحوال وتأملها كانت الدافع لجيلي والمعاصرين لهذه الأحداث للتصرف الواجب وقت الضرورة وليس أدل على ذلك من أننا ونحن مجموعة كبيرة من الضباط الصغار بالكتيبة الرابعة مشاة جمعنا أركان حرب الكتيبة الشاب في أحد ليالي يوليو سنة ١٩٤٢ ، في وقت راحتنا جميعا ، وفي غير أوقات العمل ، داخل ميس الضباط وأبلغنا بأن القوات الألمانية وصلت إلى منطقة العلمين على مقربة من الإسكندرية بقيادة «روميل» وأن موقف الجيش الإنجليزي في غاية السوء ، وأنه علم أن خطة البريطانيين أنه في حالة تدهور الموقف العسكري أكثر من ذلك سوف ينسحبون من مصر إلى فلسطين وإلى الهند ، ولتغطية الانسحاب كانت الخطة تقضي بإغراق مديرية البحيرة وتدمير معظم الكباري والجسور ـ وكل آبار البترول في مصر ـ وأن هذه الخطة تسربت أخبارها حيث إنهم حاولوا الاتصال بقادة الجيش المصري الكبار لمعاونة الجيش البريطاني في هذه العملية . ولكن كانت هناك

مقاومة لهذه الخطة على مستوى الحكومة ولكن البريطانيين إذا ترددت حالتهم العسكرية أكثر، سوف لا يقيمون لرأي المصريين أي وزن وذلك في سبيل حماية خطوط انسحابهم بتنفيذ خطة التدمير التي شرحها لنا أركان حرب الكتيبة الملازم أول يوسف حسن محمد ـ وفي الحال بعد أن سمعنا هذه الأنباء الخطيرة ودون أن ننتظر لأخذ الرأي، أقسمنا جميعا على أننا سنقف في وجه الجيش البريطاني في هذا الأمر وسوف لا نسمح أبدا بتخريب بلادنا.

تكوين أول تنظيم وطني للضباط

وكانت خطة الضباط الوطنيين أنه في حالة هزيمة الجيش البريطاني في «العلمين» سوف نتحرك بكتائبنا وجنودنا وأسلحتنا ودون انتظار أوامر إلى الأهداف الحيوية في البلاد لنحميها من تخريب الجيش البريطاني وبهذا تكون أول تنظيم وطني للضباط.

وتتابع الأحداث

أصدر الملك في أكتوبر سنة ١٩٤٤ خطاب إقالة مهين للنحاس باشا. توالت الأحداث والتغييرات الوزارية والاغتيالات السياسية إلى سنة ١٩٤٦ وهو ميعاد تكوين أول تنظيم أو تجمع سري وطني للضباط الشبان الساخطين على الإنجليز وعلى أحوال البلاد وعلى بعض الزعماء والقصر خصوصا بعد أن تمادى الملك في فساده وإحكام قبضته واعتداءاته علي الدستور.

وفي أكتوبر سنة ١٩٤٤ بعد إقالة النحاس باشا كلف الملك فاروق الدكتور أحمد ماهر باشا رئيس الحزب السعدي بتأليف الوزارة وأجريت الانتخابات وقاطعها حزب الوفد وجاءت الانتخابات بأغلبية من السعديين والأحرار الدستوريين والكتلة الوفدية (حزب مكرم عبيد).

وفي آخر سنة ١٩٤٥ تم اغتيال أحمد ماهر عقب خروجه من قاعة البرلمان بعد إعلانه الحرب على المحور.

وفي أول عام ١٩٤٦ ألف محمود فهمي النقراشي الوزارة.

وفي نفس العـام اغتيل وسيط النحاس باشـا بالإنجليز والسفير البـريطاني أمين عثمان باشا وأيضا في نفس العـام، قـامت المظاهرات الوفـدية لمطالبـة النقـراشي بالاستقالة وبجلاء الإنجليز نهائيا.

وفي فبراير سنة ١٩٤٦ طلب السفيـر البـريطاني من الملك أن يقيـل وزارة النقراشي، واستجاب الملك لذلك.

وفي فبراير سنة ١٩٤٦ ألف إسمـاعيل صدقي الوزارة. بعد شهرين فقط من سقوط وزارة النقراشي واشترك الأحرار الدستوريون في الوزارة الجديدة.

وفي نفس عام ١٩٤٦ حاول صدقي باشا التفاوض مع الإنجليز وفشل، ثم عاود المحاولة، وتوصل مع بريطانيا إلى مشروع مفاوضة أطلق عليه «مشروع صدقي بيفن»، وبموجب هذا المشروع كانت مصر ستوضع في دائرة الأحلاف العسكرية الغربية، وعارضت جميع الأحزاب والشعب هذا المشروع، وقامت المظاهرات الصاخبة لتفضح هذا المشروع وزاد عنف الحكومة، وزاد معها عنف المظاهرات.

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٦ استقال إسماعيل صدقي من الوزارة.

وفي أول يناير سنة ١٩٤٦ ألف النقـراشي باشـا الوزارة للمـرة الثانية من حـزبي السعديين والأحرار الدستوريين وبدأ فورا في الاتصال بـالإنجليز للتفـاوض وفشلت المحاولة، وبعد فشلها سنة ١٩٤٧ سافر النقراشي باشا إلى الأمم المتحدة لعرض قضية استقلال مصر وجلاء البريطانيين على مجلس الأمن وكان هذا متزامنا للوقت الذي كانت تعرض فيه قضية فلسطين في مجلس الأمن. ولم يتوصل النقراشي في مجلس الأمن إلى نتيجة نظرا لسيطرة الدول الكبرى على المنظمات الدولية.

وفي هذا الوقت بالذات بدأ التنظيم الوطني للضبـاط ينمـو ويتمـاسك بعض الشيء وبدأت ملامحه في أذهاننا وجلساتنا ومناقشاتنا تتضح.

السخط والتبرم يولد التجمع

عادت الإمبراطورة فوزية شقيقة الملك فاروق زوجة شاه إيران إلى البلاد، تصحبها شائعة الخلاف مع الشاه. كانت ستصل بالطائرة إلى مصيف الأسرة بالإسكندرية، لتهبط بها في مطار النزهة في أحد أيام شهر يونيو شديدة الحرارة. وخرجت كتائب من حامية الإسكندرية ومن ضمنها كتيبتي الرابعة لتصطف على

جانبي الطريق من مطار النزهة حتى القصر . وطال انتظارنا للموكب، ثم أبلغنا أن الطائرة ستتأخر عدة ساعات أخرى . وعلينا أن ننتظر وقوفا . أثارنا انتظارنا الطويل المهين كضباط . حتى يحين موعد وصول الطائرة، وتجمع لفيف من الضباط الشبان، وكنت معهم وأخذ كل منا يعبر عن سخطه على هذه المهانة وكان تعليقنا أن الجيش لم يشكل لمثل هذه المهام المهينة، وإنما عليه أن يقوم بواجبه الأول من تدريب ومناورات ، واستعداد ليوم الذود عن الوطن وعندما طال الانتظار امتد الحديث وتناول ما نقاسيه ويقاسيه الشعب من المستعمر ومن الحكام وكان معي من الكتيبة زميلي ودفعتي سيد جاد عبد الله سالم ولفيف آخر من مختلف الوحدات .

لم ينته هذا الاجتماع الواقف إلا ونحن على ميعاد آخر للحديث في مثل هذه الأمور .

تم الاتفاق في الحال على بدء اجتماعاتنا وكان الاجتماع الأول في منزلي ٦ شارع البرموني بعابدين ، في غرفة فسيحة أعلى المنزل، وتوالت الاجتماعات وتنوعت الأحاديث الوطنية . واتسعت حلقة التنظيم حيث كنا نحضر في كل اجتماع وبرفقة كل واحد عدد قليل من الضباط الوطنيين الموثوق بهم، بعد جس نبضهم، ثم وضعنا دستوراً لهذا التنظيم بعد فترة لاحقة بألا ينضم أي ضابط له إلا بعد أخذ الآراء عليه قبل حضوره. وكنا نتناول في هذه الاجتماعات شبه السرية مآخذ الشعب على الملك ورجال القصر ، وعلى الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة والبرلمان ومواقفهم وتجاوزاتهم وتوصيل هذه المعلومات التي لا تنشر في الصحف عن هذه المآخذ .

وتوالت الاجتماعات في منزلي وفي منزل ضابط الفرسان «مصطفى نصير» بالسيدة زينب وبعد أكثر من خمسة اجتماعات كانت صورة هذا التنظيم كالآتي :

عن الفرسان «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ مصطفى عبد المجيد نصير .
٢ ـ عبد الحميد عبد السلام كفافي .
٣ ـ محمد حلمي إبراهيم .
٤ ـ جمال منصور .
٥ ـ محمد سعد الدين حافظ .
٦ ـ عبد السلام فريد .
٧ ـ رضا صابر صبري .
٨ ـ سعد حنفي حسن .
٩ ـ عبد الرحمن فهمي .
١٠ ـ مصطفى كمال صدقي .

عن المدفعية «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محسن عبد الخالق السيد .
٢ ـ فتح الله رفعت فتح الله .
٣ ـ رشاد مهنا .
٤ ـ محمد كمال عبد الحميد .
٥ ـ سعد زايد .
٦ ـ محمد أبو الفضل الجيزاوي .
٧ ـ مدحت فهمي .
٨ ـ على حسن مصطفى .
٩ ـ محمد أحمد حسن .
١٠ ـ أمين مظهر .
١١ ـ زكي منصور .
١٢ ـ محمد أبو اليسر الأنصاري .
١٣ ـ أنور الصبحي .
١٤ ـ فؤاد مجدي .

عن الإشارة «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محمد عبد العزيز الألفي .
٢ ـ عبدالله أباظة .
٣ ـ أحمد عبد الدايم .
٤ ـ شريف أباظة .

عن المشاة «دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ محمد محمد علي بدران .
٢ ـ عبد الرحمن مخيون .
٣ ـ محمد عبد الفتح أبوالفضل .
٤ ـ عباس عبد الوهاب رضوان .
٥ ـ إبراهيم بغدادي .
٦ ـ محمد هاشم حسين .
٧ ـ رياض مصطفى سامي .
٨ ـ محمد محمد أبو شهبة .
٩ ـ السيد جاد عبد الله سالم .
١٠ ـ محمد نيازي .
١١ ـ حسين عبد القادر .
١٢ ـ فوزي عبد العظيم .
١٣ ـ حسن عبد السلام القويسني .
١٤ ـ حسن التهامي .
١٥ ـ أحمد عبد الله طعيمة

سلاح خدمة الجيش «دون ذكر الرتب» السيد:

١ ـ حسنين حسني عبد المجيد .

المهمات «دون ذكر الرتبة» السيد :

١ ـ هاشم سعيد العربي .

البحرية «دون ذكر الرتبة» السيد:

١ ـ رجب فهمي.

الطيران دون ذكر الرتب» السادة:

١ ـ عبد المحسن أحمد صالح الوسيمي.
٢ ـ محمد فكري زاهر.
٣ ـ عز الدين العيادي.
٤ ـ مختار سعيد.
٥ ـ أحمد شكري.
٦ ـ عهدي خيرت.
٧ ـ طلعت ناجي.
٨ ـ عبد الكريم محرم.

وكان التكليف الرئيسي في بداية تكوين هذا التنظيم هو تجمع أكبر عدد ممكن من الضباط، والتفكير في عمل شعبي حتى لا تتسع الاجتماعات وينكشف أمرنا من البداية، وكانت تجمع اشتراكات تستخدم في مساعدة هذه الحركة عند اللزوم. وكان أول عمل استخدمنا فيه جزءا من حصيلة الاشتراكات سنة ١٩٤٧ هو إرسال تلغراف باسم ضباط الجيش لتأييد رئيس الوزراء النقراشي باشا في عرضه لقضية مصر في مجلس الأمن قبل سفره.

وقد حدث نقاش حول تحديد هدف التنظيم، وهو التخلص من الاستعمار ـ ثم أخذنا في مناقشة وسائل تحقيق هذا الهدف ـ وطال النقاش في تحديد الوسائل (وهي بوجه عام التخلص من معوقات تحقيق هذا الهدف) واختلفنا في ذلك اختلافًا نظرا لتعدد ميولنا السياسية والعقائدية، وأرجأنا البحث فيها إلى مرحلة أخرى (وبرغم أن كل منا كان يعرف هذه الوسائل، فكان هناك ملك فاسد وحاشية انتهازية وأحزاب لا يهمها إلا شهوة الحكم ـ وبرلمان بعيد عن واقع الشعب لا يمثل إلا طبقة الحكام).

وهذا التنظيم السري كان تنظيما موسعا تنقصه شروط الأمن الكافية، ومع ذلك لم ينكشف أمره أبدا إلا بعد حملة فلسطين، وقبض على بعض أفراد منه للتحقيق، ثم أفرج عنهم لعدم ثبوت الأدلة. ولا أدعي أن هذا التنظيم هو نفس تنظيم الضباط الأحرار. لكن بعد عودتنا من حملة فلسطين استمر التنظيم في عقد اجتماعاته في الوقت الذي كان فيه تنظيم الضباط الأحرار آخذا في التكوين، ودخله بعض أعضاء من تنظيمنا.

كذلك انشق من هذا التنظيم في مرحلة لاحقة تنظيم الحرس الحديدي وكان أغلبنا معارضين لفكرة تكوين الحرس الحديدي لتعاونه مع الملك، وهو أحد عناصر الفساد المحددة. ولذا استبعدنا جميع الذين انضموا إلى الحرس الحديدي ومنهم: سيد جاد عبد الله، وحسن التهامي ومصطفى كمال صدقي وخالد فوزي وغيرهم.

تنظيمات أخرى من الضباط

لم تتوقف التكوينات الوطنية بالجيش المصري عبر تاريخه فبينما كان هناك ظلم واقع على الشعب المصري كانت هناك دائما تكوينات من ضباط الجيش المصري لمواجهة هذا الظلم والذي كان غالبا ما يعاني منه هو أيضا مثل هذه الحركات التي برزت بشكل واضح في الثورة العرابية. حتى في عصر القهر الكامل، وبعد مقتل سردار الجيش المصري بالسودان السير لي ستاك في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٢٤. كانت هناك تكوينات من الضباط الوطنيين المصريين والسودانيين وقفت في وجه الإنجليز والملك ورئيس وزارته عندما طلب الإنجليز من الجيش المصري بالسودان تسليم سلاحه والانسحاب من السودان. كما حوكم وأعدم بعض الضباط المصريين والسودانيين وقبل ذلك أيضا تكونت تنظيمات من ضباط الجيش المصري في السودان لجمع توقيعات الضباط المصريين وأفراد الجالية المصرية بالسودان لتأييد سعد باشا زغلول وتفويضه ووفده في تمثيل الأمة للمطالبة بالاستقلال عندما أعلن الإنجليز أنهم لايمثلون رأي الشعب. وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية، وفي سنة ١٩٤٠ تحديدا، وعندما رفضت السلطات المصرية دخول مصر الحرب مع بريطانيا، واكتفت مصر بتنفيذ البند السابع من معاهدة سنة ١٩٣٦ التي تلزم مصر في حالة اشتراك بريطانيا حليفتها في الحرب أن تقدم فقط تسهيلات للمجهود الحربي البريطاني من طرق مواصلات ومطارات وأماكن إيواء. كان الجيش البريطاني - آنذاك - في أمس الحاجة إلى الأسلحة وبخاصة المدفعية بأنواعها، والتي كان الجيش المصري مزودا بها بمستوى لا بأس به. طالبت قيادة الجيش البريطاني في مصر السلطات المصرية. بأن يقوم الجيش المصري بتسليم أسلحة إلى الجيش البريطاني. وتكونت في الحال مجموعة وطنية صغيرة من ضباط المدفعية في حامية مرسى مطروح. قررت فيما بينها وجوب تحريض باقي ضباط وقوات الحامية في التصدي لهذا الأمر برفض تسليم الأسلحة لهم بأي حال.

كان هذا التجمع من الضباط المصريين يضم دون ذكر الرتب: عبد المنعم أمين، وأبراهيم حافظ عاطف، وأحمد فؤاد، ومنصور المغربي، وحافظ إسماعيل، ومصطفى لطفي وحسين الهادي.

وانتهت الحرب العالمية الثانية، ثم اشترك الجيش المصري في حملة فلسطين، وتفرق شمل هؤلاء الضباط. وكذا تنظيم الوطنيين السري.

وفي أوائل عام ١٩٥١، وبعد حملة فلسطين تجمع شمل بعضهم وانضم إليهم الضابطان عبد الحميد الدغيدي وحسين محفوظ. وإزاء ما كان يعانيه الشعب المصري وقتها من تجاوزات السفارة البريطانية وتسلطها على أمور البلاد، وخضوع القصر والوزراء لها، وبسبب الفشل الذي عاد به الجيش المصري من حملة فلسطين نتيجة جهل القيادة وتصرفات السياسيين، وفضائح صفقات الأسلحة التي كان للحاشية الملكية ضلع فيها، عاد هذا التجمع، أو التنظيم، إلى الاجتماع في منزل إبراهيم حافظ عاطف بشارع جسر السويس وتشاوروا وقاموا بصياغة انتقاداتهم في أمور بلادهم في شكل منشورات، وقام إبراهيم حافظ عاطف بمسئولية كتابة وطبع وتوزيع هذه المنشورات من داخل الوحدة التي كان يقودها في مدرسة المساعدة الجوية، وساعده في الكتابة على الآلة الكاتبة الكاتب المدني المرحوم صلاح عبد الحميد. وتطوع الضابط المرحوم على لبيب حسني بالطباعة كما اشترك بعض المدنيين في مرحلة لاحقة في هذا العمل ومنهم المرحوم الدكتور عبد الحميد حسين. وكان لمنشورات تلك المجموعة صدى طيب الأثر في أوساط الضباط الذين وزعت عليهم وبمجرد توزيع أول منشور، اتصل بالمجموعة كمال الدين حسين وعلي فوزي يونس واقترحا البدء في عمل تنظيم وخلايا حتى يتحقق العمل الجاد المنظم بأقصى قدر من الأمان.

مجموعة أخرى من الضباط

كون الضابط مصطفى كمال صدقي مجموعة جديدة مع جزء من المجموعة السابق تكوينها في سنة ١٩٤٦ وضم إليها بعض صولات الجيش وكان يجمع أفرادها مع بعض أعضاء تنظيم سنة ١٩٤٦ مما جعل أحد الصولات يلم ببعض المعلومات عن التنظيم.

وفي أكتوبر سنة ١٩٤٧ أبلغ هذا الصول واسمه جمال جلال من مجموعة مصطفى كمال صدقي (وكان قد حضر بعض الاجتماعات وتعرف على كثير من أسماء الضباط) أبلغ الصول وزارة الداخلية أن لفيفا من ضباط الجيش يقوم بالتجهيز لاغتيال الملك أثناء موكبه إلى البرلمان ، وأبلغ عن أسماء ٢٩ ضابطا متآمرا وكان من الجماعة السرية التي كنت أجتمع فيها ولم يشملني هذا الاعتقال. أمر رئيس الوزراء، النقراشي باشا بمراقبة هؤلاء الضباط ولما لم يثبت عليهم أي تآمر فقد صرف النظر عن اتخاذ أي إجراء.

ولما لم يستجب رئيس الوزراء لهذا البلاغ قام الصول جمال جلال بتبليغ ذلك إلى عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش، الذي أبلغ بدوره الملك فاروق وأمر الملك عطا الله باشا باعتقالهم، وجرى التحفظ عليهم في ميس المشاة. وأجرت النيابة العامة معهم تحقيقات قام بها النائب العام حافظ سابق، ولم يثبت عليهم أي شيء وأفرج عنهم وكان من الضباط المعتقلين كل من (دون ذكر الرتب): رشاد مهنا، عبد الرءوف نور الدين، عثمان فوزي، عبد الحميد كفافي، أحمد يوسف حبيب، صول فني محمد حسين، أنور الصيحي، عبد القادر طه، مصطفى كمال صدقي، حسين فهمي عبد الحميد مصطفى نصير، عبد المنعم عبد الرءوف، ممدوح جبه.

وعقب ذلك أعفى عطا الله باشا من منصبه، وعين بدلا منه عثمان المهدي باشا رئيسا لهيئة أركان حرب.

معــــارك ١٩٤٨

في أوئل عـام ١٩٤٨ أعلنت بريطانيا فـجأة أنهـا ستنهي انتدابهـا على فلسطين في ١٥ مـايو سنة ١٩٤٨ دون أن تنتظر حلا من هيئة الأمم المتحدة، تاركة عرب فلسطين العزل في قبضة العصابات الصهيونية المسلحة تسليحا شاملا حيث انضم إلى إسرائيل «الفيلق اليهودي» الذي كان يشكل إحدى وحدات الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية.

وعند صدور قرار الأمم المتحدة بإنشاء دولة إسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ كان الملك فاروق قد استأثر بالسلطة السياسية في مصر. وكان لتدخله السبب الرئيسي في دخول مصر بجيشها إلى فلسطين دون الاستعداد. وبنفس الأسلوب المريب زج زعماء الدول العربية الأخرى بجيوشهم في حرب لم يتخيروا توقيتها وهم على غير استعداد لها.

وحتي ١١ مـايو سنة ١٩٤٨ كـان رئيس الوزراء النقراشي باشا لا يزال يرفض اشتراك الجيش المصري في الحرب بدعوى أن وجود القوات البريطانية في قاعدة القنال سيكشف الجيش المصري وقد يهدد سلامة هذا الجيش، وخطوط مواصلاته في الأوقات الحرجة بسبب تعاطف إنجلترا مع إسرائيل.

وفجأة في يوم ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ طلب النقراشي اجتماع البرلمان، وبصفة عاجلة. وفي جلسة سرية أقنع الأعضاء بالتصديق على دخول الجيش المصري إلى فلسطين. والحقيقة أن حيدر باشا وزير الدفاع المصري كان قد تجاوز سلطاته. ودون أن يأخذ رأي مجلس الوزراء أصدر الأوامر إلى الجيش باجتياز الحدود إلى فلسطين دون أن ينتظر عرض الموضوع على البرلمان كما يقضي دستور البلاد. وكان تبريره

لذلك أنه ينفذ أوامر الملك بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة. وكضباط وطنيين شبان خلال تنفيذنا للأوامر وأثناء التحركات والعمليات كان لا يغيب عن وعينا هذه المهزلة من التجاوزات.

على الطريق إلى فلسطين

وجاء يوم ١٣ مايو وكنت ضابطا برتبة ملازم أول بالكتيبة التاسعة مشاة، فصدرت الأوامر بالتحرك إلى حدود فلسطين وتوجهت الكتيبة بجميع وحداتها إلى رصيف محطة العباسية العسكرية بالقاهرة. وقبل أن نصعد إلى القطار الحربي الذي أقلنا إلى الميدان حضر إلينا قائد القوات المصرية المعين لقيادة هذه الحملة اللواء المواوي. وبعد فترة حضر أيضا رئيس هيئة أركان حرب الجيش اللواء عثمان المهدي باشا. وقبل أن يتحرك القطار أطل علينا المواوي وإذا به يلقي علينا خطابا استهان فيه بقوات العدو فأخذ يصفها بأنها كالعصابات الإجرامية التي يطاردها البوليس المصري في الصعيد.

واندهش الكثير منا لمدى استهتار القائد الموكل إليه أرواح شباب الأمة، حيث إن جميعنا قد قرأ في الصحف قبل قيام الحملة عن عنف الإرهاب الصهيوني، وما كان يعانيه الجيش البريطاني نفسه على يد تلك العصابات. بالإضافة إلى الفيلق اليهودي المدرب على أحدث فنون القتال التقليدي.

أخذ الشك يساورنا إن كان هذا القائد قد كلف نفسه مشقة البحث والتدقيق فيما هو مقدم عليه حتى يتسنى له القيام بالتخطيط العسكري السليم كما يقضي بذلك منصبه القيادي. وأثناء هذه الكلمة أخذت أبحث بعيني بين صفوف الرئاسات عن وجوه هيئة مكتب هذا القائد، وميزت بينهم وجه أركان حربه الصاغ «فريد عبد الله» الذي كان يدرس لي مادة التكتيك بالكلية الحربية. حيث كان يتقن دروس مادته على الورق وعلى تختة الرمل فاطمأننت بعض الشيء وحدثت نفسي أنه لا بأس أن يكون القائد بهذا المستوى المنخفض إذا ما كانت هيئة مكتبه للعمليات علي كفاءة عالية ليعوضوا عجز القائد.

على الحدود المصرية الفلسطينية

عندما وصل القطار بنا إلى العريش، تم احتلالنا لمواقع ميدانية في العراء دون أي تجهيز مسبق رغم أننا كنا لا نزال في أرض مصرية.

وفي العريش وزعت علينا خرائط الميدان التي تغطي معظم أرض فلسطين وكان عددها ضخما وجدت صعوبة كبيرة في حفظها داخل ربطة الفراش المخصصة لنومي. وكان الواجب أن نوزع على الضباط الصغار أمثالنا خريطة أو اثنتين حسب المعارك المنتظرة لنا ثم تسحب بعد كل معركة وتوزع للمعارك التي ستأتي بعدها خرائطها وهكذا.

بعد أن أمضينا في العريش يومين في العراء، تقدمنا إلى الحدود الفلسطينية في رفح وأمضينا الليل هناك. وفي الصباح اجتزنا الحدود المصرية الفلسطينية وعلى الفور اشتركت الكتيبة السادسة مشاة تحت قيادة القائد جاد سالم في معركة الدنجور (مستعمرة إسرائيلية بالقرب من رفح). وفي أثناء المعركة اتخذت جميع القوات المصرية شكل الطابور في مكان ما على الطريق إلى غزة بالقرب من رفح، ومكثنا ننتظر نتيجة المعركة. وبعد مدة بسيطة من سماعنا لأصوات تبادل نيران المدافع والأسلحة الصغيرة بدأنا نشاهد العديد من عربات الإسعاف التي أخذت تحمل المصابين المصريين مارة من أمامنا في طريقها إلى مستشفيات الميدان المتحركة. وفي الظهيرة علمنا بكثرة الخسائر في الضباط والجنود المصريين، إلا أن الكتيبة المصرية لم تتمكن من الاستيلاء على المستعمرة.

بعد سماعي لهذه الأخبار سحبت خريطة الميدان الخاصة بهذه المعركة والمنطقة المحيطة بمستعمرة الدنجو. كانت هذه المنطقة تغطى المسافة بين رفح وغزة وأخذت في حصر عدد المستعمرات الإسرائيلية المماثلة والتي تنتشر في نفس المنطقة وكانت واضحة على الخرائط بدوائر حمراء فوجدت عددها لا يقل عن ٤٥ مستعمرة صهيونية. وهذه المستعمرات كانت تشكل جزر مقاومة دفاعية حصينة تحمي بعضها بعضا بواسطة نيران المدفعية وكل منها بالقطع كان مثل مستعمرة الدنجور في مناعتها ومحاطة بأسلاك شائكة وألغام كموانع دفاعية منشأة على أحدث النظم الدفاعية العسكرية آنذاك.

وفهمنا من معلومات العائدين من القتال أن داخل المستعمرة توجد دشم حصينة مغطاة الأسقف ومن حولها أكياس للرمال لتحميها من قصف المدفعية المصرية. ويقف في هذه الدشم الجنود الإسرائيليون المدافعون وتربط هذه الدشم شبكة من خنادق المواصلات محفورة بحيث تيسر وتسرع من حركة الجنود المدافعين بين الدشم وبعضها وبين الدشم ومواقع الذخيرة وأماكن إخلاء الجرحى حتى تمكنهم من تعويض الخسائر وسد الثغرات بسرعة أثناء الهجمات والقصف. كما لاحظت القوات المصرية التي اشتركت في معركة الدنجور أن لدى الصهاينة مدافع هاون يحسنون استخدامها وتوجيهها، فقد كان القصف متواصلا من المستعمرات المحيطة للدنجور لمساعدتها في صد هجوم الجنود المصريين كما كانت توجه بعض نيرانها على طابور الجيش المصري المنتشر على الطريق. إلا أن مدفعية الميدان المصرية كانت متفوقة جدا على المدفعية الإسرائيلية، ولذلك عندما بدأت المدفعية المصرية بالرد وقامت بقصف المستعمرات الأخرى المحيطة بالدنجور توقف الضرب الإسرائيلي على طابور الجيش المصري المنتظر على الطريق. بعد اطلاعي على هذه المعلومات بالإضافة إلى ضخامة عدد المستعمرات المماثلة مع مقارنتها بكثرة الخسائر التي منيت بها قوات الهجوم المصري دون أن تحقق هدفها تكشف لي أن معركتنا مع إسرائيل لا يصح أن تكون بهذه الصورة بأي حال من الأحوال وإلا فني الجيش المصري بأكمله قبل أن يشترك في معركة فاصلة فإزاء كثرة الجزر الدفاعية الحصينة من المستعمرات ستهلك جميع قواتنا إذا استمرت محاولاتنا في الهجوم على مستعمرة تلو الأخرى. كما أن إسرائيل لا بد أنها لديها قوات هجوم أخرى لم نتعامل معها بعد، ولا بد أنهم سيستخدمونها بعد أن تستنفد قواتنا. وعلى قدر تفكيري العسكري كضابط صغير توقفت عند هذا الحد فقد صدرت إلينا الأوامر عصر ذلك اليوم بأن نسرع بالتقدم صوب غزة قبل حلول الظلام حتى تتمكن القوات المصرية من السيطرة على المناطق الفلسطينية حسب مشروع التقسيم.

ونحن على الطريق إلى غزة أغارت علينا بعض الطائرات الإسرائيلية، ولكن طابورنا المتحرك كانت تحميه قوة مصرية لا يستهان بها من المدفعية المضادة للطائرات من مختلف الأنواع (الثقيلة والمتوسطة والخفيفة) فتصدت مدفعيتنا للطائرات المغيرة فأصابت إحداها ولاذت الطائرات الأخرى بالفرار دون أن تتمكن من إصابتنا أو

إسقاط قنابلها علينا وقد كان لتلك المناوشة الصغيرة أثر طيب في رفع معنوياتنا التي كانت قد اهتزت بسبب مشاهدتنا لخسائر جنودنا في الدنجور.

الوصول إلى غزة

قبل أن نصل إلى غزة كان علينا أن نمر خلال طريق مزروع بجزر المقاومة الدفاعية من مستعمرات العدو. ولكن الطابور المصري المتقدم الذي كان يضم جميع القوات المصرية المحاربة بمختلف أسلحتها وتشكيلاتها كان هذا الطابور وللحق تشكيلا منظما تتوافر لأجنحته ومقدمته ومؤخرته الحماية الجيدة أثناء التحرك.

ولم يكن في مدينة غزة أية قوات إسرائيلية عندما وصلنا إليها وكان ذلك طبقا لمشروع التقسيم الدولي، واصلت كتيبتي السير متخذة مواقع دفاعية للمدينة التي اتخذتها القوات المصرية مركزا لرئاسة القوات وتجمع الحشود.

وضمن خطة الدفاع الشاملة مع باقي الكتائب اتخذت باقي كتيبتنا مواقع دفاعية أخرى لتجعل من غزة منطقة دفاعية منيعة. و«تلال علي المنطار» كانت تمثل موقعا دفاعيا حصينا إذا أحسن احتلاله حيث إنه يحيط بغزة من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية. بعد إتمام عملية احتلال المواقع الدفاعية وفي ظلمة الليل وبعد أن ساد قواتنا شعور الاطمئنان الدفاعي أخذت أطل من موقعي المرتفع الحصين على وادي غزة وشعرت بالراحة والاطمئنان وفي سكون الوحدة التي يشعر بها المقاتل في المواقع الدفاعية عاودت التفكير في أحوالنا العسكرية.

وتذكرت خطاب القائد على رصيف محطة العباسية وتأكيده لنا أننا سنواجه شرذمة من العصابات الإسرائيلية لا تحتاج لأكثر من جهد رجال البوليس في مطاردة عصابات الصعيد، ثم تذكرت حجم الخسائر التي أصابتنا بسبب مستعمرة واحدة على يد «عصابات الصعيد» على حد تعبير القائد ولم يكن أمامي سوى أحد استنتاجين إما أن هذا القائد وهيئة عمليات مكتبه وأركان حربه لم يقوموا بواجبهم البديهي من استطلاع واستكشاف وجمع المعلومات لمدى قوة العدو، وبذلك يكون تفكيرهم قد توقف عندما وجدوا أنفسهم في وسط المعركة، أو أن هيئة عمليات

ذلك القائد آثرت الطاعة العمياء له فسمحت له أن يبدأ الحرب بأسلوب البوليس في مطاردة المجرمين.

وحتى تهدأ نفسي بعض الشيء أخذت أقارن بين قواتنا العسكرية وقوة العدو. كان التسليح الإسرائيلي حسب المعلومات المتاحة بعد تجربة الدنجور يتكون من قوات مشاة مسلحة تسليحا جيدا تساعدها في الدفاع مدافع الهاون وفي حالة ممتازة وتستخدم استخداما في غاية الكفاءة، إلا أنه كان من الواضح أن إسرائيل لا تزال تفتقر إلى مدفعية الميدان الثقيلة التي لم يظهر لها دور على الإطلاق في هذه المراحل الأولى. أما الطيران الإسرائيلي فكان ضعيفا للغاية، كما كان لدي الإسرائيليين مصفحات مصنوعة في فلسطين من مخلفات العربات العسكرية البريطانية ومن عربات اللوري حيث قاموا بصنع ألواح من الدروع حول هذه العربات، فكانوا يستخدمونها بكثرة في مهاجمة القرى العربية معزولة السلاح أو ضعيفة التسليح، فلم تواجه هذه الدروع في تلك الهجمات أية أسلحة مضادة. وكان الجيش المصري يتفوق عليها لأن لدينا مدفعية على أعلى مستوى وأسلحة مضادة للدروع والدبابات.

أما الجيش المصري فكان يتكون من تسع كتائب فقط من المشاة وثلاث كتائب مشاة أخرى ضمن لواء جديد تحت التكوين، بالإضافة إلى كتيبتين كاملتين من مدافع الماكينة الفيكرز جيدة التسليح وهي موزعة على كتائب المشاة التسع كسلاح مساعد، بالإضافة إلى ذلك كانت كتائب المشاة مسلحة بمدافع مضادة للدبابات من عيار ٦ رطل، وهو سلاح كانت تفتقده إسرائيل في ذلك الوقت. وبذلك كان سلاح المدفعية المصرية سواء مدافع الميدان أو المدافع المضادة للدبابات أو المضادة للطائرات متفوقا تفوقا ساحقا من حيث التسليح والكفاءة والتدريب على سلاح المدفعية الإسرائيلي. أما الطيران المصري فقد كان أكثر كثافة وأكفأ بمراحل من الطيران الإسرائيلي.

كان النقراشي باشا قبل أن يورطه الملك بدخول الجيش المصري الحرب من أنصار تكوين تشكيلات وتنظيمات من المتطوعين والفدائيين العرب، فسمح لكثير من الضباط المصريين أن يتركوا وحداتهم وينضموا لهذه التشكيلات الفدائية بحيث يتم تسهيل وضمان تسليح وتدريب هذه القوات من المتطوعين، ثم يندفعون هم في حرب عصابات منظمة من داخل القرى والمدن العربية في فلسطين، فيتم في النهاية

تسليح معظم هذه القرى وتقويتها وتحصينها وبالتالي تضعف تدريجيا قدرة العصابات الصهيونية، وتصبح هي ذاتها تحت رحمة مقاومة الأهالي والمتطوعين العرب، وفعلا قبل إعلان مصر دخول الحرب بجيشها النظامي بادر أعداد من شباب الضباط المصريين بالتطوع ومعهم أعداد هائلة من شباب مصر خاصة شباب الإخوان المسلمين، وتكون منهم تشكيل توجه بالفعل داخل الحدود الفلسطينية قبل دخول الجيش المصري. وكان هذا التشكيل بقيادة الضابط أحمد عبد العزيز الذي استشهد في هذه الحملة وهو من أكفأ وأشجع ضباط الجيش المصري، كما كان يدرس لنا مادة التاريخ العسكري ونحن طلبة في الكلية الحربية، كما انضم إليه نخبة من ضباط الجيش منهم كمال الدين حسين وعبدالمنعم عبد الرءوف وغيرهم. وعندما تذكرت ذلك شعرت ببعض الندم لعدم انضمامي لصفوف المتطوعين وكان عذري هو صغر رتبتي وعدم علمي ـ حسب ما أتذكر بطريقة التطوع حينئذ.

عند ذلك أيقنت أنه كان من الأجدى أن تجمع التبرعات على مستوى الأمة العربية قبل ذلك بمدة ليتم شراء أسلحة ومعدات وذخائر، وليتم تسليح شعب فلسطين العربي في المدن والقرى، وتقوم هيئة عربية بالتخطيط لتسليح ووضع خطط الدفاع لهذه القرى والمدن العربية لتكون قادرة على صد أي هجمات من العصابات الصهيونية المسلحة التي أرعبت الشعب الفلسطيني بالمذابح والغارات، وبذلك يصمد الشعب في مكانه. كما كان من الأصوب أو هكذا تراءي لي أن يتم تسريح الجيوش العربية النظامية أو جزء منها وإرسالها إلى فلسطين العربية كما فعل بعض المتطوعين العرب، فتقوم بشن حرب العصابات على المستعمرات الإسرائيلية بحيث يصبح باقي الجيش كقوة ضاربة احتياطية يتم استخدامها في المعركة الفاصلة عندما يحين الوقت المناسب لدخول القوات العربية النظامية للإجهاز على الجيش الإسرائيلي بعد إنهاكه.

وبقيت في خندقي أتنقل بين أحلام اليقظة وفجأة تنبهت إلى أن الفجر بدأ ينتشر نوره فعاودتني الثقة والاطمئنان بقوة جيشنا على الرغم من ضعف القيادة. وأطل على ضوء الصباح ووقع بصري على أجمل ما رأته عيناي من مناظر فرأيت الخضرة وأشجار البرتقال والسرو الجميلة وهي تنبسط على امتداد البصر أمام الموقع وامتلأت بالثقة والأمل في جنود مصر وشبابها.

الإحجام والإقبال

بعد أن أمضت القوات يوما للراحة في غزة، كلفت قيادة القوات الكتيبة الأولى مشاة بالهجوم على مستعمرة دير سنيد، وهي مستعمرة حصينة تقع بالقرب من غزة، ويبدو أن الاستعداد لهذا الهجوم كان أدق وأشمل من الإعداد لمعركة الدنجور حيث تم الاستكشاف المسبق لها. ولذلك وعلى الرغم من قوة هذه المستعمرة إلا أن الكتيبة الأولى أمكنها الاستيلاء عليها بخسائر قليلة في الجنود ومرتفعة بعض الشيء في الضباط (حيث استشهد في هذه المعركة حوالى ٧ ضباط و٣٠ جنديا)، وسقط الشهيد الأول من دفعتنا في هذه المعركة وهو الملازم مصطفى كمال عثمان. وبعد تلك المعركة بعدة أيام كلفت كتيبتي التاسعة مشاة بمهاجمة مستعمرة «نيتساليم».

معركة نيتساليم

عندما صدرت إلينا الأوامر بالاستعداد لمهاجمة «نيتساليم» من قائد الكتيبة القائمقام محمد كامل الرحماني ومعه قادة السرايا (٤ سرايا في الكتيبة) وقادة الفصائل المعاونة (قادة فصائل الهاون ـ والمدفعية المضادة للدبابات الملحقة على المشاة والحمالات المدرعة ومدافع الماكينة وبسلاح الإشارة) بالاستكشاف الدقيق قبل المعركة (كما تقضي أصول الحرب) وعندما تم وضع الخطة شرحت لنا بالتفصيل وصدرت إلينا الأوامر المباشرة بالاستعداد، فانتشرت السرايا الأربعة بالكتيبة ومن ضمنها الفصيلة التي كنت قائدها. وتم انتشار الجنود على خط يبعد مسافة كافية عن مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة. وكلفت كل سرية بالهجوم على أحد الأضلاع الأربعة للمستعمرة.

وفي اللحظة الحاسمة بدأنا المعركة فقامت مدفعيتنا الميدانية من عيار ٢٥ رطلا

بالقصف المركز لمدة نصف ساعة ومعها في نفس الوقت المدفعية المضادة للدبابات الموزعة على السرايا بضرب محكم مستخدمة القذائف الحارقة وقنابل شديدة الانفجار، موجهة نيرانها على الدشم الحصينة المواجهة لكل سرية مصرية.

وخلال القصف وقبل أن تتوقف المدفعية بخمس دقائق صدرت لنا الإشارة بالتقدم إلى الأمام. وعندما توقف القصف انبطح الجميع متخذين سواتر طبيعية من الأرض التي أمامنا، ثم أخذ كل من الجنود والضباط في الضرب على المستعمرة حيثما تراءى لكل منهم. ثم استأنفت المدفعية الضرب بعد خمس دقائق. وخلال الضرب قمنا بقفزة جديدة إلي الأمام وفي القفزة الرابعة وقبل أن تتوقف المدفعية للمرة الأخيرة قامت بضرب قذائف من الدخان، وفي حماية هذا الساتر من الدخان تقدمنا بأسرع ما يمكن حتى اقتربنا من الأسلاك الشائكة التي تحيط بالمستعمرة.

وقام رجال سلاح المهندسين بتفجير الأسلاك الشائكة والألغام المدفونة تحتها بواسطة ألغام خاصة أسمها «طوربيد بنجالور، وهي مواسير طويلة بها شحنة من المتفجرات»، وبذلك أحدثت ثغرة مكنت رجال المشاة من الاقتحام.

وخلال عملية الاقتحام وبعد دخولنا سور الأسلاك الشائكة تأخرت سريتي بعض الشيء على الضلع الشرقي للمستعمرة لوجود مقاومة شديدة من إحدى الدشم المواجهة لنا، والتي لم يكن قد نال منها ضرب المدفعية المصرية بعد.

وفجأة رأيت إشارة النجاح من طبنجة إشارة إحدى الفصائل الأخرى التي تمكنت من اقتحام الموقع قبلنا (كانت طلقة خضراء ثم تبعتها طلقة أخرى بيضاء بلون العلم المصري في ذلك الوقت). وكان رد فعل قائد سريتنا سريعا، فقد وجه من موقفه قذائف المدفعية المضادة للدبابات على الدشمة المستعصية، وفي لحظات شاهدنا انفجار الدشمة فنهضنا من مواقعنا واقتحمنا الدشمة المهدمة، وانضمت بذلك سريتي لباقي سرايا الكتيبة التي تمكنت من احتلال جميع دشم الدفاع لمستعمرة نيتساليم، فانتهت المعركة بنجاح والفضل لدقة الاستكشاف ودقة الخطة والتوقيت الجيد وقبل كل ذلك ثبات الرجال. وبعد نهاية المعركة تمكنا من أسر ثمانية جنود وخمس مجندات بينما خسرت قواتنا من الضباط اليوزباشي خليف، ومحسن حمد، ومصطفى حامد، وأركان حرب الكتيبة الصاغ سليمان عفيفي.

وبعد حصر الأسلحة التي جمعناها من العدو وجدنا في الدشم بأركان المستعمرة بنادق قناصة يبدو أنها كانت تستخدم في اصطياد الضباط بعد تمييزهم من الزي والتسليح المختلف فقمنا بتبليغ هذه الملاحظة وبناء على ذلك استبدل الضباط ملابسهم بنفس زي الجنود حتى نتفادى بقدر الإمكان خسائرنا العالية في الضباط .

وبعد هذه المعركة انسحبت كتيبتي إلى موقع دفاعي في غزة . وأمضينا أياما بين المعارك في إعادة تدريب الجنود خلال فترات الصباح وفي صيانة وتنظيف الأسلحة وتعويض الخسائر والذخائر . وفي تلك الفترة كانت تصلنا الصحف والمجلات المصرية التي كنا نقف منها على روح الشعب المصري في القاهرة . وبقدر سعادتنا بأفراح الشعب المصري عند سماعه أخبار انتصاراتنا بقدر أسفنا لما كان ينشر في روز اليوسف من أخبار مجتمع طبقة الحكام .

الهدنة الأولى (١١ يونيو إلى ٧ يوليو سنة ١٩٤٨)

وبعد معركة نيتساليم ثاني معركة ينتصر فيها الجيش المصري وبشائر النصر تظهر للعرب عامة ومصر خاصة ، أعلنت الهدنة فجأة . وقبلت مصر الهدنة ، والتزمت بها وانتشر التساؤل بين الضباط عن حكمة وسر قبولنا الهدنة ونحن في أحسن أحوالنا العسكرية . وخلال الهدنة أعاد العدو تنظيم نفسه ، وتدفقت عليه المعونات العسكرية والمهاجرون والمتطوعون من اليهود . وانهالت عليه الأسلحة من الشرق والغرب وقبل نهاية الهدنة ، يطلب العدو مدها ثلاثة أيام أخرى لتكون لديه فرصة أكبر للاستعداد فرفضت مصر الهدنة . واستؤنف القتال ولكننا بدأنا نشعر بزيادة مفاجئة ، في أسلحة العدو ؛ ازدادت مقاومته وظهرت لأول مرة الطائرات الحديثة في تشكيلات الإسرائيليين التي لم يكن لها أثر قبل الهدنة . وكذلك تم استكمال نقص المدفعية التي عانوا منها قبل الهدنة .

وفي الوقت نفسه تقدم الكونت برنادوت المبعوث الدولي للأمم المتحدة بمشروع التقسيم المشهور ، فرفضت إسرائيل ، وامتنع العرب عن إبداء الرأي فيه . ثم قامت إسرائيل باغتيال الكونت برنادوت الوسيط الدولي . كما اغتيل أحمد عبد العزيز قائد الفدائيين المصريين وهو مسافر ليلا على الطريق بين الخطوط المصرية الأردنية .

وأثناء الهدنة الأولى تحركت كتيبتي لاحتلال موقع دفاعي متقدم على مشارف بلدة أسدود (بالقرب جدا من العدو). فكان الموقع بالنسبة لنا مثاليا حيث كان يقع على حافة خور شديد العمق، ويبعد أمام مدينة أسدود بحوالي كيلو مترين، وتبعد مدينة أسدود بحوالي ٣٥ كم فقط عن يافا. فكان هذ الخط الدفاعي آخر مواقعنا وفي ليلة حالكة الظلام وبعد انتهاء الهدنة الأولى فتحت المدفعية الإسرائيلية نيرانها على مواقعنا الدفاعية في أسدود، فردت عليها المدفعية المصرية بنيران كثيفة. وبعد فترة طويلة توقف ضرب المدفعية الإسرائيلية، ولكن المدفعية المصرية استمرت في الضرب والتوقف عى فترات متتابعة خشية أن يكون ضرب المدفعية الإسرائيلية تمهيدا لعملية أكبر أثناء الليل. وتوقف الضرب من الطرفين فجلست داخل خندقي في رئاسة الفصيلة أتسامر مع زميلي عبد المنعم خليل قائد الفصيلة المجاورة لي في المواقع وهو من نفس سريتي. وفجأة تسلل إلى خندقنا شاويش الفصيلة «الشاويش وهبة» وكان رجلا رياضيا يقوم بتدريب السباحة لرجال الجيش قبل الحملة. فطلب مني تزويده بأكبر كمية من القنابل اليدوية ثم قام بتجهيزها أمامنا بحيث تكون معدة للاستخدام، ووضعها جميعا داخل حقيبة «الجراية» الخاصة به (وهي حقيبة من قماش البل يزود بها كل جندي في الميدان تثبت على جانبه ليحتفظ فيها بتعيين الميدان). وأخبرنا أنه كان في أحد خنادق المواقع الأمامية المشرفة مباشرة على الخور فسمع أصواتا تأكد أنها أصوات تسلق أفراد من العدو للخور وأنه يجب التعجيل باكتشاف الأمر، وإلا فاجأنا العدو بعملية اقتحام لخطوطنا الدفاعية. فتركنا الشاويش وهبة وذهب حاملا حقيبة الجراية المملوءة بالقنابل اليدوية، وتوجه نحو الموقع الذي اكتشف الأصوات منه وقبل أن يذهب اتفق معي على إشارة خاصة بحيث يقوم بالصفير عندما يتأكد تماما من التسلل فإذا سمعت الصفير أقوم على الفور بضرب طلقات إشارة لتنير الموقع وما حوله خاصة في الخور.

وذهب الزميل عبد المنعم خليل إلى موقعه وبعد عدة دقائق سمعت صفير الشاويش وهبة، ثم تلا ذلك مباشرة صوت انفجار قنبلة يدوية أو اثنتين، فقمت على الفور بضرب طلقة مضيئة. أضاءت الخور. وبعدها مباشرة سمعت انفجارات

متتالية لقنابل الشاويش وهبة ثم تتابعت أصوات قنابل أخرى من خطوطنا ويبدو أن الإسرائيليين تمكنوا حتى الصباح من إخلاء جرحاهم، واستولينا منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والمعدات. وكان من ضمن الغنائم جهاز لاسلكي مصنوع في تشيكوسلوفكيا وكان يعتبر في ذلك الوقت من أحدث الأجهزة التي يمكن حملها على الظهر. وأثناء وقوف بعض الضباط من الوحدات المصرية المجاورة على حافة الخور وهم يشاهدون آثار المعركة معتقدين أن المعركة قد انتهت إذا بطلق ناري يصيب الزميل عز الدين مختار (وكان من كتيبة أخرى) في كتفه. وشعرت أن العدو لا يزال يحتل موقعا قريبا فأخذت أتفحص المنطقة الفضاء أمامي بمنظاري المكبر وفجأة لاحظت حركة في سطح أحد المباني البعيدة، وكان المبنى شبه مهجور ويبعد بحوالي كيلو مترين عن مواقعنا. ذهبت في الحال إلى موقع المدفعية المضادة للدبابات الموجود تحت قيادتي في الفصيلة وسألت حكمدار الموقع عما إذا كان لديه دانات شديدة الانفجار، وطلبت من الموقع توجيه مدفعيته على ذلك المبنى بعد تحديده لهم وأن يجعل الهدف هو سقف الدور العلوي. وانتظرت قليلا وأخذت أراقب المبنى بالمنظار المكبر حتى تم الضرب ورأيت جثثا تطير إلى أعلى. ولم تنتظر المدفعية أية أوامر أخرى، ففتحت جميع نيرانها على الموقع بشدة وإتقان حتى تهدم المبنى تماما.

وبعد أن توقفنا عن الضرب جاء قائد الحمالات المدرعة بالكتيبة الملازم أول سيد رفعت إسماعيل وركبت معه حمالته، وفي حراسة باقي الحمالات خرجنا نجوب ونطهر أرض المعركة ولم نجد أي مقاومة حتى وصلنا المبنى الذي دمرته مدفعيتنا ولم نجد سوى جثث قتلى فقط بأسلحتهم ومعداتهم وأجهزة اتصالهم ووجدنا في إحدى الغرف المهدمة خريطة ميدان أخذناها على عجل مع بعض الغنائم الأخرى وعدنا سريعا إلى مواقعنا لنتفحص هذه الخريطة بتأن وعلمنا من فحص الخريطة أن هذا المبنى كان العدو قد اتخذه مركزا للقيادة وعلى الخريطة علامات تدل على تفصيلات دفاعاتنا مما يدل على قيامهم بالاستطلاع الجيد قبل هذه المعركة الليلية، كما يدل أيضا على احتمال وجود جواسيس لهم داخل خطوطنا.

الخريطة التي وقعت في أيدينا كانت تحتوي على رسومات وعلامات لمواقعنا الدفاعية في العمق . وفعلا تذكرت عند ذلك أنه أثناء القتال الليلي كنت أشعر ببعض الطلقات الطائشة وهي تمر من فوق رءوسنا ومن خلف موقعنا وبالقطع كان بعض القناصة الإسرائيليين خلف مواقعنا . وبعد المعركة بعدة أيام انسحبت الكتيبة من الموقع الأمامي في أسدود للراحة في مواقع خلفية عند مدينة غزة .

معركة تبة الفناطيس

وفي مواقع الراحة في مدينة غزة وبعد منتصف الليل سمعنا تبادلا للنيران صادرا من موقع قريب من غزة . وبعد هدوء المعركة مرت نصف ساعة أو أكثر ثم وصلتنا رسالة تليفونية لقائد سريتنا وسرية أخرى تأمرنا بالتأهب للتحرك والاشتراك في معركة قادمة . وتحركنا أثناء الليل ، فعلمنا عندما وصلنا إلى موقع قريب من ميدان المعركة أن مستعمرة نيتساليم التي سبق استيلاؤنا عليها قد أغار عليها الإسرائيليون بعد منتصف الليل في معركة هجوم ليلي أيضا فتمكنوا من الاستيلاء على إحدى الدشم التي يحتلها المصريون ، إلا أن بقية القوات المصرية الموجودة بالمستعمرة أمكنها استرداد هذه الدشمة ، ولكن الإسرائيليين المنسحبين قاموا باحتلال موقع يشرف على المستعمرة وهو عبارة عن تبة عالية بها فناطيس مهدمة محل معسكر قديم للجيش الإنجليزي . وقد مكن هذا الموقع الجديد الإسرائيليين من إطلاق قنابل الهاون على مستعمرة نيتساليم مما أعطاهم القدرة على قطع خط الإمداد عن المستعمرة التي يحتلها الجنود المصريون ولذلك كانت مهمتنا الاستيلاء علي تبة الفناطيس لتأمين وجودنا داخل المستعمرة . وصدرت الأوامر لقائد سريتنا (السرية ٣ فصائل) بالهجوم ، وتقدمنا تحت ستار ضرب المدفعية متبعين نفس تكتيك الهجوم السابق على مستعمرة نيتساليم فكنا نقوم بقفزات يتخللها ضرب متقطع للمدفعية .

ولكن كلما تقدمنا مسافة بسيطة كنا نضطر للانبطاح أرضا فيتوقف تقدمنا بسبب كثرة الخسائر حيث تمكنت نيران العدو من إصابتنا حتى ونحن منبطحون أرضا فقد مكنهم موقعهم المرتفع من كشف جميع تحركاتنا فأصبحنا أهدافا سهلة .

وعندما اقتربنا تماما من موقع الأسلاك الشائكة للإسرائيليين لم يعد من الممكن التقدم شبرا آخر ، فكل من حاول الوقوف كان يصاب في الحال . ونحن على حالنا

هذا قمت باختبار مدى إحكام تصويبهم لعل الفرصة تسنح بالهجوم فكنت أخلع الخوذة الخاصة بي، فأضعها على طرف السونكي وأرفعها إلى أعلى كأن أحد الجنود المصريين يحاول الوقوف والتحرك وبالفعل كانت الطلقات تتساقط بإحكام على الخوذة فأعيدها ثانية على رأسي، وبالتالي قبعنا بالسكون في مواقعنا. وحضر إلينا أركان حرب الكتيبة الجديد عبد الحكيم عامر الذي تولى هذا المنصب بعد استشهاد عبد السلام عفيفي وقد كان حديث التخرج من كلية أركان حرب وكان هذا هو أول لقاء لي به.

كانت مواقع العدو في(تبة) الفناطيس على دشم وخنادق مواصلات لم يعمل بها أسقف للحماية (مكشوفة) ولذلك قام عبد الحكيم عامر بمراجعة مواقع ومسافات الدشم المكشوفة بدقة بحيث يتم إحكام الضرب فوقها مباشرة بدانات «الشـــرابنيل «Shrapnel» التي تتصف بخاصية الانفجار قبل الارتطام بالأجسام الصلبة في الهواء وأعلا الهدف مباشرة وبذلك يمكن للمدفعية المصرية إصابة القوات الإسرائيلية المدافعة داخل خطوطها المكشوفة، وهو ما لم يكن متاحا خلال خطة الضرب السابقة.

ومن مواقعنا كنا نشعر بآثار انفجار دانات الشرابنيل فوق رءوس جنود العدو وأثناء الضرب بالأسلوب الجديد أردت أن أختبر مدى إحكام ضرب العدو علينا فرفعت الخوذة على السنكي مرة أخرى فلم تنطلق أية رصاصة نحوها دليلا على أن العدو حدثت به خسائر جسيمة وكرد فعل تلقائي نهضت دون تفكير وهتفت بأعلى صوتي «الله أكبر» فهب الجنود خلفي وهم يرددون نفس الهتاف العظيم الذي صار تيارا يدفعنا في حماس ودون خوف لنتقدم ونقتحم كأن صدمة كهربائية قد أصابتنا فتسري من شعر الرأس إلى أصبع القدم.

ولاحظ أمباشي كان يقف بجانبي أحد الإسرائيليين يقف على مقربة من زملائي وقد أمسك في يده المرفوعة فوق رأسه قنبلة يدوية ورفع الأومباشي صوته ليحذرني فوجه بندقيته نحو الجندي الإسرائيلي وفي تلك اللحظة لمحت يده وهي تكاد تقذف بالقنبلة أمامي فقفزت جانبا في الوقت المناسب. وعندما أفقت، رأيت الجندي الإسرائيلي وقد مزقته القنبلة بعد أن أصابه الأومباشي فسقط على الفور إلا أن

القنبلة انفجرت فيه قبل أن يتمكن من إلقائها عليّ وتنبهت على صوت بقية الجنود وهم يقتحمون بقية المواقع في نجاح بعد أن أطلق أومباشي آخر من جنودي طلقة الإشارة الخاصة بنجاحنا في اقتحام الموقع .

وأثناء تلك الفترة الرهيبة من الشلل التام ونحن أسرى أماكننا وأنا فاقد القدرة على التقدم أو حتى التقهقر قبل الاقتحام مرت عليّ فترة تولتني فيها رعشة الخوف الشديد إلا أن الله أراد أن يلقنني درسا خاصا عمليا . وأنا على حالتي هذه حاولت إحدى الحمالات المدرعة أن تعاون في الاقتحام فتقدمت في سرعة فائقة صوب مواقع العدو ، وكان خلف الحمالة بعض الجنود وبرفقتهم ضابط يحتمون خلفها ، ولكن العدو تمكن من إصابة الحمالة فتوقفت عن الحركة واضطر طاقمها إلى إخلائها والانبطاح أرضا وتملك الذعر الشديد الضابط الذي كان يحتمي خلف الحمالة فاستدار للخلف ، وأخذ يجري وهو في شدة الفزع ولكنه قبل أن يقطع مسافة كبيرة أصيب في ظهره وسقط مضرجا في دمائه فكانت صورة الضابط وهو يولي ظهره للقتال خوفا وفزعا صورة ألهبت الحماس في قلبي وتغلبت علي مشاعر الخوف في داخلي .

وتمت ترقيتي ترقية استثنائية من رتبة الملازم أول إلى رتبة اليوزباشي الاشتراكي في هذه المعركة بفضل الله وإلهامه . ورحم الله زملائي من الفصائل الأخرى الذين استشهدوا في هذه المعركة .

مرة أخرى وافقت مصر على الهدنة الثانية ويا ليت مصر لم توافق على أي من الهدنتين . فحتى معركة قبة الفناطيس كانت قواتنا متفوقة في كل شيء إلا القيادة العليا . فقد أعطت فترة الهدنة الثانية فرصة للدول الكبرى لتدعيم وتقوية إسرائيل ، فوصل تسليحها إلى درجة عالية من القوة فلم يمكننا تحقيق أي نصر بعد ذلك حتى قيامنا بآخر معركة اشتركت فيها وهي معركة نجبا Nagba .

وعندما انتهت الهدنة الثانية واستأنفنا القتال صدرت الأوامر لقائد كتيبتنا التاسعة محمد كامل الرحماني بالإعداد والاستعداد للهجوم على مستعمرة نجبا .

معركة نجبا

قبل المعركة بيومين قمنا مع قائد الكتيبة باستكشاف تفصيلي لأرض المعركة وبعد انتهائنا من الاستكشاف الأرضي ركبنا طائرة فاستكملنا بها عملية الاستكشاف من الجو.

وفي صباح يوم المعركة أخذ كل منا موضعه حسب الخطة التي أخذت تتكرر قبل كل معركة منذ معركة «دير سنيد» و«نيتساليم». فبدأت المدفعية في الضرب التمهيدي ونحن خارج مرمى نيران أسلحة العدو الخفيفة. وتلا ذلك عملية التقدم على مراحل تخللها ضرب متقطع للمدفعية وفي المرحلة الأخيرة عندما اقتربنا من الأسلاك الشائكة فوجئنا بنيران هائلة تشتعل من داخل خندق عميق يحيط بالمستعمرة من جميع الجهات، فتوقفنا عن التقدم، والنيران تزداد اشتعالا وكلما قاربت على الخمود تعاود الاشتعال مرة ثانية فيصعب على جندي المشاة اجتياز الخندق لعمقه واتساعه. فتعطلت عملية الهجوم وبذلك تأخرت عملية الاقتحام النهائي.

وتولاني الملل والإجهاد من طول الانتظار وحرارة الشمس الحارقة ورأيت خلفي إحدى المدرعات المشتركة في المعركة فزحفت أنا والشاويش وهبة لنحتمي تحت هذه الدبابة من حرارة الشمس الشديدة وانتظارا للفرج.

وأخذت أفكر في إمكانية تكرار عملية الاقتحام كما قمت بها في تبة الفناطيس. بدأت في عمل الاختبار التقليدي برفع الخوذة على طرف السنكي بعد الزحف قليلا من تحت الدبابة إلا أن نيران العدو كانت تنهال على الخوذة كدليل علي تمام استعداد العدو وتيقظه وسلامة خطوطه الدفاعية في حماية مانع النيران الرهيب الذي منحهم الوقاية الكافية لكي يعيدوا تنظيم خطوطهم الدفاعية التي أصابتها المدفعية المصرية خلال عملية الضرب التمهيدي.

وبعد أن قمت باختبار مدى يقظة العدو عدت مرة أخرى تحت الدبابة صارفا النظر في هذه اللحظة عن المجازفة بعملية اقتحام بمفردي. ويبدو أن الشاويش وهبة في هذه اللحظة كان قد أصابه التعب من الوضع الذي استقر عليه تحت الدبابة ومن ضيق المساحة، فحاول أن يستلقي على جنبه فرفع جنبه الآخر فأصيب في الحال وتأوه بشدة ولكنه دون أن يشعر رفع جنبه الآخر فأصيب فيه وبعد فترة ترك لي

الشاويش وهبة سلاحه واستأذن في الانسحاب زاحفا إلى الخلف . وعندما لاحظ العدو حركة الشاويش تحت الدبابة توالت النيران المركزة على موقعي ، فقررت التحرك من تحت الدبابة إلى مكان آخر . وقبل أن أهم بالزحف ناديت على جندي كان يرقد بجانبي فلم يجبني ، فأخذت أدفعه بيدي كي أنبهه ليشترك معي في عملية الزحف ولكنه كان جثة هامدة . أصبح في عداد الشهداء .

وانسحبت إلى العراء والشمس المحرقة ثانية ، وبعد طول انتظار عاودت تجربتي برفع الخوذة فلم تصدر أي طلقات فاعتقدت أن اللحظة الحاسمة قد جاءت معتقدا أن المدفعية المصرية قد نالت من خطوطهم الدفاعية ، فنهضت للاقتحام فلم أشعر إلا ودانة هاون من العدو تنفجر بالقرب مني فانبطحت أرضا على الفور وتوالت دانات الهاون حولي فلم أشعر إلا والدماء تسيل من ساعدي وأحمد الله أن الدانات لم تصبني إصابة مباشرة ، فقط أصابتني شظايا متناثرة من دانات العدو . تم إخلائي للخلف فأجريت لي عملية سريعة لتنظيف الجرح في المستشفى الميداني المتنقل ، ثم رحلت في قطار الجرحي إلى مستشفى القاهرة . وعلمت وأنا في القطار أن النيران في خندق العدو استمرت مشتعلة حتى مغرب ذلك اليوم وأن الهجوم المصري توقف مع انسحاب القوات المصرية فلم تستكمل هجومها بأي هجوم ليلي .

وصل قطار الجرحى الذي أقلنا من الجبهة حتى محطة إمبابة خلف كازينو الكيت كات استعدادا لإخلائنا ونقلنا إلى مستشفى العجوزة ، ولشدة دهشتي سمعت أصوات الموسيقى الراقصة الصاخبة وهي تنبعث من ملهى الكيت كات وكأن البلاد لم تكن تخوض حربا يسقط فيها العديد من الجرحى والقتلى كل يوم ، وأخذت أناجي نفسي «فرح وفساد هنا وتقشف وموت هناك» . وفجأة تعالت صفارات الإنذار لتصم آذان القاهرة منذرة بقيام إسرائيل بغارة جوية . لقد أصبح لدى إسرائيل طائرات قادرة على التجرؤ بضرب القاهرة والفضل للهدنة وتعزيزات الدول الكبرى .

عند وصولي إلى المستشفى سمعت أخبارا زادت من جزعي ، ونهضت محاولا ارتداء ملابسي . كانت الغارة الجوية الإسرائيلية على القاهرة قد أسفرت عن تهدم أحد المنازل بحي عابدين وبالذات في شارع البراموني وهو نفس الشارع الذي يقع فيه منزل الأسرة وتقطن فيه والدتي وشقيقاتي الأربع .

وحاولت الخروج للاطمئنان عليهم ولكن أحد الأطباء الشبان منعني وأصر أن يذهب هو، وبالفعل عاد وبصحبته شقيقتي الكبرى التي فوجئت بي وطمأنتني على سلامتهم وإن كان أحد المنازل المجاورة لنا قد تهدم فحمدت الله وشكرته على سلامة الأسرة.

ومرت علينا الأيام بالمستشفى وأخبار الجبهة تصلنا عن طريق إخوتنا من الضباط والجنود الجرحى الذين توافدوا على المستشفى في أعداد كبيرة، كان الموقف يزداد سوءا مع مرور الوقت وعلمنا بحصار كتيبة كاملة بأسلحتها المعاونة في «الفالوجا» إلا أن الكتيبة صمدت صمودا رائعا والعدو يحيط بها من كل مكان، ولكنها تمكنت من صد جميع الهجمات بإصرار، وأن قوافل التموين المسلحة تمكنت كذلك من اختراق هذا الحصار والوصول بالمؤن والذخائر للرجال المحاصرين. كما بلغني أن كتيبتي التاسعة حوصرت هي الأخرى ولكنها تمكنت من الانسحاب إلا أن الانسحاب كان غير منظم فأصابتها خسائر كثيرة. وتوالت ضربات العدو حتى أمكنه مطاردة القوات المصرية داخل حدود مصر بالقرب من العريش.

ومع نهاية حملة فلسطين فشلت مصر في تحقيق النصر المرجو فكان سوء الإعداد، وتردي مستوى القيادة العسكرية العليا بالإضافة إلى ضعف وتبعية القيادة السياسية العربية عامة والمصرية خاصة. كانت جميع هذه الأسباب وراء ضياع حياة وتضحيات شباب المقاتلين المخلصين. وزادت في الوقت نفسه من سخط وتبرم الضباط وأكدت لهم سلامة مشاعرهم تجاه مستعمري وحكام البلاد. وبدأ الموقف السياسي يتدهور.

الأسلحة الفاسدة

لقد قيل الكثير عن أسباب هزيمتنا في حملة فلسطين، وعن الأسلحة الفاسدة ولكني كضابط مشاة اشتركت في بعض معارك فلسطين وتعاملت مع أسلحة المشاة ومع الأسلحة المساعدة حتى تمت إصابتي في معركة «نجبا» لم أتعامل مع أية أسلحة أو ذخائر فاسدة أثناء العمليات.

ولكن بعد إيقاف القتال وإبرام اتفاقية الهدنة أثير هذا الموضوع في الصحافة وأجرى تحقيق فيه تحت إشراف النائب العام وثبت أن عمولات كبيرة استولت عليها شخصيات لها صلات وثيقة بالقصر، وبالحكومة وذلك عن طريق التوسط لشراء السلاح للجيش المصري أثناء الحملة. وثبت أيضا أن هذه الشخصيات تمكنت من شراء كثير من الأسلحة والمعدات والعربات وبعض الطائرات من طراز فيات، فاستولوا على عمولات كبيرة بالقرب من نهاية الحملة. كما ظهرت الأسلحة والذخائرة الفاسدة خصوصا في سلاح المدفعية وذلك خلال المراحل الأخيرة من الاشتباكات في الفترة ما بين الهدنة الثانية وهدنة إيقاف القتال النهائية. وضبط الكثير من هذه الأسلحة والذخائر الفاسدة موضوع هذه الصفقات المشبوهة بمعرفة لجنة عسكرية مدنية مشكلة بأمر النائب العام.

من لطف الله أنه يتم توزيع أغلب هذه المعدات الفاسدة على القوات المحاربة حيث إن اتفاقية الهدنة كانت قد أبرمت، وانتهى القتال.

ضابط في السجن الحربي

بعد ترقيتي استثنائيا إلى رتبة اليوزباشي، وبعد شفائي، انتدبت للعمل بالسجن الحربي، وكانت ميزة هذا المكان أنه كان في القاهرة التي يمكنني منها الاتصال بالحركات الوطنية.

توليت وظيفة أركان حرب السجن الحربي طوال فترة خدمتي فيه. كان قائد السجن الحربي أمين مصطفى الخشاب والذي كانت له مواقف وطنية رائدة سأعرض لها في فقرات تالية. فضلا عن أنه قام بعمل لقاء بيني وبين جمال عبد الناصر على أساس أنه يرأس تنظيما آخر من الضباط الوطنيين. وكان الخشاب عضوا في هذا التنظيم وسأعرض لذلك أيضا في الجزء الخاص بلقاء عبد الناصر.

ونقل الخشاب وحل محله القائد حافظ صدقي. وكانت فترة العمل بالسجن الحربي ميزة كبيرة لي، ولنشاطي السياسي، حيث كان لدي وقت الفراغ الكافي لأبذل جهدا مضاعفا داخل تنظيم الضباط الوطنيين أو في العمل السياسي نفسه وتدوين مذكراتي السياسية.

عودة إلى النشاط السياسي

بعد انتدابي للعمل بالسجن الحربي، كان لدي وقت فراغ كبير أمكنني فيه أن أعاود النشاط السياسي، والاتصال بمختلف التنظيمات الوطنية في القاهرة. كما خصصت وقتا كافيا أيضا لمعاودة التدريب على لعبتي الرياضية المفضلة: السيف والشيش وتم اختياري في فريق مصر في البطولة الدولية التي أقيمت بأستوكهلم في السويد عام ١٩٥١.

أعود للناحية السياسية، فأذكر أنني عاودت الاتصال بمجموعة الضباط الوطنيين السابق ذكرها. استأنفنا الاجتماعات ولكن بعد خروج عدد منا للانضمام إلى تنظيم الحرس الحديدي الذي يعمل مع الملك فاروق وكان حلقة الاتصال بينهم وبين الملك هو الطبيب يوسف رشاد. والبعض الآخر تخلف عن حضور الاجتماعات وكنا نعلم أنهم انضموا إلى تنظيم آخر مع جمال عبد الناصر وزكريا محيي الدين وكمال حسين ويوسف منصور صديق وغيرهم. وعلمت أيضا أن القائد محمد نجيب انضم لهم. ولكني إلي هذا الوقت اكتفيت بالنشاط داخل التنظيم القديم. وكنت أعتبر أن أي مجموعة وطنية من الضباط يمكنها أن تكون تنظيما، مهما تعددت التنظيمات فإن أهدافها ستكون واحدة وسوف تصل في النهاية إلى تحقيق هدف واحد في حدود خدمة بلادنا ما دامت كل تلك التنظيمات بعيدة عن القصر والأحزاب المحترفة، وغير مرتبطة بأي تنظيمات مدنية سرية أخرى، ونشط تنظيمنا نشاطا كبيرا خصوصا من ناحية تجميع معلومات عن مساوئ الملك ورجال القصر والحاشية والأحزاب وتجاوزات السفير البريطاني، وبهلوانية أعضاء برلمانات الأغلبية الحزبية وكما زاد نشاطنا في تثقيف أنفسنا سياسيا، كنا نتدارس التجاوزات والمآخذ على ضوء الأحداث السياسية اليومية. وكنا نسجل تلك التجاوزات ومجموعة منا كانت تحرر المنشورات، وتشرح وتفند مساوئ تلك التجاوزات وتعليقنا الوطني عليها. كنت مكلفا بالطبع والتوزيع في حلقة ضيقة جدا يشاركني فيها أحد الشبان الأقارب لي فقط (زيادة في الحرص) وكان التنظيم يزودني بعناوين منازل المرسل لهم المنشور سواء من الضباط أو من المدنيين أو الهيئات. وشيئا فشيئا ازدادت دائرة توزيع هذه المنشورات كلما زاد كشف التوزيع اتساعا لمعرفة المزيد من العناوين الخاصة. وكانت المنشورات توزع بالبريد على بعض الهيئات الشعبية والضباط والسياسيين والصحفيين. وكانت أمامي مشكلة الحصول على آلة كاتبة أنسخ عليها المنشورات وكذا ماكينة الطباعة الرونيو. أما عن الآلة الكاتبة فقد تمكنت من حلها، فقد كان لي ابن عم محام كبير له مكتب بالعتبة الخضراء فوق محلات توت عنخ أمون الحلواني بأول شارع محمد علي وهو الأستاذ عباس فضلي المحامي وكان - رغم فارق السن بيني وبينه صداقة حميمة وكان - يعمل لديه ابن عمتي أحمد عفيفي الموظف في مصلحة التنظيم (مسئولة عن نظافة العاصمة) وذلك في وقت فراغه وكان يتولى

الكتابة على الآلة الكاتبة الموجودة بالمكتب، وكنت أزور المكتب كثيرا. فلم يستجد شيء عند وجودي كثيرا بالمكتب. وكنت أنتظر عودة ابن عمي المحامي للمنزل وتوصيله إلى الترام الذي يركبه متجها إلى مسكنه بالعباسية ونعود أنا وابن عمتي أحمد عفيفي أبو الفضل ونفتح المكتب بالمفتاح الذي لديه بصفته موظفا بالمكتب. وأتولى أنا إملاء المنشور عليه وهو يكتبه وكانت ماكينة الآلة الكاتبة من صنف قديم جدا ماركة Underwood أتذكر ذلك جيدا لأني كنت أعلم أن آلات الكتابة الحديثة توجد لدى القلم السياسي، أو القسم المخصوص صورة من كتابتها وحروفها جميعا، ولكن هذه الآلة الكابتة بالقطع لم يكن لديهم علم بها لأنه بعد أن جازفت بعمل منشور عليها لأول مرة لم يحدث أي رد فعل فواصلت استعمالهما دون علم ابن عمي، صاحبها.

أما عن آلة الطباعة. فقد وفقت إلى صديق وزميل من أيام الدراسة الثانوية كان والده يملك مكتبة كبيرة بها آلات طباعة رونيو للبيع. وأمكنني عن طريق صديقي أن نستعير من والده إحدى آلات الطباعة القديمة بحجة أنه سيطبع عليها في منزله مذكرات للطلبة في الجامعة، ونجحت في أن أستعيرها منه من وقت إلى آخر كلما شرعت في طبع أحد المنشورات. وكان الطبع يتم أيضا في شقة ابن عمتي أحمد عفيفي بشقته أعلى المنزل، بحي السيدة زينب.

وكان يساعدني هو في عملية الطبع. ثم يقوم بيده اليسرى بكتابة العناوين على مظاريف التوزيع العادية.

أما عمليه التوزيع فإنه أمكنني بعد حملة فلسطين، أن أشتري من مدخراتي عربة صغيرة فيات موديل بليلة فقد كنت أقوم وحدي وبعربتي البليلة بالتوزيع بإسقاط كمية من المنشورات في كل صندوق بريد أجده في طريقي وكنت أبدأ من مصر الجديدة إلى باقي أحياء القاهرة ولأجل اختبار مدى تأثيرها على الضباط كنا ندعو في بعض هذه المنشورات إلى اجتماع بنادي الضباط بالزمالك. في يوم وساعة محددتين. أما لجنة تحرير المنشور فكانت مكونة من الزملاء: مصطفى نصير وعبد الحميد كفافي وأبو الفضل الجيزاوي. وكانت تلك المنشورات ترسل وتوزع أيضا على جميع دور الصحف ورؤساء التحرير بل والذين نكتب ضدهم المنشور من السياسيين والمفسدين.

وكانت الاجتماعات التي ندعوا لها بالمنشور يحضرها أعداد كبيرة من كبار وصغار الضباط. وكان يواظب على حضورها جميعا اللواء محمد نجيب وشقيقه اللواء على نجيب. لم يكن يتم في تلك الاجتماعات أي نشاط أو كلام بالطبع، وكنا فقط في شبه مظاهرة لا يعرف منظمها والكل يسلم على الآخر ونتناول المشروبات الخفيفة، ثم الأحاديث العادية، وكل منا ينظر للآخر في ريبة وتخمين لاستكشاف من هو مصدر هذه المنشورات والدعوة إلى هذه الاجتماعات.

الحصول على السلاح

تعرفت في نادي السلاح إلى الزميلين صلاح دسوقي وحسن التهامي وكانا في تنظيم وطني على صلة بعزيز المصري باشا، وذهبت عدة مرات مع صلاح دسوقي لمقابلة عزيز المصري. وكان فعلا هو الأب الروحي لمعظم المكافحين الوطنيين ولكن لم يفاتحني أي منهم في دخول أي تنظيم ولم أعرف أكثر من أنهم كانوا يجتمعون لديه للحديث في الأوضاع المقلوبة بالإضافة إلى الأحاديث الثقافية. ولكن صلاح دسوقي فاتحني في أحد الأيام عما إذا كان يمكنني أن أحصل لهم على أسلحة وخصوصا المدافع الرشاشة (البرن) وكان لي أحد المعارف ممن يعملون في سلاح الصيانة بالجيش. فقد فاتحته في ذلك وذهبت لزيارته بمنزل في مكان بالقرب من القلعة. وكان منزله عبارة عن حوش كبير به حجرات في منطقة المقابر.

وعرض عليّ للفحص كثيرا من هذه الأسلحة يحتفظ بها في خندق تحت أرضية الغرفة. اتفقت معه على الأثمان ثم اتصلت بصلاح دسوقي وحسن التهامي وذهبنا سويا بعد عصر أحد الأيام وأخذنا ترام رقم ١٣ من العتبة حملنا إلى القلعة واستلمنا مدفعين رشاشين مفكوكين بعد أن دفع صلاح الثمن. وأحضر لنا هذا التاجر صحفا كثيرة لففنا قطع المدفعين في ثلاث لفات كل منا حمل جزءا منها وركبنا الترام وعدنا إلى نادي السلاح بحديقة الأزبكية، وحفظناها بدواليب ملابسنا الخاصة بنا، كل لفة في دولاب إلى أن أحضر حسن التهامي عربة في اليوم التالي وأخذها فيها وتكررت عملية شراء السلاح عدة مرات. وعلمت فيما بعد عند إلغاء معاهدة ١٩٣٦ أن هذه الأسلحة كان يستعملها أعضاء تنظيم عزيز المصري في مقاومة الإنجليز بالقنال.

موقف وطني لا ينسى

في أواخر عام ١٩٥١ كنت لا أزال أعمل بالسجن الحربي. وفي أحد الأيام، عقب عودتي من التفتيش على السجن الحربي بالإسكندرية، حيث قضيت يومين هناك وبمجرد دخولي من باب السجن بالعباسية، لكي ألتقط سيارتي (الفيات) البليلة الخضراء التي كنت قد تركتها بفناء السجن، تم إبلاغي أن قائد السجن أمين مصطفى الخشاب ينتظرني عند العودة وعليَّ أن أتوجه إلى مكتبه فورا.

دخلت على قائدي فبادر بإخباري أن قائد البوليس الحربي عصام المصري حضر إليه بالأمس خلال وجودي بالإسكندرية ومعه كشف بأرقام سبع أو ثماني سيارت مدنية.. وأن إحدى هذه السيارات خضراء اللون وقد شوهدت في إحدى الليالي خلف قسم عابدين، ترجل منها شخص أسقط رزمة من المظاريف في صندوق البريد المثبت خلف جدار قسم عابدين. وسأل الخشاب قائد البوليس الحربي لماذا يتم البحث عن سبع أو ثماني سيارت ما دامت السيارة المشتبه فيها واحدة؟ فأجابه بأن عسكري البوليس لم يتمكن من قراءة جميع أرقام السيارة ربما لعدم إجادته القراءة أو لأن الإضاءة ليلا لم تكن كافية أو لكلا السببين معا. ولذلك تمكن من التقاط رقمين فقط من أرقام السيارات الستة. وأن البوليس اتصل بقلم المرور الذي أحضر كشفا بعدد السيارات التي يشترك فيها هذان الرقمان، ومن المتوقع أن تكون من بينها سيارة خضراء اللون وأنه قد تم حصر سبع أو ثماني سيارا ت مدنية، وإحدى هذه السيارات مملوكة لضابط بالجيش المصري يعمل بالسجن الحربي واسمه محمد عبد الفتاح أبو الفضل ولذلك جاء قائد البوليس الحربي للتأكد من رقم ولون هذه السيارة.

عند ذلك الحد توقف الخشاب عن سرد القصة وسألني مبتسما إن كنت فعلا قد

اشتركت في توزيع أي منشورات فأنكرت بطبيعة الحال، وكان الخشاب ضمن من وصلهم أحد هذه المنشورات، فأخرج المنشور من درج مكتبه وسلمه لي وهو يضحك. ثم قال إنه ذكر لقائد البوليس الحربي أن العربة التي جاءت بالكشف والتي أملكها ليست خضراء اللون ولكنها ذات لون رصاصي غامق وبذلك انتهى الموضوع عند هذا الحد (حيث إن ألوان السيارات في ذلك الوقت لم يكن يتم تدوينها في رخصة السيارة) فإذا ما تم تغيير لون السيارة لن يكون في وسع قائد البوليس الحربي أن يتأكد من شيء. وابتسم قائدي الخشاب وهو يصافحني قائلا إنه قد حان الوقت لأن أسرع بالعودة إلى المنزل، لأخذ سيارتي فورا لكي أدهنها باللون الرصاصي الغامق فورا.

وبالفعل تركته وذهبت لكي ألتقط سيارتي من جراج السجن وتماوجت في داخلي مشاعر الدهشة والامتنان وأنا أنظر إلى سيارتي التي وجدت لونها قد تبدل فعلا من الأخضر إلى الرصاصي الغامق. وعلمت بعد ذلك أن القائد الخشاب بعد انصراف قائد البوليس الحربي بادر بإحضار عدد من المسجونين الذين يجيدون دهان السيارات فقاموا في وقت قصير بإزالة اللون الأخضر تماما. ثم قام قائدي واشترى على نفقته مسدس «دوكو» وكلفهم بالدهان والتلميع حتى تبدل لون السيارة.

لم ولن أنسى هذا التصرف الرجولي من قائدي الخشاب الذي يعبر أصدق تعبير عن علاقات الإخاء والرجولة والشهامة والوطنية في تلك الأيام.

في اليوم المذكور، قبل قيامي بمهمة التفتيش على سجن الإسكندرية ببضعة أيام كان على أن أقوم بتوزيع أحد المنشورات التي كان يقوم بتحضيرها تنظيم الضباط الوطنيين. وعندما قمت بتوزيع آخر دفعة من هذا المنشور كان لايزال في حوزتي فائض منها، وأنا عند سينما رويال (مسرح الجمهورية حاليا) بشارع إبراهيم باشا وهي قريبة من منزلي في طريق عودتي من المحطة وجدت صندوق بريد خلف قسم عابدين، فتركت السيارة أمام سينما رويال وأسقطت المظاريف بالصندوق وعدت مسرعا مستكملا طريقي إلى المنزل. ويبدو أنه لكثرة تعدد توزيع المنشورات بواسطة البريد قام القلم السياسي (القسم المخصوص) بمراقبة بعض صناديق البريد، وكان هذا الصندوق ضمن الصناديق المراقبة.

بعد مرور عدة أيام على هذه الأحداث كانت مشاعر عدة لا تزال تسيطر عليّ. كنت لا أزال متأثرا من الموقف الوطني لقائدي الخشاب وزاد من تأثري عدم قدرتي على إبداء امتناني وشكري حتى لا أنكشف أكثر من ذلك، كذلك استوعبتني مشاعر الضيق لعدم توافر الحرص الكامل أثناء العمل في المنشورات.

وقبل أن أفيق من هذه الحالة فاجأني الخشاب بالزيارة في مكتبي، وعلى انفراد أبلغني أن جمال عبد الناصر يريد مقابلتي وعليّ أن انتظره بعد موعد العمل ظهرا حتى ننصرف سويا في سيارة الخشاب لمقابلة جمال.

وكانت معلوماتي عن عبد الناصر في ذلك الوقت أنه أحد الضباط الذين تم حصارهم في الفالوجا خلال حملة فلسطين حيث كان أركان حرب القوة المحاصرة. وخلال الحصار عرف عنه هدوء الأعصاب كما تميز بالتصرفات القتالية الدقيقة الفعالة فأظهر شجاعة لم ينكرها زملاؤه وجنوده. وبرغم توالي الهجوم الإسرائيلي على القوة المحاصرة تمكن مع زملائه من رفع الروح المعنوية للمقاتلين المصريين. واستمر موقع الفالوجا صامدا حتى أبرمت اتفاقية الهدنة الأخيرة.

وعلمت أيضا أنه أثناء الحصار تعرف على نخبة من الضباط الشبان كان من أبرزهم زكريا محيي الدين ولطفي واكد وسعد الجمال والضابط كشك. وبعد عودتهم من فلسطين كون عبد الناصر مع لفيف من الضباط تنظيما سريا انتشر على شكل خلايا.

وخلال عملي في السجن الحربي كان عبد الناصر وصلاح وجمال سالم يكثرون من التردد على الخشاب ولذلك عندما أخبرني بأن عبد الناصر يريد مقابلتي استنتجت أن يكون الخشاب قد أخبر عبد الناصر بواقعة الاشتباه وأن الخشاب قد يكون من ضمن التنظيمات الثورية للضباط التي لها علاقة بتنظيم عبد الناصر.

وصلنا إلى منزل عبد الناصر وكان في منشية البكري في الحي المقابل للمدرسة الثانوية العسكرية، وجلسنا في حجرة بالدور الأرضي تطل على الشارع. وأثناء الحديث أبلغني أنه يعلم أنني أساهم مع جماعة أخرى في طبع وتوزيع المنشورات وأن هذه الجماعة التي أنتمي إليها سبق واعتقل عدد كبير منها(٢٩ ضابطا) في

أكتوبر ١٩٤٧ وأن نشاطنا مكشوف بعض الشيء حيث أصبح لبعض أعضاء هذا التنظيم سجلات في ملفات القلم السياسي بالداخلية ولو أنني شخصيا لم يتم اعتقالي .

وتوقف قليلا ثم أخبرني أن لديه منشورا يريدني أن أتولى نسخه وطبعه وتوزيعه . واتفقنا على موعد ومكان اللقاء لأستلم منه مادة المنشور وذلك أمام محلات حلاوة بميدان العتبة الخضراء .

وفي الموعد والمكان المحددين (أمام محلات حلاوة بالعتبة) وصل جمال عبد الناصر مستقلا سيارته الصغيرة السوداء . وسلمني مظروفا به المنشور محررا بخط اليد وكمية من أوراق الطبع الاستنسل . وطلب مني استلام ماكينة الطباعة من صلاح نصر الذي ينتظرني في مدرسة الشئون الإدارية بالجيش على أن أعيدها له بعد إتمام الطبع .

كالمعتاد ذهبت بالمظروف إلى مكتب ابن عمي المحامي وانتظرت حتى قمنا باصطحابه ـ كالعادة أيضا ـ إلى محطة الترام ، ليعود إلى منزله ثم عدنا مرة أخرى إلى المكتب . كان منشور عبد الناصر مطولا ، يحتاج إلى عدة صفحات مما يصعب من عملية توزيعه داخل المظاريف الصغيرة . وبالفعل أعدت كتابة المنشور بعد اختصاره بحيث احتفظت بجميع عناصره وبحيث لا يتعدى صفحتي فولسكاب . وفي اليوم التالي ذهبت حسب الاتفاق لصلاح نصر واستلمت منه ماكينة الرونيو (الطباعة) التي حملتها في عربتي ليتم الطبع بمنزل ابن عمي بالسيدة .

وبعد أن تم طبع وتوزيع المنشور التقيت مرة أخرى بجمال عبد الناصر ، فحذرني ثانية بأن تنظيمنا مكشوف وعلينا أن نكون أكثر حرصا وحذرا .

ومن الطريف أنه خلال كتابة منشور عبد الناصر في مكتب ابن عمي سمعت أزيز آلات التنبيه التابعة للشرطة ، فخرجت من باب المكتب ووقفت على بئر السلم التابع للمبنى لأرى بنفسي ماذا يحدث ففوجئت بجنود ومخبري الشرطة ، يصعدون مسرعين فأنطقني الله بذكره طالبا حمايته . وأصابني وجوم الخوف فإذا بقوة الشرطة تتركني متجمدا في مكاني على السلم وتنطلق إلى الأدوار العليا لتدهم شقة كانت تدار لأعمال مخلة بالآداب .

٢٣ يوليو على الأبواب

بعد إلغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ ، كانت حكومة الوفد شبه جادة في مساعدة أعمال المقاومة. واتخذت إجراءات مدنية وعسكرية لاحتمال عودة الجيش الإنجليزي من القنال لاحتلال القاهرة. لذلك صدرت أوامر رئاسة الجيش باتخاذ مواقع دفاعية عن القاهرة، ووضعت خطة عسكرية لذلك، كان من نصيبي أن أكون بالكتيبة التاسعة مشاة، والوحدة التي أقودها مكلفة بالدفاع عن منطقة مطار إنشاص ضد نزول القوات البريطانية.

وعند وصولي لموقع مطار إنشاص مع ضباطي وجنودي، تحدثت معهم في بادئ الأمر بأن هذا واجب وطني، ويجب علينا أن نكون عند حسن ظن شعبنا. ولذلك يجب أن نبذل مجهودا شاقا في التدريب.

وبدأت بتنفيذ خطتي، فوضعت عددا كافي من البراميل المملوءة زلطا وحجارة ورمالا على ممرات الطائرات وبشكل مكثف ليعوق تماما نزول الطائرات المعادية بالمطار، وقمت باختيار أماكن دشم متبادلة (مواقع ضرب نار دفاعية) تحقق تكاملا دفاعيا تاما، بحيث تغطي الدشم بعضها بالنيران فإذا احتل العدو دشمة تستطيع الدشم الأخرى الضرب عليها. وأحضرت المواد المثالية لتكسية وتقوية وتعريش هذه الدشم على نمط دشم المواقع الإسرائيلية في مستعمراتهم والتي كانت أثناء حملة فلسطين ـ تقاوم هجوم منا مقاومة شديدة وكانت هذه الدشم أيضا تغطي بنيرانها مواقع هبوط الطائرات (البراميل المملوءة رملا وحجارة) كذلك كانت الدشم تضرب في جميع الاتجاهات حتى إذا كان الهجوم من الأجناب والخلف أمكن التعامل معه. وبذل الجنود والضباط مجهودا شاقا في إعداد الدشم وخنادق المواصلات بينها لإخفاء تحركات الإمداد وتعويض الخسائر والإحلال وذلك في

حماية من نيران العدو ووضعت خطة للراحة بحيث يكون الجندي والضابط في منتهى النشاط عندما يجد الجد. وأنشأت لهم مكانا للراحة وكذلك أماكن محفورة بعمق كبير لإخفاء العربات ووقايتها من الضرب ليسهل خروجها ودخولها إلى هذه الخنادق الكبيرة.

وبعد إتمام هذه التجهيزات التي أخذت وقتا طويلا بدأت في تدريبهم على الاحتلال السريع للمواقع بمجرد أن يطلق الإنذار بالخطر، وأجرينا عدة تجارب حتى وصلنا إلى رقم قياسي في ذلك. وحضر ذات يوم للمرور أمين هويدي أركان حرب اللواء، وكان حضوره صدفة، وكنا وقتها نقوم بإجراء تجربة احتلال المواقع، وظل - قبل أن يقابلني - يراقب في إعجاب وتقدير هذا المستوى المرتفع من كفاءة الجندي المصري إذا أحسنت قيادته.

لقاء في القطار العائد إلى العريش

أثناء حريق القاهرة كنت في إجازة ميدانية لزيارة أسرتي بالقاهرة، وبعد الحريق بيوم واحد - وكانت نهاية الإجازة - عدت إلى العريش بالقطار (٢٨/ ١/ ١٩٥٢) وكنت قد حضرت حريق القاهرة وسرت مع المتظاهرين أشاهد ما يعملون إلى أن بدأ الشغب في ميدان الأوبرا فعدت إلى منزلي في عابدين فورا.

وبمروري علي ميدان عابدين كان الميدان محتشدا بعربات ضباط الجيش وهم يغادرون وليمة القصر في عجلة من أمرهم. وبين وقت المغرب والعشاء كنت أسمع أصوات الانفجارات من منزلنا يتخللها أصوات إطلاق نيران. وصعدت إلى السطح بعد المغرب. وكان منظر القاهرة في منتهى البشاعة، دخان كثيب وكثيف ولهيب مرتفع وكان الدخان يكون سحابة قاتمة والإذاعة سكتت عن إذاعة الأنباء. وفي ساعة متأخرة علمنا من الإذاعة أن الجيش نزل إلى الشوارع، وأنه سيطر على الموقف.

وأثناء وجودي بالقطار المتجه إلى العريش لأعود لوحدتي بعد الإجازة كان لقاء بالصدفة في أحد صالونات القطار بصلاح سالم وعبد الحكيم عامر - وكانا يعملان

برئاسة القوات المصرية برفح ـ وتحدثنا مع لفيف آخر من الضباط عن أحداث حريق القاهرة، وكان حديثا عاصفا انعكست فيه مشاعرنا المكبوتة.

وفجأة دخل علينا ضابط مخابرات اللواء وكنا نعرفه ونعرف ولاءه الكامل للسلطات الحاكمة مهما كان لونها أخذ يبحث ـ وهو واقف بالباب ـ عن مكان يجلس فيه معنا. وفجأة أيضا صمتنا جميعا في وقت واحد وأخذنا ننظر له في عدم ترحيب بوجوده معنا، ولحسن الحظ لم يكن هناك مكان له ولم يرد أحد الجالسين أن يفسح له مكانا بجانبه، وعاد وأعطانا ظهره بعد أن أغلق الباب علينا وأخذنا ـ بعد أن غادرنا ـ نضحك في نفس واحد.

وللأسف، فإن هذا الضابط استطاع أن يحصل ـ فيما بعد ـ على ثقة مجلس قيادة الثورة، وتبوأ مراكز حساسة جدا.

انتخابات نادي الضباط

كانت لائحة نادي ضباط الجيش حتى آخر عام ١٩٥١ تقضي بأن يعين رئيس مجلس الإدارة والأعضاء بحكم مراكزهم في الجيش، وكانت تسخر إمكانيات نادي الضباط في غير صالح القاعدة الكبيرة من الضباط علاوة على إقامة الحفلات الساهرة في المناسبات الملكية من ميزانية النادي (حصيلة اشتراكات الضباط).

ومنذ منتصف عام ١٩٥١ كان الجو العام في البلاد مشحونا بالسخط على الملك وحاشيته وعلي ساسة البلاد المستسلمين لإرادة الملك وكان الجو السياسي مشحونا بالتحفز الشعبي خصوصا أثناء المقاومة بالقنال. وكان الملك يستعين لفرض إرادته وتهديد خصومه واغتيالهم بزمرة من ضباط الجيش المغامرين، أطلق عليهم اسم الحرس الحديدي وهم: الدكتور يوسف رشاد، وحسن التهامي، ويوسف حبيب وخالد فوزي، وعبد الرءوف نور الدين، ومصطفى كمال صدقي، وحسن فهمي عبد المجيد، وعبد القادر طه، وسيد جاد عبد الله سالم.

وبلغ من خطورة دور هذا التنظيم الإرهابي أنه عندما اختلف الملك مع أحد أفراد الحرس الحديدي نفسه الضابط عبد القادر طه قام الحرس الحديدي باغتيال هذا الضابط بأوامر الملك. تلاقي السخط العام مع نفوس الضباط الثائرة، وانتهز

القائمقام أركان حرب رشاد مهنا مناسبة موعد تجديد مجلس إدارة نادي ضباط الجيش، والتي جرت العادة على تجديدها بالتعيين، وأراد أن يفتعل أحداثا فيها معنى التحدى لتصرفات الملك، تعبيرا عن حالة السخط في البلاد بصفة عامة، في الجيش بصفة خاصة. وتصدى رشاد مهنا لعملية التعيين في مناصب مجلس الإدارة، وأخذ منذ منتصف عام ١٩٥١ في الدعوة وسط زملائه من الضباط للمطالبة بإجراء تعديل للائحة بحيث تصبح جميع مراكز مجلس إدارة النادي بما فيها مركز الرئيس بالانتخاب من جمعية عمومية أعضاؤها جميع ضباط الجيش أعضاء النادي كالمتبع في كل نوادي الهيئات، واستطاع رشاد مهنا بعلاقته الواسعة، واتصالاته بضباط مختلف الأسلحة والوحدات من عقد اجتماع بنادي الضباط بعد منتصف عام ١٩٥١.

اجتماع بنادي الضباط

قبل هذا الاجتماع بعدة أيام وصلتني تعليمات من مجموعة الضباط الوطنيين السرية التي أنتمي إليها بضرورة حضور اجتماع في نادي الضباط في ميعاد محدد للبحث في موضوع تغيير لائحة النادي والدعوة إلى اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط.

وحضر عدد كبير جدا من الضباط الشبان وكانت النفوس جاهزة للتفاعل مع أي دعوة لإظهار التحدي المعبر عن السخط العام وسيطر رشاد مهنا على الاجتماع وكان ملخص كلامه أن نادي الضباط يجب أن يكون لخدمة الضباط وليس لغيرهم، ويجب أن يديره ضباط يمثلون مختلف الأسلحة وبإرادتهم. ولذا يجب تغيير اللائحة ليمكن انتخاب مجلس إدارة يمثل ضباط الجيش تمثيلا حقيقيا. وأن تكون هذه الانتخابات بإرادة الضباط وليس بإرادة آخرين أو بالتعيين.

التهديد

بعد أيام من الاجتماع السابق اتصل ضابط المخابرات التركي الأصل إسماعيل فريد (وكان له علاقة بالقصر الملكي) برشاد مهنا وأبلغه أن مولاه الملك غير راض

عن الاجتماع الذي تم بالنادي، وأفهمه رشاد مهنا أن موضوع الاجتماع والدعوة للجمعية العمومية كان بعلم رئيس أركان حرب الجيش ورئيس إدارة الجيش حيث سبق أن قابلهما رشاد مهنا وأبلغهما بهذا الاجتماع قبل انعقاده.

وتأكد إسماعيل فريد والذي يمت للعائلة المالكة بصلة من علم رئيس هيئة أركان حرب ورئيس إدارة الجيش وسأل رشاد مهنا عن الحل لهذا الموقف، فأجاب رشاد مهنا أن الحل يتلخص ببساطة في التصديق على اجتماع الجمعية العمومية وإجراء الانتخابات.

دعوة لاجتماع الجمعية العمومية لنادي الضباط

أصدرت إدارة الجيش كتابا دوريا يدعو الجمعية العمومية لنادي ضباط الجيش في الساعة الخامسة من مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ بقاعة السينما الصيفي بقشلاق العباسية.

رشاد مهنا وتنظيم جمال عبد الناصر

قبل انعقاد الجمعية العمومية اجتمع رشاد مهنا مع تنظيم جمال عبد الناصر في منزل مجدي حسنين بعابدين وحضر الاجتماع كل من زكريا محي الدين وجمال سالم وعبد اللطيف بغدادي.

واقترح عليهم في هذا الاجتماع رشاد مهنا أن يتضافر جميع الضباط للتركيز على عملية انتخابات نادي الضباط ليكون ذلك بمثابة اختبار لمدى قوة تنظيم الضباط في مواجهة الفساد الملكي خاصة إذا تعاون الجميع في إنجاح محمد نجيب ليكون رئيسا لمجلس إدارة النادي وهو المنافس لحسين سري عامر فإنه من سلاح الحدود ومرشح الملك، وبذلك يظهر الضباط تحديهم لإرادة القصر.

انعقاد الجمعية العمومية

في يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١ تم اجتماع الجمعية العمومية وحضر حوالي ٤٥٥ ضابطا وهو أكثر من العدد القانوني الذي يقتضيه صحة اجتماع الجمعية العمومية

(أكثر من ١٠٪ من مجموع أعضاء النادي من الضباط) وكان رئيس إدارة الجيش ورئيس هيئة أركان حرب عثمان المهدي باشا خارج قاعة الاجتماع ونبها على رشاد مهنا بعدم اعتلاء المنصة لأمر ما. وكان يدير الجلسة رئيس وأعضاء مجلس الإدارة السابق والمعينين، وكثر الجدل حول اقتراح تعديل اللائحة وكاد الاجتماع يفشل لولا أن طالب رئيس هيئة أركان حرب من رشاد مهنا أن يعتلي المنصة وإنقاذ الموقف وقام رشاد مهنا بالسيطرة على الموقف حيث اقترح في الحال ومباشرة عرض مشروع اللائحة الداخلية المقترحة وقرأها وكانت تتضمن صراحة على ضرورة إجراء الانتخابات، وعرضها للتصويت فحازت على الموافقة بأغلبية الأصوات وبالتصفيق المتواصل من أغلبية الضباط الحاضرين، وقام أحد ضباط سلاح الحدود والذي كان يقوده حسين سري عامر عميل القصر الملكي، وطالب بضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس الإدارة الجديد. وعارض هذه الفكرة رشاد مهنا بحجة أن سلاح الحدود ويخدم به ضباط منتدبين من مختلف الأسلحة التي لها أماكن في مجلس الإدارة. وعرض رشاد مهنا هذا الاقتراح للتصويت ورفض الاقتراح بالأغلبية ثم انتقل رشاد مهنا مباشرة إلى عملية الانتخابات، وتمت عملية الانتخابات بسرعة وبهدوء، وأعلن النتيجة رشاد مهنا وكانت كالآتي:

لواء أركان حرب	محمد نجيب	رئيس مجلس الإدارة
أميرالاي أركان حرب	حسن حشمت	عضوا عن الفرسان
قائم مقام أركان حرب	رشاد مهنا	عضوا عن المدفعية
بكباشي	إبراهيم حافظ عاطف	عضوا عن المدفعية
قائد جناح	بهجت مصطفى	عضوا عن الطيران
قائد أسراب	حسن إبراهيم	عضوا عن الطيران
بكباشي أركان حرب	زكريا محي الدين	عضوا عن المشاة
بكباشي	حمدي عيد	عضوا عن المشاة
صاغ	جمال حماد	عضوا عن المشاة
قائم مقام بحري	أنور عبد اللطيف	عضوا عن البحرية
يوزباشي بحري	أحمد عبدالغني مرسي	عضوا عن البحرية

يوزباشي	أمين شاكر	عضوا عن الإشارة
بكباشي أركان حرب مهندس	إبراهيم فهمي دعبس	عضوا عن المهندسين
بكباشي مهندس	عبد العزيز الجمل	عضوا عن الصيانة
أميرالاي صيدلي	عياد صليب	عضوا عن الخدمات الطبية
بكباشي	عبد الرحمن أمين	عضوا عن خدمة الجيش
بكباشي متقاعد	جلال ندا	عضوا عن المحاربين القدماء
قائم مقام	عبد الرحمن فوزي	عضوا عن المهمات
يوزباشي	يحيى الحرية إمام	معين عن الحاشية العسكرية

اختيار وانتخاب أعضاء المكتب التنفيذي

(في أول اجتماع لمجلس إدارة النادي المنتخب الجديد يوم ١ يناير سنة ١٩٥٢ تم انتخاب رئيس وأعضاء المكتب التنفيذي لمجلس الإدارة وكان كالآتي :

أمير الاي أركان حرب	حسن حشمت	نائبا للرئيس
بكباشي	عبد الرحمن أمين	سكرتيرا عاما
قائد أسراب	حسن إبراهيم السيد	سكرتيرا مساعدا
يوزباشي بحري	أحمد عبد الغني مرسي	سكرتيرا مساعدا
يوزباشي	أمين شاكر	سكرتيرا مساعدا
بكباشي أركان حرب مهندس	إبراهيم فهمي دعبس	أمينا للصندوق

وفي نفس الجلسة اتفق على البدء في اتخاذ إجرادات من شأنها أن تشعر القاعدة العريضة من الضباط الذين يرتادون النادي بأن هناك تغييرا شاملا قد حدث في خدمات النادي حتى تكون معبرة عن مطالب الضباط جميعا وليس للقلة وذلك حتى تستعاد الثقة من الضباط في قادتهم وحتى يقبلوا على ارتياد النادي لتتسع دائرة التقارب والتعارف بين مختلف ضباط الأسلحة ثم قام أعضاء مجلس الإدارة بالذهاب إلى قصر عابدين وقيدوا أسماءهم في سجل التشريفات بمناسبة انتخابهم وكان الهدف من ذلك هو تأجيل الصدام مع القصر الملكي.

رشاد مهنا يتجنب المشكلات

بعد نجاح عملية الانتخابات عمل رشاد مهنا على نقل نفسه إلى العريش حتى يبتعد عن الأضواء التي سلطات عليه كمحرك لعملية الانتخابات باعتبارها تحد للقصر ورجاله، وفي نفس الوقت ليكون على اتصال بأكبر تجمع للجيش باعتبار العريش أكبر قاعدة عسكرية وقتها، ولتجنيب الضباط المتصلين به بالقاهرة الاشتباه فيهم على أساس أنه سبق اعتقاله، ومع ذلك استمر وداوم على حضور جميع اجتماعات مجلس إدارة نادي الضباط.

فرض عضو عن سلاح الحدود

في يناير سنة ١٩٥٢ اجتمع مجلس إدارة النادي اجتماعا طارئا، دعا إليه رئيس المجلس محمد نجيب لعرض خطاب صادر إليه فجأة من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش فيه تحد صارخ لما أجمع عليه ضباط الجيش ومخالفا لقانون النادي. ينص الخطاب على ضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس إدارة النادي بحجة أن سلاح الحدود أصبح سلاحا قائما بذاته، وأن ضباطه أصبحوا من قوته فعلا (برغم أن الجمعية العمومية في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١ كانت قد قررت خلاف ذلك). وبالمناقشة قرر مجلس الإدارة أن خطاب رئاسة هيئة أركان حرب يعتبر مخالفا لنص المادة ٨ باللائحة المصدق عليها من الجمعية العمومية، ولذلك اقترح مجلس الإدارة الموافقة على تعيين عضو من سلاح الحدود كمستمع فقط، وليس له صلاحيات العضوية في مجلس الإدارة، على أن يعرض الأمر برمته على جمعية عمومية غير عادية يدعو لها مجلس الإدارة. وفعلا تم تحديد موعد في فبراير سنة ١٩٥٢ ولكن نظرا لأحداث حريق القاهرة في ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وما تبعه من طوارئ فقد تأجل ميعاد اجتماع الجمعية العمومية غير العادية إلى وقت لاحق.

استقالة سكرتير عام النادي

في أوائل فبراير سنة ١٩٥٢ انعقد مجلس إدارة النادي وقدم عبد الرحمن أمين في هذا الاجتماع استقالة من مركز سكرتير عام مجلس الإدارة، وقبلت استقالته في نفس الجلسة وتم ترشيح البكباشي إبراهيم حافظ عاطف قائد مدرسة المساعدة

الجوية حينذاك لمركز سكرتير مجلس إدارة النادي. ووافق المجلس عليه وأصبح سكرتيرا عاما واستمرعبد الرحمن أمين عضوا عاديا بالمجلس.

ومساء يوم ١٦ يونيو سنة ١٩٥٢ (في شهر رمضان) بنادي الضباط بالزمالك تم اجتماع الجمعية غير العادية والتي دعا لها مجلس الإدارة، وافتتح الجلسة البكباشي إبراهيم حافظ عاطف، ثم ترك المنصة إلي القائم مقام أركان حرب رشاد مهنا ليقوم بأعمال مقرر الجلسة.

وأعلن رشاد مهنا عن الغرض من هذا الاجتماع غير العادي، وهو طرح موضوع ضرورة تمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس الإدارة، طبقا لخطاب رئاسة هيئة أركان حرب وأشار في الوقت نفسه إلى أنه كان قد سبق واتخذت الجمعية العمومية قرارا في ٣١/ ١٢/ ١٩٥١ بعدم جواز تمثيل سلاح الحدود في مجلس الإدارة لأن ضباط الحدود منتدبون من الأسلحة المختلفة في مجلس الإدارة، وما زالوا على هذا الوضع حتى صدور خطاب رئيس هيئة أركان حرب، ثم فتح باب المناقشة، وكان أول المتحدثين المهندس جمال علام حيث استهل كلامه بالمطالبة بالوقوف حدادا علي روح الشهيد عبد القادر طه (برغم أن عبد القادر طه كان من ضباط الحرس الحديدي الذي شكله الملك فإنه عندما اختلف مع الملك أمر باغتياله على أيدي الحرس الحديدي نفسه. وكانت هذه المعلومات معروفة في وسط الضباط) ووقف جميع أعضاء مجلس إدارة النادي وجميع الضباط المجتمعين حدادا. تعبيرا عن تحدي المجتمعين ـ الممثلين لجميع ضباط الجيش ـ للملك وأعوان الملك بالجيش خاصة وبالبلاد بصفة عامة. ثم تلاه من المتكلمين عبد المنعم أمين ثم مجدي حسنين وآخرون والكل كان يؤيد رفض خطاب رئيس هيئة أركان حرب الجيش، ويعارضون تمثيل سلاح الحدود في مجلس الإدارة بأحد الأعضاء . حاول ضباط من السلاح البحري (أنور عبد اللطيف ومعه مجموعة أخرى من السلاح البحري) وبإيعاز ملكي الانسحاب، وأفهمهم رشاد مهنا بأن خروجهم أو استمرار وجودهم سيان ولا يغير في الأمر شيئا حيث إنهم مقيدون في دفتر الحضور وفي محضر الجلسة قبل بدء الاجتماع. وحتى إذا لم يصوتوا فإن هذا لا يؤثر على رأي الأغلبية.

ثم عرض مقرر الجلسة ـ رشاد مهنا ـ قرار رئيس هيئة أركان حرب للتصويت،

ورفض المجتمعون القرار بأغلبية الأصوات، وانتصر الحق على الباطل، وسقطت محاولة القصر لتمثيل سلاح الحدود بعضو في مجلس الإدارة.

وفي مواجهة قرار الجمعية العمومية غير العادية برفض قرار رئيس هيئة أركان حرب، والذي كانت تصاحبه الرغبة الملكية لتحدي ضباط الجيش، وانتقاما من مجلس إدارة النادي، أخذ قادة الجيش الموالين للقصر في ممارسة ضغوط على أعضاء مجلس الإدارة كل على حدة، لإرغام أكبر عدد ممكن منهم على تقديم استقالة من مجلس الإدارة حتى تصل الحال إلى أن يفقد مجلس الإدارة صلاحيته القانونية، ويضطر لأن يحل نفسه بنفسه.

وبالفعل، بعد مرور عدة أيام تقدم كل من المذكورين بعد، من أعضاء مجلس إدارة النادي باستقالاتهم من عضوية مجلس الإدارة كل على حدة وبالتتابع:

(١) أميرالاي حسن حشمت نائب رئيس مجلس إدارة النادي ورئيس المكتب التنفيذي (كان من أعوان الملك).

(٢) يوزباشي بحري أحمد عبد الغني مرسي - عن البحرية.

(٣) أميرالاي صيدلي عياد صليب - الخدمات الطبية.

(٤) قائم مقام بحري أنور عبد اللطيف عضو البحرية ومدير مكتب القائد العام حيدر باشا.

(٥) يوزباشي يحيى الحرية إمام - العضو المعين عن الحاشية العسكرية. بالإضافة إلى بكباشي أركان حرب مهندس إبراهيم فهمي دعبس عن المهندسين (وكان قد استقال من قبل ذلك من عضوية المجلس وقبلت استقالته في أحد الاجتماعات)

وخوفا من وصول مثل هذه المعلومات المضللة إلى عضوي المجلس الموجودين بالعريش، وهما القائم مقام أركان حرب رشاد مهنا. وقائد الجناح بهجت مصطفى فقد تطوع قائد الأسراب حسن إبراهيم بالسفر إلى العريش على أول طائرة حربية واتصل بهما، وأعلمهما أن مجلس الإدارة، سوف يصمد لكل الضغوط برغم استقالات بعضهم. ولما لم تنجح ضغوط قادة الجيش في التأثير على أغلبية أعضاء

مجلس الإدارة لتقديم استقالاتهم، فقد قام الأميرالاي حسن حشمت عضو الفرسان المستقيل بالاتصال بباقي الأعضاء غير المستقيلين وحاول إقناعهم بأسلوب يحمل معنى التهديد بضرورة تقديم استقالاتهم، ورفض الباقون وبذلك بقي مجلس الإدارة رغما عن إرادة القصر، وقادة الجيش وكان الباقون هم :

اللواء أركان حرب محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادي ضباط الجيش، قائم مقام أركان حرب رشاد مهنا، بكباشي إبراهيم حافظ عاطف. بكباشي زكريا محيي الدين، بكباشي حمدي عبيد، صاغ جمال حماد، قائد جناح بهجت مصطفى، قائد أسراب حسن إبراهيم السيد، قائم مقام عبد الرحمن فوزي، بكباشي عبد الرحمن أمين، يوزباشي أمين شاكر، بكباشي عبد العزيز الجمل، بكباشي متقاعد جلال ندا.

حل مجلس إدارة نادي الضباط

فى حوالي منتصف يوليو سنة ١٩٥٢ وفى الساعة الواحدة ظهراً، اتصل القائمقام محمد توفيق عابد أركان حرب قسم القاهرة بالبكباشي إبراهيم حافظ عاطف سكرتير مجلس إدارة النادي وكان قائداً لمدرسة المدفعية المضادة للطائرات. وطلب منه أن يقابل اللواء أركان حرب علي نجيب (شقيق اللواء محمد نجيب رئيس مجلس إدارة نادي ضباط الجيش المنتخب) وكان يشغل قيادة قسم القاهرة وذلك فى مبنى نادى ضباط الجيش بالزمالك فى الساعة الثالثة والنصف بعد الظهرولم يذكر السبب. شك البكباشى إبراهيم عاطف فى الأمر وتقصى عن السبب من عدة جهات، وعلم أنه قد صدر قرار من رئاسة هيئة أركان حرب الجيش بحل مجلس إدارة نادى الضباط المنتخب فى أول يناير سنة ١٩٥٢ فاتصل بالطيار حسن إبراهيم مساعد سكرتير النادى وأبلغه الخبر واتفقا على المقابلة بالنادى بالزمالك فى الثالثة بعد الظهر، قبل موعد مقابلة اللواء على نجيب، وعلم من حسن إبراهيم أن هناك إشارة تليفونية لجميع الوحدات تقضى بعدم مغادرة الضباط معسكراتهم ظهر هذا اليوم إلى حين صدور أاومر حيث إن رئاسات الجيش العليا ستمر على الوحدات والمعسكرات. قام إبراهيم حافظ عاطف بتبليغ اللواء محمد نجيب رئيس مجلس

إدارة النادى المنتخب بالخبر والاستدعاء والسبب هو قرار الحل وطلب نجيب من إبراهيم عاطف أن ينتظر إلى جانب التليفون حتى يستفسر عن حقيقة الخبر . ثم عاود الاتصال به وأكد صحة قرار حل مجلس إدارة النادى وأشار على سكرتير النادى إبراهيم حافظ عاطف بالتصرف كما يتراءى له .

وصل إبرهيم حافظ إلى النادى هو وحسن إبراهيم فى الثالثة ظهراً ، حضر بعد ذلك اللواء على نجيب ومعه مجموعة من كبار الضباط هم الأميرالاى محمد حسنى والأميرالاى جلال صبرى . والقائم مقام مصطفى كمال عبد الرزاق والبكباشى يوسف العجردوى والصاغ حافظ صدقي وقائد الأسراب على صبرى وضابط من البحرية وغيرهم ، وقام على نجيب باستدعاء إبراهيم حافظ وقال له إنهم حضروا لاستلام الناد ، بأوامر من جهة عليا ، دارت مناقشة بين إبراهيم حافظ عاطف وبين علي نجيب انتهت بأن قال إبراهيم حافظ عاطف بأنه لا توجد أى جهة عليا تمتلك حق حل مجلس الإدارة المنتخب إلاعن طريق اجتماع جمعية عمومية من جميع الضباط أعضاء النادى لأن هذه الجمعية هى التى انتخبت المجلس الذى يريدون استلام أعماله . كان هناك فى هذه المقابلة بعض التهديدات من بعض أعضاء اللجنة المرافقة لعلى نجيب ولكن الأغلبية كانت محرجة ، وعلى وجوههم علامات الأسى . استمرت المناقشة إلى قرب ميعاد الغروب وبدأ الضباط يفدون على النادى ، فأجل علي نجيب الحديث إلى موعد آخر ولم يجر أي تسليم أو تسلم و انتهت المقابلة .

في الصباح الباكر من اليوم التالي اتصل اللواء محمد نجيب بإبراهيم حافظ عاطف في المنزل تليفونيا ، وأبلغه أن جميع المعلومات عن حل مجلس إدارة النادي وصلته ، وأخطره بأن ينفذ التعليمات بالتسليم وأوصاه بمقابلة شقيقه علي نجيب بقسم القاهرة ، واتصل إبراهيم حافظ عاطف بالطيار حسن إبراهيم وأبلغه بما دار بينه وبين محمد نجيب .

قابل إبراهيم عاطف علي نجيب بمكتبه على انفراد ، وقال له علي نجيب إن جميع اعتراضاته في اليوم السابق قد بلغت إلى الجهات العليا وأبلغه أن رئيس هيئة أركان حرب ، اللواء حسين فريد كان موقفه مشرف جدا بالنسبة لإبراهيم حافظ عاطف ، وكان يدافع عنه كأحد أبنائه .

قال علي نجيب لإبراهيم عاطف: «إن الموقف بأكمله ما هو إلا عاصفة يجب أن نميل معها حتى لا ننكسر وبعد أن تمر العاصفة يمكن استعادة الموقف»، واتفق معه على لقاء في النادي يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٥٢ (قبل الثورة بعدة أيام) ليتسلم أعمال مجلس الإدارة. وفي اليوم المتفق عليه (١٨/ ٧/ ١٩٥٢) حضرت اللجنة السابق ذكرها عدا قائد الأسراب علي صبري، وتم تسليم أعمال مجلس الإدارة لهذه اللجنة.

لقاء مع أنور السادات

كانت وحدتي الكتيبة التاسعة مشاة في العريش وفي أول شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ـ وكنت في مأمورية بالقاهرة ـ حضر أنور السادات إلى كتيبتي بالعريش وكان يعمل بسلاح الإشارة في رئاسة القوات في رفح. وسأل عني أركان حرب الكتيبة. وحيث إني لم أكن أعرفه قبل ذلك، فقد خمنت بواعث سؤاله عني وهو بالقطع سبب سياسي وتظاهرت لأركان حرب الكتيبة أني أعرفه.

ذهبت إلى رفح لمقابلته وتعارفنا في سرعة، وخرجنا في العراء. وأثناء السير أفهمني أن لديه أوامر باليقظة في هذه الأيام، لأن أحداثا كبيرة سوف تحدث في الجيش والبلد. وطلب مني بناء على أوامر صدرت له (لم يفصح عنها) أن أعاود الاتصال بمن أثق فيهم من الضباط في وحدتي أو غيرها بالعريش وأن أعطي معظمهم هذا التحذير. وفعلا قمت بهذا الاتصال، واتصلت بهم كل على انفراد.

لقاء مع جمال سالم

في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ صباحا أبلغت وأنا بالعريش عن طريق ضابط وسيط من تنظيم القاهرة (الضباط الأحرار) رغم أني لم أكن من الضباط الأحرار بضرورة الذهاب مساء نفس اليوم إلى محطة العريش، في ميعاد وصول القطار القادم من القاهرة لنقابل هناك جمال سالم القادم بالقطار من القاهرة بتعليمات.

وفي المحطة وجدت عددا غير قليل من الضباط وكان من ضمنهم عدد ممن أعرفهم جيدا، وكلهم في الانتظار، ولما وصل جمال سالم خرج معنا خارج

المحطة وانتحى جانبا بعلي شفيق صفوت، وذهب هو إلى حال سبيله، وعاد لنا علي شفيق صفوت وبعد أن تأمل وجوهنا جيدا قال إن الميعاد المنتظر سيكون قبل مرور يومين على الأكثر.

وفعلا، قامت حركة الجيش وفي صباح ٢٤ يوليو استلم قيادة كتيبتي التاسعة البكباشي سعد متولي وتم ترحيل القائد السابق القائم مقام سليم عبد الرءوف بكل تقدير واحترام إلى القاهرة. وأرسل سعد متولي يطلب الضباط الوطنيين بالوحدة وكانوا ثلاثة هم حسن خليل وفتحي أحمد سليمان ومراد خليل، ولكن الواقع أن جميع باقي زملائي من ضباط بالكتيبة كانوا على نفس مستوانا وأكثر من الوعي الوطني.

ثم قامت الثورة

في يوم ٢١ يوليو سنة ١٩٥٢ قبل ميعاد الثورة بيوم تم الاتفاق بين جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر مع مهندس (الصيانة) جمال علام على أن يتقابل جمال علام . . مع أحدهما في تمام الساعة ١١ مساء يوم ٢٢ يوليو على الكوبري المقابل لبوابة الفرسان ليصحبه إلى سلاح الفرسان؛ ليتسلم جمال علام من هناك قوة يتوجه بها إلى مبنى السنترال الرئيس للتليفونات بشارع الملكة نازلي للسيطرة عليه وقطع جميع الاتصالات التليفونية قبل أن تحتل قوات زميلهم يوسف منصور صديق مبنى القيادة العامة المحدد لها منتصف الليل.

وذهب المهندس جمال علام في الموعد والمكان المحددين . . وانتظر دون أن يحضر أحد منهما حتى الحادية عشرة والنصف فتوجه إلى بوابة الفرسان بملابسه العسكرية، ولما اعترضه جنود الحراسة تشاجر كلاميا معهم بصوت عال ليسمحا له كضابط بالمرور وسمع صوته زميل الكفاح الضابط آمال المرصفي وكان موجودا بغرفة حراسة البوابة فسهل له عملية الدخول . وعلم من زميله آمال المرصفي أن يوسف منصور صديق اختلط عليه ميعاد التوقيت وبادر بالتحرك قبل الموعد بساعة وأمكنه لحسن الحظ السيطرة على مبنى القيادة العامة في تمام الساعة الحادية عشرة مساء وليس الثانية عشرة.

وقد لعبت الصدفة دورها، لأن قادة الجيش كانوا قد تلقوا تعليمات من حيدر باشا وزير الحربية من الإسكندرية بالتوجه إلى مركز قيادة الجيش للسيطرة على الموقف. وكانوا قد وصلوا لتوهم قبل وصول يوسف منصور صديق وقواته بدقائق، وبادر يوسف منصور صديق بالسيطرة على القيادة واعتقل جميع القادة، قادة الجيش قبل الميعاد المتفق عليه بساعة وفي مكان واحد مما سهل من مشقة مأمورية

القبض عليهم متفرقين في منازلهم . . وعلم المهندس جمال علام السبب في عدم حضور عبد الناصر وعبد الحكيم عامر له حسب الاتفاق لأن الثورة كانت قد سيطرت ، تماما على القيادة . وأصبح مطلوبا لها بشكل حيوي ضمان استمرار الاتصالات التليفونية لا قطعها وذلك لإتمام السيطرة على كل شيء ، وانتظر جمال علام بميس الفرسان . . وحضر عبد الحكيم عامر وانضم إلى حسين الشافعي وثروت عكاشة ، وعلم من اتصالاتهم بأن قوة المدرعات التي اتجهت إلى الإذاعة بشارع الشريفين قد تمكنت من السيطرة على الاستديوهات في تمام الثالثة والنصف صباحا . . لضمان إذاعة بيان الثورة الأول بعد قراءة القرآن في الصباح .

وسأل المهندس علام عن مدى سيطرة الثورة على محطة الإرسال الرئيسية في «أبو زعبل» لأنها أهم من السيطرة على الإستديوهات . وعلم أن خطة الثورة أغفلت هذا الأمر . . ولشدة حيويتها بالنسبة لضمان الإرسال حيث إن احتلال الإستديوهات فقط بشارع الشريفين لا يحقق أي شيء دون السيطرة الكاملة على محطة الإرسال في «أبو زعبل» ودون إهمال .

توجه المهندس جمال علام مع مجدي حسنين واثنان من تروب مدرعات إلى «أبو زعبل» . وهناك علموا أن أوامر وزير الداخلية مرتضى المراغي قد صدرت للمسئول عن المحطة بانتزاع أجزاء منها لتعطيل الإرسال ، وأمكن بالتفاهم مع المهندسين المقيمين الجارحي القشلان وعلي إسماعيل إعادة الأجزاء المنزوعة واستعادة الإرسال وبعد عشر دقائق أخرى انقطع التيار الكهربائي كله عن المنطقة وبالتالي توقف الإرسال ، وتوجه جمال علام مع مجدي حسنين مع قوة المدرعات إلي محطة توليد القوى . . وكانت على بعد خمسة كيلو مترات فقط ، وتحت تهديد المسئول بها أعيدت للعمل ، وكانت قد صدرت له الأوامر أيضا من وزير الداخلية بتعطيل المحطة «فرب صدفة خير من ميعاد» .

ولذلك صدر بيان الثورة الأول ثم توالت البيانات بعد نجاح السيطرة الكاملة وبعد أن لعبت الصدف دورا كبيرا .

كان هناك وضوح رؤيا لضباط الثورة. بعد حل مجلس إدارة نادي الضباط. خاصة بعد استقالة رئيس الوزراء حسين سري ووقوفهم على أسبابها وشعروا أن الدائرة تضيق حولهم، وأنهم أصبحوا في موقف يملي عليهم إما إلى الاستسلام لتصرفات الملك الرعناء التي قد تودي برقابهم إلى المشنقة، أو التحرك السريع، وبالذات، بعد أن علم الضباط الأحرار من أحد ضباط جهاز المخابرات العسكرية أن هناك كشفا مدونا به معظم أسماء التنظيم السري للضباط الثوريين، وأحيط به الملك علما. فكان القرار الحاسم بالاستيلاء على رئاسة الجيش، واعتقال قيادات الجيش بالقاهرة، واحتلال الإذاعة، وإذاعة البيان الأول للثورة.

وبعد السيطرة الكاملة على الجيش، واستقالة وزارة نجيب الهلالي من تلقاء نفسها.. تتابعت الأحداث في سرعة مذهلة. وفرض رجال الثورة على الملك مطالب أدت إلى تشكيل أول وزارة بعد الثورة برئاسة على ماهر باشا، وعزل جميع رجال الحاشية. وفي ٢٦ يوليو وجهت الثورة إنذاراً إلى الملك بوثيقة من اللواء أركان حرب محمد نجيب، تطالبه بالتنازل عن العرش، وقد استمعت إليه في مساء ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وأنا لا أزال بالعريش مع الزملاء بميس الضباط بما يحويه من تفاصيل الأحداث بطلب التنازل عن العرش، ثم أعقب ذلك موافقة الملك على التنازل عن العرش.

.. وعملت في المخابرات

في مساء ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ صدرت النشرة العسكرية للتنقلات ووصلت وحدتي إشارة تفيد نقلي إلى المخابرات العسكرية. هنأني القائد الجديد سعد متولي، وسافرت إلى القاهرة بعد يومين أمضيت منهما ليلة برفح، وأخرى بغزة. قضيتها مع الصديق وزميل الكفاح محمد هاشم حسين قائد مخابرات غزة.

وفي صباح ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٢ توجهت إلى مقر عملي الجديد في المخابرات الحربية بكوبري القبة وكان زكريا محيي الدين عضو مجلس قيادة الثورة هو أول مدير لها بعد الثورة.

أحطت علما بملخص الموقف السياسي. وواجب المخابرات الحيوي في الأيام الأولى للثورة مع السيد زكريا محي الدين وكان ملخصه «أنه مع مقتضيات الثورة أصبح جهاز المخابرات الحربية مسئولا عن تأمين العمل السياسي للثورة داخليا وخارجيا. وكان أهم هذه الواجبات هو اتخاذ الخطوات الإيجابية للعمل على التخلص من الاستعمار البريطاني وأعوانه والقيام في الوقت نفسه بالعمل التكتيكي البحت والرئيسي في مواجهة النشاط العسكري الإسرائيلي.

عملت عند بدء تعييني في المخابرات في قسم الأمن فرع مكافحة الشيوعية. وفوجئت في بداية عملي ببقايا أشكال التبعية للبريطانيين داخل جهاز المخابرات نفسه.

إيقاف التبعية

ففي أحد الأيام الأولى من عملي بالمخابرات كنت موجودا بمكتبي عندما حضر أحد كبار ضباط المخابرات وكان يعمل بها من قبل الثورة (والسبب في الإبقاء عليه

بعد الثورة أنه كان يتصل بالضباط الأحرارويحذرهم أول بأول عما يصل الجهاز من معلومات عنهم)، فأعطاني كمية من التقارير باللغة الإنجليزية مكتوبة على ورق خفيف، ملون وبالآلة الكاتبة . . كلفني بدراستها ووضع الرأي عن كل تقرير على حدة . . عكفت على هذه التقارير ووجدت بكل ورقة منها معلومات عن شخصية مصرية، وعن علاقاتها. وكانت جميع التقارير عن شخصيات لها صلة بالشيوعية الدولية. استوقفني اسم أحد الصحفيين المصريين المشهورين وكان يقيم بألمانيا هربا من اضطهاد الملك السابق وهربا من السلطات المصرية.

كانت معلوماتي عن هذا الشخص قد تكونت من خلال المشاركة في العمل الوطني داخل تنظيمات الضباط، وكانت معلوماتي أنه من الوطنيين المخلصين، كثيرا ما تصدى فى كتاباته للظلم والفساد الملكي وتجاوزات السفارة البريطانية (هو الدكتور كمال الدين جلال) أثارني الموضوع وأخذت أعيد قراءة جميع التقارير وأدقق فيها وفي معلوماتها التي أجمعت على اتهام الأشخاص موضوع التقارير بالنشاط الشيوعي الخطير، وناقشت الزميل كمال رفعت ، وتم اختيارنا لعدة تقارير يسهل التحقق من المعلومات المدونة بها عن طريق ضباط المباحث العامة الجدد ، وعن طريق رجال وزارة الخارجية الذين عملوا في البلاد التي يقيم بها بعض هؤلاء المتهمين بالشيوعية وجاءتنا المعلومات التي تؤكد أن جميع هؤلاء المتهمين بالشيوعية لهم نشاط ضد الاستعمار البريطاني، وبعكس ماورد بالتقارير فإن نشاطهم كان لصالح الوطن.

وقبل أن أعيد هذه التقارير للضابط الكبير بالمخابرات علمت بالصدفة ، في أحد الأيام، أن الملحق العسكري البريطاني يقوم بزيارته في مكتبه فانتظرت حتى انتهاء الزيارة، ثم دخلت عليه في مكتبه وقبل أن أسلمه ما معي من التقارير. . أعطاني كمية جديدة من التقارير. . لها نفس مواصفات التقارير السابقة، وكلفني أيضا بدراستها. . وأعطيته التقارير السابقة وقد دونت عليها ملحوظاتي التي تفيد بأن المعلومات التي وردت بها كلها مزيفة ومدسوسة، وسألته إن كانت هذه التقارير والتي تسلمتها منه لتوي. . قد تسلمها من الملحق العسكري البريطاني. . الذي كان يزوره قبل دخولي عليه. . فضحك وعند ذلك واجهته بشكوكي، ورجوته بضرورة معالجة مثل هذه التقارير بمنتهى الحذر.

وبعد عدة أيام من التحري والاستقصاء، علمنا أن هذا الضابط الكبير بالمخابرات.. كان مكلفا بالاتصال بالملحقين العسكريين الأجانب، ومن ضمنهم الملحق البريطاني.. وكان منذ ما قبل إلغاء معاهدة ١٩٣٦، ومنذ سيطرة البعثة البريطانية على المخابرات المصرية والجيش المصري، يداوم شهريا على إرسال يومية الحرب الخاصة بالجيش المصري والتي تحتوي على أخطر المعلومات العسكرية السرية عن قوة الجيش العددية ومعداته الصالحة للعمل، والتي تحت الإصلاح، والتالفة، وما إلى ذلك من أسرار.. المفروض أنه محظور اطلاع أي أجنبي عليها. وكان يرسلها بطريقة رسمية ومستمرة ودورية. وبطبيعة الحال فقد اتخذت الإجراءات اللازمة لوقف مثل هذه المهازل.

القطة التي تأكل بنيها

حادث عرضي حدث لي بعد أسبوعين على الأكثر من يوم ٢٣ يوليو وبعد أن استلمت عملي بالمخابرات. فقد اتصل بي يوما بعد الظهر بالمنزل وأثناء راحتى من العمل زميل الدراسة الثانوية والصديق الدكتور أبوالفتوح البدوي.. وكان يعد نفسه وقتها لرسالة الدكتوراه من فرنسا وحضر لمصر عندما علم أن الثورة قامت.. حيث كان من الشباب الذين يساهمون فى العمل الوطنى أيام الدراسة الثانوية وكان من ضمن لجنة الطلبة بالمدرسة عن حزب الأحرار الدستوريين. استأذنت يومها من العمل بعد الظهر فى المخابرات وخرجت مع الصديق أبوالفتوح البدوي للتنزه والحديث كما كنا نعمل أيام الدراسة وجلسنا على شاطئ النيل خلف كازينو بديعة، وطال بنا الحديث إلى ما بعد العاشرة مساء. وعند عودتى إلى المنزل وجدت على الباب عربة عسكرية وبها سائق من المخابرات.. بادرني السائق بأن مدير المخابرات أرسله فى طلبي وإحضاري فى أي وقت. استبدلت ملابسي وارتديت الزي العسكري وركبت معه إلى أن وصلنا لمبنى المخابرات ولكنه لم يدخل المبنى بل دخل مبنى مجلس قيادة الثورة، وكان مجاوراً لمبنى المخابرات. تعجبت لمدة قصيرة ولكني استنتجت بسرعة سبب هذا الاستدعاء بهذا الأسلوب ودخلت غرفة كبيرة بها طاولة مستطيلة، وأثناء انتظاري ـ لدقائق ـ على انفراد استرجعت واقعة اجتماع فى منزلي تم بيني وبين جميع الزملاء السابقين من تنظيم الضباط الوطنيين، حدث

بناءعلى طلبهم فى منزلى قبل يومين، وتناولوا فيه مآخذ على بعض أعضاء مجلس الثورة وبالذات ضد أنور السادات الذى كان يلتقي فى مكتبه بدار الإذاعة بعدد من فلول الأحزاب القديمة. وبدأ يتوسط لهم كما كان يجري فى دهاليز وكواليس الحكم قبل الثورة.. كما سجلوا مآخذ على تصرفات الثورة فى أنها تشغل نفسها بالكثير من توافه الأمور. كانتداب أحد كبار ضباط الطيران (عبدالرحمن عبدالعال) لمطاردة تجار الطماطم الذين يرفعون الأسعار وكان مندوب الثورة يجلدهم فى الشوارع والميادين ممايسيء إلى الثورة وكنت ـ لخطورة الموقف ـ قد اقترحت على المجتمعين أن نسجل هذه المآخذعلى شكل تقرير أوصله إلى مجلس الثورة حتى لايئول الاجتماع تأويلات أخرى. وفعلا دونا هذه المآخذ فى ورقة وأخذتها معي فى اليوم التالى، وذهبت بها إلى مجلس الثورة، وكان المجلس فى اجتماع وأبلغت شمس بدران سكرتير المجلس بما حدث باختصار، وبمنتهى الصدق والصراحة، وأعطيته التقرير المكتوب ليوصله للمجلس وانصرفت وصدق ظنى فبعد فترة قصيرة حضر السيد زكريا محيي الدين وجلس على رأس مائدة الاجتماعات وأخذ يسألنى عن هذا الاجتماع بطريقة جعلتني أشك فى وصول تقريري الأصلي لهم، وجاءت أسئلته بأسلوب فهمت منه أن شمس بدران قد أخفى التقرير وادعى أنه اكتشف بنفسه شبه مؤامرة عن اجتماعنا فرويت لزكريا محيي الدين(والذي كان يأخذ وضع المحقق) بطريقة وبتسلسل وتفاصيل الدعوة للاجتماع، وما تم فيه وواقعة كتابة المآخذ فى تقرير سلمته لشمس بدران وبه كل التفاصيل، وأثناء هذا الحديث العاصف بيني وبين زكريا محيى الدين دخل إلى القاعة جميع أعضاء مجلس الثورة، واحدا بعد الآخر والتفوا حول الطاولة وحولى أنا وزكريا محيى الدين. وكنت قد بدأت فى الانفعال والرد بشيء من التوتر، حيث كنت لا أتصور إطلاقاً أن يصل تدهور مستوى الرجولة والأخلاق إلى هذا الحضيض من شمس بدران والذي من المفروض أنه كان ينتمي إلى رجال الثورة، ويبدو أن حديثي بهذا التسلسل وهذه الصراحة والانفعال الصادق أثر على بعض الحاضرين لأنه بعد فترة وجيزة امتلأت القاعة بكل أعضاء مجلس الثورة بما فيهم أنور السادات وسمعني وأنا أعدد المآخذ المسجلة عليه هو شخصيا.

وفى أثناء الحديث انفعل جمال سالم وأخذ يوجه لى ظلمًا كلمات اعتبرتها غير

لائقة فعنفته برجولة، وكان لي به معرفة سابقة، حيث كان صديقًا لأمين الخشاب قائدي في السجن الحربي، وكان كثيراً ما يحضر لزيارته وتعارفنا جيداً هناك قبل الثورة. وفجأة، وبدون سابق معرفة لى به إطلاقاً انبرى كمال الدين حسين مدافعاً عني في حين كان عبدالناصر صامتًا لا يتكلم وكان واقفا ويضع أحد رجليه على كرسيه ومكتف بالإنصات وقال لهم كمال الدين حسين يجب ألا تعطلوا الرجل أكثر من ذلك. وشدني من يدى وقال لي بعطف وأخوة ورجولة.. مع السلامة ياعبدالفتاح.

وأنا في طريق العودة إلى المنزل استعدت الصورة كاملة وتنبهت فجأة إلى خطورة وحساسية تصرفات رجال الثورة في بادئ أيامها. ومر بخاطري مثل عن طباع القطط «كقطة أكلت بنيها» فالثورة هي القطة. ومن شدة حرصها على أوضاعها وأسرتها تبدأ في التهام أبنائها كما أنني استوعبت ذلك الدور الخسيس الذي لعبه شمس بدران. وللأسف إنه استمر مقربا من النظام حتى صار وزيراً كبيراً مسئولاً عن أمن البلاد إلى أن حاقت الهزيمة بنا ١٩٦٧ وكان هو أحد عناصرها الأساسية

منشورات ضد البرجوازية المصرية

بعد أيام قليلة من الواقعة السابقة، أرسل عبد الناصر في طلب المسئول عن النشاط الشيوعي في المخابرات، وكنت أنا هذا الشخص في قسم الأمن بالمخابرات وطلب أن أحضر ومعي خبير الخطوط وأعداد من منشورات الضباط الأحرار، والتي كان الزميل المرحوم كمال رفعت قد استولى عليها ضمن أرشيف القسم المخصوص (القلم السياسي بوزارة الداخلية).

ذهبت وقابلت عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة، وأخرج من مكتبه منشورا أعطاه لي.. وكلفني مع خبير الخطوط بمضاهاة هذا المنشور بخط أي منشور للضباط الأحرار، ومكثت مع خبير الخطوط فترة طويلة وهو يضاهي الخطوط، ولكنه لم يجد أي منشور للضباط الأحرار مكتوبا بنفس ماكينة الكتابة المكتوب بها المنشور الذي سلمه لي عبد الناصر. وبلغته النتيجة وانصرفت.

وعلمت ـ فيما بعد ـ من مدير مكتبه أن هذا المنشور الموجود مع عبد الناصر وزع على نطاق واسع شعبيا، وكان كل ما جاء به هجوم على مجلس قيادة الثورة في أيامها الأولى وهجوم على زمرة الضباط عندما يعملون بالسياسة، واعتبرهم ممثلين للبرجوازية الصغيرة (طبقة صغار الرأسماليين المتطلعة للرأسمالية) وأخذ يحذر الشعب من تصرفاتهم منذ قيام الثورة إلى وقت صدور المنشور، وكان عبد الناصر يشك في هذا المنشور أن يكون محررا بمعرفة الأستاذ الدكتور راشد البراوي، لأنه كان يعاونه قبل الثورة، وملما بأسلوبه في الكتابة، وشك عبد الناصر أن تكون الآلة المكتوب بها المنشور هي نفس الآلة التي كان يستعملها الشيوعيون المتعاونون معه.

موقف الأحزاب

ناشدت الثورة الأحزاب إعادة تنظيم أنفسها وبرامجها، ولما لم تستجب الأحزاب لنداء الثورة بل أخذت تشكك في نوايا الثورة، صدر قانون إعادة تنظيم الأحزاب مطالبا الأحزاب بتسجيل قيدها بشروط معينة وذلك بتقديم برامجها الجديدة. وتقدم فعلا ١٦ حزبا بإخطارات تكوينها وبرامجها حتى أن الأستاذ فتحي الرملي اليساري المعروف.. أخطر عن حزبه التقدمي في ورقة تقدم بها بافتتاحية عنوانها «مرحبا بالصعاليك» يرحب فيه بإتاحة الثورة للكادحين فرصة المشاركة في الحكم في الوقت الذي وصفهم فيه نظام ما قبل الثورة بالصعاليك، أما الأحزاب فقد عاودت هجومها على نوايا الثورة والتشكيك فيها، وصدر قرار مجلس الثورة باعتقال بعض قيادات هذه الأحزاب بعد أن ثبت عدم جدوى التعامل معهم.

مقابلة مع فؤاد سراج الدين

كلفت قبل ذلك الوقت مع الزميل عيسى سراج الدين بمقابلة فؤاد سراج الدين سكرتير عام حزب الوفد في معتقل الثانوية العسكرية، حيث تم اعتقال كثير من السياسيين، بعد صدور قانون تنظيم الأحزاب، كما قابلنا معه هناك شقيقه يس سراج الدين، وكانت مهمتي أن أسألهما عن أفكارهما حول مستقبل التنظيم الجديد لحزبهما، وأن نتركهما يتكلمان دون أن نناقشهما وندون أقوالهما كتابة.

قابلناهما وتبادلت الكتابة مع عيسى سراج الدين في جلسة مطولة، وكانا في غاية المرح. وسلمنا الحديث المدون كتابة لمجلس قيادة الثورة، وكانت أفكار فؤاد سراج الدين بالذات لا تخرج عن نفس الأسلوب الحزبي القديم، وأنه لا يمكن للحزب أن يسير بغيره هو والنحاس باشا وتحدث عن أخطاء ومواقف زملاء له آخرين بحزب الوفد.

وعلمت أن هذا هو نفس ما جاء على ألسنة باقي الزعماء السياسيين غير المعتقلين.. عندما قابلوا أعضاء مجلس قيادة الثورة.. كلا على انفراد، وخرج مجلس قيادة الثورة بأن كل السياسيين القدامى كانو يشهرون ببعضهم لسبب بسيط أنهم جميعا كانو مشتركين في هذه التجاوزات إما بالممارسة.. أو بالخضوع لها.. وكل منهم يحاول أن يوهم الثورة أنه الوحيد الذي يمكن أن يتعاون معها في التكوين الجديد للأحزاب.

ويبدو أن هؤلاء الذين طعنوا بعضهم، ولم يتقدموا ببرامج حقيقية لم يدركوا أن الثورة كانت تريد الحكم، وما كان لها أن تسمح لأي منهم أن يلتصق بها، وقد كان هذا النداء الثوري الحبل الذي أعطى لهؤلاء الزعماء لشنق أنفسهم بأنفسهم. ثم صدر قرار بحل الأحزاب والهيئات السياسية في ١٧/ ١/ ١٩٥٣.

الاتفاق مع السودانيين

بدأت قيادة الثورة في الاتصال بجميع الطوائف والأحزاب في السودان منذ آخر عام ١٩٥٢ لمحاولة جمع كلمتهم لحل مشكلة السودان مع مصر، وقبل البدء في مطالبة المستعمر البريطاني بالتفاوض. وفعلا تم اجتماع بالقاهرة مع جميع الأحزاب السودانية.. ومع زعماء الطائفتين الرئيسيتين (المهدية والختمية) وكان للدور الذي قام به رئيس مجلس قيادة الثورة محمد نجيب أثر ناجح في سرعة توحيد كلمة السودانيين أنفسهم.

وفي ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣، تم توقيع اتفاقية السودان وبذلك انتهت الثورة من أول عائق في سبيل تحقيق الجلاء عن مصر.

عمليات المقاومة في القناة

في سبتمبر سنة ١٩٥٢ بدأت مصر الترتيب للتمهيد لمطالبة البريطانيين بجلاء قواتهم كلية من الأراضي المصرية، وذلك بتنظيم مقاومة في قاعدة القنال للضغط على بريطانيا لإرغامها على البدء في مفاوضات جادة من أجل تحقيق الجلاء الشامل. بدأت السلطات المصرية بإصدار قرار بتكوين حرس وطني لأجل تحقيق أماني الوطن مع احتمال استخدامه في المقاومة الشعبية ضد قاعدة القنال. كما تكون مكتب خاص للمقاومة في إدارة المخابرات بالقاهرة ضم كل من سعد عفره وكمال رفعت وعبد المجيد فريد (ضابط المخابرات والذي عمل بعد ذلك رئيسا لمؤسسة الأدوية) كان بهذا المكتب قسم للمعلومات وقسم للعمليات. أما أنا فقد تم نقلي للعمل في مكتب مخابرات القنال في مدينة الإسماعيلية مع الزميل عمر لطفي والذي كان قائما بالعمل بهذا المكتب قبل الثورة.

العنصر البشري اللازم للمقاومة الشعبية

حيث إن العنصر البشري هو أهم عناصر المقاومة الشعبية والكفاح المسلح، فقد أمكنني، عن طريق نواة من الفدائيين الذين عملوا سابقا بالمنطقة بعد إلغاء معاهدة ١٩٣٦، والتعرف على عناصر الإخوان المسلمين العاملين داخل المعسكرات بعد أن رفض قادة الجمعية في كل من السويس الحاج طاهر منير والإسماعيلية المرحوم الشيخ فرغلي وبور سعيد الحاج عبده تاجر الأدوات الرياضية التعاون المفتوح معنا. وتم الاتصال بعناصر الفلسطينيين الذين يعملون بالأماكن الحساسة في المعسكرات والمكاتب والمنشآت البريطانية عن طريق الصديق الفلسطيني المجاهد «عليان المحتسب» وأيضا بعض اليونانيين داخل المعسكرات. وبالتعاون مع المحافظين في

المحافظات الثلاث، وبواسطة ضباط المباحث العامة والجنائية أن نستعين بجميع الأفراد المحليين ممن احترفوا السرقات من الجيش البريطاني وأصحاب سوابق سرقات العربات والقطارات العسكرية، فأمكننا بعد خضوعهم لتدريب بسيط اكتشاف معدنهم الوطني الأصيل حيث عملوا معنا في المقاومة كفدائيين. كما اتصلنا بأحد أقطاب الإخوان بالمنطقة وكان زميلا لجمال عبد الناصر في التعليم الثانوي بالإسكندرية وهو المهندس ذو الهمة الشرقاوي والذي ـ عرفني به ـ هو سعد وفا ناظر محطة أبو سلطان وكان ينتمي إلى الإخوان المسلمين.

التعاون مع العناصر التي سبق اشتراكها في كفاح عام ١٩٥١

تقدم لي عند وصولي إلى عملي بالإسماعيلية الشاب غريب محمد خضيري (الشهير بغريب تومي) حيث كان دائم الالتصاق بالمدافع التومي Tomy Gun أثناء قيادته لفصيلة من شباب المقاومة بالإسماعيلية سنة ١٩٥١ وكان يعمل وقتها رئيس عمال في شركة القنال، وقدم لي عدداً كبيراً من زملائه الذين اشتركوا معه في المقاومة سنة ١٩٥١ مع السيد مجدي حسنين وكانوا خير نواة في ابتداء العمل الإيجابي ضد الإنجليز.

أول الغيث قطرة

وفي بداية عملي بمكتب مخابرات الإسماعيلية سمعت كثيرا ومن معظم المترددين على المكتب سواء المندوبين أو أصدقاء المكتب عن زعيم عصابة مشهورة ظل يزاول، بعصابته الواسعة الانتشار في منطقة القنال منذ الحرب العالمية الثانية، عمليات السرقة والنهب للمخازن البريطانية.

وكانت المعلومات تفيد بأنه قد جمع ثروة من هذه العمليات وزود عصابته بوسائل النقل اللازمة من عربات ولواري، وأنه يدبر لهذه السرقات بالاتفاق أحيانا مع ضباط وجنود ومشرفي مخازن الجيش البريطاني أنفسهم برشوتهم بمبالغ سخية. هذا الرجل واسمه «صبري السروجي» كان أيضا على علاقة صداقة وثيقة بضابط المخابرات البريطاني الشهير ويليامز، والذي كان يعطيه صبري السروجي أجرا

شهريا ورشاوى عديدة، لذلك حامت حوله بعض الشبهات ظنا بأنه يقوم بالتعاون مع البريطانيين أيام مقاومة عام ١٩٥١ ولكن لم تتمكن المباحث الجنائية من إثبات أي شيء ضده. وبدراسة شخصيته وسمعته الوطنية، وجدت أنه ليس عليه أي مأخذ، فاتصلت به وفي سرعة غير منتظرة أبدى استعداده للتعاون ووجدته شابا شديد الذكاء واللباقة. ودون تحفظ عرفني صبري «السروجي» على شبكته الواسعة من أفراد عصابته، وكانوا فعلا نواة طيبة جدا في جميع العمليات الإيجابية منذ بدء المقاومة ضد البريطانيين، كما ساعدت هذه الشبكة المدربة في سرعة البدء بتنظيم الكفاح المسلح، ومن هذا الوقت لم أجرؤ علي تسميتهم باللصوص إلا لضرورة الوصف في هذه المذكرات، ولكنهم في الحقيقة كانوا نعم الوطنيون المصريون الذين لا يتخلفون عند الشدائد.

اختطاف الخائن كنج صبري

لتأمين عملية العمل الفدائي والكفاح المسلح تمكنا من واقع ما هو مسجل عن الشخصيات التي سبق تعاونها مع البريطانيين أثناء الكفاح المسلح ١٩٥١ من اعتقال عدد كبير منهم من المنطقة وكان معظمهم يعمل في الجيش البريطاني. وكان من أخطرهم الخائن المدعو كنج صبري والذي ثبت من تحقيقات الإدارة والنيابة، ومن أقوال الفدائيين الذين اعتقلهم الجيش البريطاني لفترات، ثم أفرج عنهم أنه كان السبب الرئيسي في عمليات العنف البريطانية ضد الفدائيين في التل الكبير والقصاصين وعملية مذبحة عزبة أحمد عبده بالسويس، وكان لدينا تصميم على اعتقاله ولكنه كان لا يخرج إطلاقا من المعسكرات وإذا خرج يكون تحت حماية السلطات البريطانية وكان دائم التحرك تحت حراسة البوليس الحربي البريطاني خوفا من اختطافه. وكان يعمل في الوقت نفسه مع ضابط المخابرات وليامز.

وعن طريق «صبري السروجي» صديق وليامز وزعيم العصابة الوطنية أمكننا متابعة تحركاته داخل وخارج المعسكرات. وفي أحد الأيام أبلغنا صبري السروجي أن كنج صبري سيخرج من المعسكر في عربة جيب يقودها ضابط المخابرات وليامز بنفسه ومعهما اثنان من جنود الحراسة في نفس العربة، وسيكون خط سيرهم ما بين الساعة كذا والساعة كذا على الطريق بين مدينتي الإسماعيلية وفايد على طريق

القنال. وبناء على ذلك استقل الزميلان كمال رفعت ومحمود حلمي ومعهما صبري السروجي عربة فورد صالون سريعة يقودها «عم سيد» سائق الملك فاروق سابقا في رحلات الصيد ثم استمر يعمل سائقا بجهاز المخابرات العسكرية المصري، وعملوا كمينا على طريق سير عربة ويليامز وتعقبوها بعد تعرف صبري السروجي على الخائن صبري كنج معهم، اعترضت عربة المطاردة عربة الجيش البريطانية على الطريق فتوقف وبسرعة، وتحت تهديد السلاح، أنزلوا «كنج صبري» من العربة البريطانية. وقد أوقفت المفاجأة تفكير وسرعة بديهة ويليامز والحارسين فرفعوا أيديهم استسلاما، وسلموا أسلحتهم للمطاردين. وعادت عربة المطاردة المصرية بالصيد الثمين: الخائن كنج صبري إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بموجب ما هو مسجل ضده، وصدر عليه حكم الإعدام بتهمة الخيانة العظمى.

تنظيم المخابرات في القنال

وبعد فترة وجيزة أصبح قادة التنظيم في منطقة القنال والشرقية كالآتي:

بور سعيد: الرائد. عاطف عبده سعد

الإسماعيلية: مكتب رسمي: رائد. عمر لطفي ـ رائد. عبد الفتاح أبو الفضل ـ يوزباشي. سمير محمد غانم. Under ground: رائد. محمد غانم ـ رائد. محمود سامي حافظ.

السويس: مكتب رسمي: رائد. محمود سليمان.

الشرقية: مكتب رسمي: رائد. لطفي واكد.

في الرئاسة بالقاهرة: رائد. كمال رفعت ـ رائد. سعد عفره ـ رائد. محمود عبد الناصر ـ رائد. عبد المجيد فريد.

الاستيلاء على محطة توليد كهرباء متنقلة

في أحد الأيام. كان أربعة من الفدائيين المصريين يستقلون عربة مدنية على طريق الإسماعيلية / التل الكبير، وبعد مدينة أبو صوير بقليل لاحظوا أمامهم على الطريق

مقطورة ضخمة عبارة عن محطة توليد كهرباء تجرها عربة أخرى ضخمة. قرر الفدائيون الاستيلاء عليها، وعند مرورهم بجانب مقدمة العربة اكتشفوا أن عربة محطة الكهرباء يقوم بقيادتها سائق منهمك في القيادة وبجانبه حارس بريطاني مسلح وليس على المقطورة الضخمة أي حراسة أخرى، وضع الفدائيون الخطة بسرعة وبعد اجتيازهم المحطة المتنقلة بمسافة هبط أكفأ الفدائيين وأفضلهم في مستوى التدريب، فانتظر مرور محطة الكهرباء. ونظرا لثقلها ولشدة بطئها فقد تمكن من أن يقفز على مؤخرتها ثم تسلل إلى الجانب الذي به الحارس في كابينة السائق، وعاجل الحارس المسلح بطلقة في رأسه أردته قتيلا في الحال.

انزعج السائق البريطاني عندما شاهد مصرع زميله الحارس وكانت عربة الفدائيين أمام المقطورة تراقب العملية فاعترضوا السائق وأرغموه على الوقوف. وبسرعة أجبروه على النزول. وكان غير مسلح فقاموا بتقييده ثم تركوه في الأعشاب القائمة على جانب الطريق. وصعد أحدهم إلى المقطورة الضخمة وآخر قاد العربة المسروقة، ومعه زميل بعد أن ألقوا بجثة الجندي البريطاني المقتول على جانب الطريق أيضا ولزيادة الحماية تابع الفدائيان الآخران بسيارتهما السيارة المسروقة واستمرا في السير حتى وصلا إلى أحد الطرق الجانبية المؤدية إلى القاهرة. وبالفعل وصلت المحطة الكهربائية سالمة في حراسة عربة الفدائيين إلى القاهرة.

الانتقام لمقتل ضابط بوليس مصري

في مساء ١١ مارس ١٩٥٤ كانت مجموعة من الفدائيين المصريين تقوم بعملية الاستيلاء على ذخيرة من مخازن الجيش البريطاني فى أبي سلطان. بعد نجاح العملية تمامًا، فاجأتهم دورية بريطانية في سيارة وهم يحملون صناديق الذخيرة خارج سور السلك الشائك للمخازن ترك الفدائيون صناديق الذخيرة وفروا هاربين وطاردتهم الدورية عبر الصحراء بالسيارة ولحسن حظ الفدائيين كانت المزارع قريبة، وتمكنوا من الجري خلالها مما جعل مطاردة الإنجليز لهم بالسيارة مستحيلة واستمر الفدائيون في الجرى حتى وصلوا إلى نقطة بوليس فنارة ودخلوها للاحتماء بها. ويبدو أن أحد أفراد الدورية البريطانية كان قد ترجل خلفهم وراقبهم وهم يدخلون النقطة فأبلغ الدورية التى حضرت بعد فترة وجيزة. لما شعر ضابط النقطة «فريد ندا»

بعربة الدورية خارج النقطة أسرع وأمر الفدائيين بالخروج من الباب الخلفي لنقطة البوليس، وتمكنوا من عبور الترعة سباحة والفرار نهائيًا من مطاردة الإنجليز ولكن أفراد الدورية البريطانية أسرعوا بدخول مبنى النقطة ولم يكن أحدا موجود بها غير الضابط «فريد ندا» وبعد مناقشة حادة قصيرة أطلقوا عليه نيرانهم وأردوه قتيلاً مدرجًا بدمائه الطاهرة معتقدين أنه ساعد على تهريب الفدائيين. وحين وصل خبر مقتل الضابط إلى محافظة الإسماعيلية قرب منتصف الليل، استدعاني وكيل المحافظة وكان جميع ضباط بوليس المدينة مجتمعين في مكتبه وكلهم ثورة على مقتل زميلهم بهذه الوحشية. وعلمت بتفاصيل الحادث من وكيل المحافظة. وفي هدوء غادرت مكتبه مشاركًا في تهدئة ثورة إخواننا ضباط الشرطة وسهرت طول الليل أدبر خطة محكمة ومؤثرة للثأر. وفي الصباح كان بالمكتب عشرة أطقم من الفدائيين تحدد لكل طاقم من العشرة مكانا من أماكن تجمع البريطانيين خارج معسكراتهم أمام النوادي وشواطئ الاستحمام وتحدد لكل طاقم هدف ليقتله ويحسن أن يكون ضابطًا بريطانيا. وقبل عصر اليوم التالي لمقتل الشهيد «فريد ندا» تم قتل عشرة ضباط بريطانيين.

عملية سيارة البريجادير

كان ثلاثة من الفدائيين قد خرجوا للبحث عن صيد جديد وعند شاطئ بحيرة التمساح وفي منطقة منعزلة. كان هناك عربة ملاكي ليس بها ركاب وبداخلها ملابس وبالقرب من العربة، وعلى الشاطئ كانت هناك قبعة حريمي كبيرة وبشكير حمام وداخل مياه البحيرة كان شخص بريطاني ومعه سيدة يسبحان في مياه البحيرة. وانتظر الفدائيون حتى ابتعد الرجل والسيدة داخل البحيرة ثم اقتربوا من القبعة والفوط ووجدوا تحت القبعة شنطة كان بداخلها مفاتيح العربة، فاستولوا على القبعة والبشكيرين والشنطة وأخذوا مفاتيح العربة وتنبه المستحمان فأخذا يشيران بأيديهما ويسرعان بالسباحة في اتجاه الشاطئ ولكن الوقت كان قد فات.

بعد غروب شمس هذا اليوم (بعد الحادث بحوالي أربع ساعات) استدعاني وكيل محافظة الإسماعيلية لمكتبه، وقال لي: إن قائد البوليس الحربي البريطاني كان عنده قبل وصولي وطلب منه أن يسمح المحافظ لأحد ضباط المحافظة بمصاحبته في

عربة الدورية البريطانية المكلفة بمطاردة لصوص عربة البريجادير (العربة المسروقة كان يملكها ضابط برتبة بريجادير بالجيش البريطاني) حيث إنه كان لديه معلومات أن العربة المسروقة لا زالت داخل عزبة «أبو جاموس». وكان ضابط البوليس الحربي لديه أوامر بمطاردة لصوص العربة بالنيران ولكنه فضل وجود ضابط بوليس مصري لمرافقة دورية المطاردة.

وافق المحافظ على طلب قائد البوليس الحربي البريطاني، وكلف بذلك الضابط مططفى شلبي مساعد مدير المباحث العامة. وذهبت أنا بعد ذلك مباشرة إلى عزبة «أبو جاموس»، وترجلت قبل العزبة ولاحظت جلبة وهرجا والكل يحكي عن المطاردة المثيرة التي حدثت قبل أن أصل بعدة دقائق والتي تم فيها تبادل إطلاق النيران بين الفدائيين وعربتي الداورية البريطانية. علمت أن الفدائيين تمكنوا من الفرار بالعربة المسروقة في آخر لحظة.

مهاجمة مكتب المخابرات البريطاني في السويس

تمكن الزميل محمود سليمان المشرف على مكتب المخابرات المصري بمدينة السويس الاتفاق مع بعض جنود الموريشيان (إفريقيون من سكان جزائر موريشيوس بالمحيط الهندي شرق مدغشقر) المجندين بالجيش البريطاني وكان معظمهم من المسلمين ويقومون بالحراسة على مكتب مخابرات الجيش البريطاني بالسويس. اتفق معهم نظير مبلغ من المال. وبعد اقتناعهم بأن مصر في حالة كفاح ضد البريطانيين على أن يساعدونا في تسهيل عملية الاستيلاء على جميع عربات هذا المكتب الموجودة بجراج المكتب بالسويس، وذلك أثناء حراستهم الليلية. كان عدد العربات خمس عشرة عربة. فتم تشكيل طاقم كامل من عشرين فدائيا متخصصين في سرقة وتشغيل العربات، وسبق لهم القيام بمثل هذه العملية. زودناهم قبل العملية بأسلحة العصابات. وكان مع هذه القوة طاقم آخر مدرب على فتح الثغرات في الأسلاك الشائكة المحيطة بجراج مخابرات السويس لتسهيل دخول طاقم السرقة. ذهبت معهم أنا والزميل محمود سليمان بعد أن خططنا لهذه العملية. وكانت الخطة تقضي بالخروج بالعربات بعد فتح الثغرة بسور السلك الشائك. ثم نسرع بالتوجه بالعربات إلى مكان معدية السويس ثم نعبر إلى البر الشرقي

بسيناء . وكان موقع المعدية لحسن الحظ قريبا جدا من موقع العملية . وانتشر طاقم آخر من عشرين فدائيا حول موقع المعدية من الغرب ليؤمنوا بأسلحتهم عملية العبور من المطاردة البريطانية . وفي الوقت نفسه كان الجميع يتقنون قيادة العربات . وحيث إن العملية كانت ستتم بعد العاشرة مساء فقد صار التفاهم مسبقا ، والترتيب مع طاقم عمال المعدية المصريين الذين كانوا تابعين لشركة القنال الفرنسية . بدأت العملية بفتح الثغرة في سور السلك الشائك حسب الاتفاق مع الحراس الموريشيان الذين تركوا لنا مواقعهم بالكامل وقت العملية . وتم تشغيل العربات ، وخرجنا بها مسرعين متجهين إلى موقع المعدية . وبمجرد وصولنا إلى المعدية قام عمال المعدية المصريون بتشغيلها بأقصى طاقة وتم عبور الخمس عشرة عربة على ثلاث دفعات في زمن قصير جدا ، وفي حراسة طاقم الحراسة المنتشرين حول موقع المعدية الغربي . وقد سلم الله فلم يتعقبنا أحد من الجيش البريطاني وتجمع الجميع بما فيهم طاقم الحراسة في البر الشرقي بعد العبور وهناك كان ينتظرنا لوري مصري به كمية كافية من الوقود .

وبعد إعادة ملء خزانات بنزين العربات المستولي عليها ، بدأنا السير بالعربات المسروقة على طريق القنال الشرقي متجهين إلى القنطرة شرق . واتجهنا من القنطرة شرق إلى معسكر الجيش المصري هناك حيث سلمنا هذه العربات لهم . واحتفل بنا الزملاء ضباط رئاسة القوات المصرية في القنطرة شرق . وجمعنا هذا اللقاء أثناء الإفطار بإمام القوات الشيخ عبد المنعم الذي كان إماما للكتيبة الرابعة مشاة أثناء خدمتي بها وكانت كلمة هذا الإمام المبجل كلها إيمان ووطنية .

وكان يتكلم ودموع التأثير تتساقط على وجنتيه من شدة التأثير لأن منظر العربات الخمس عشرة وعليها العلامات البريطانية وهي رابضة في ساحة المعسكر المصري الذي يرتفع عليه علم مصر ، كان يدعو حقا للحماس والتأثير . وعدنا عن طريق القنال في البر الغربي حيث كانت تنتظرنا عربات لتقلنا إلى مدينة الإسماعيلية .

اقتحام نادي الضباط الإنجليز

قام الزميل اليوزباشي غانم بالاستكشاف والتخطيط لهذه العملية فتمكن من معاينة النادي المطل على بحيرة التمساح مباشرة في مدينة الإسماعيلية ، كما تعرف

على رجال الحراسة. وكان من المجندين الإفريقيين بالجيش البريطاني، وعن طريقهم تمكن من جمع معلومات مفصلة عن مداخل ومخارج النادي ومنطقة انتظار السيارات. ومن حصيلة هذه المعلومات قام بعمل رسم كروكي للنادي وما يحيط به.. وبناء على ذلك وضع خطة كاملة لاقتحامه. وكانت العادة قد جرت في هذا النادي على أن يبدأ الضباط في ارتياد ناديهم في التاسعة مساء، ويقوموا بلعب الميسر الذي يستحوذ على كل تركيزهم وحواسهم. ولذلك تقرر أن يكون الهجوم بعد هذا الميعاد وبمدة كافية.

كما جاء بالمعلومات التي تم جمعها أن عدد العاملين في النادي لا يتعدى خمسة أفراد. وبناء على ذلك قرر سمير أن تتكون قوته من ثمانية أفراد من الفدائيين المصريين. وفي الموعد المحدد استقل سمير ومجموعته سيارة قادوها إلى قرب النادي ثم أخفوها تحت الأشجار. وترجل الفدائيون المسلحون حتى وصلوا إلى موقع النادي في العاشرة مساء. وبهدوء وتحت ستار الظلام، طوق الرجال النادي.

وحسب الخطة الموضوعة تسلل أربعة من الفدائيين من ناحية البحيرة عبر الشرفة الخلفية والأربعة الآخرون من ناحية الباب الأمامي.. وعندما أصبح الجميع متأهبين تماما للاقتحام أصدر أحد الفدائيين من ناحية البحيرة صوتا كصوت الضفدع وهي الإشارة الخاصة المتفق عليها. وعلى الفور اقتحم الفدائيون الثمانية وهم شاهرو السلاح مبنى النادي من الجهتين في سرعة فاجأت رواد النادي.

وتقدم أربعة من الفدائيين فتولوا تهديد العاملين بالبوفيه والبار وقام الأربعة الآخرون بتهديد مجموعتين كبيرتين من الضباط العاكفين على لعبة الميسر. ورفع الموجودون أيديهم مستسلمين. ولما كانت التعليمات في هذه الفترة حاسمة بوقف الاغتيالات فقد قام الفدائيون بتقييد جميع البريطانيين والعاملين بحبال كانو قد أتوا بها خصيصا لهذا الغرض ثم أمروهم بالانبطاح أرضا على وجوههم فنفذوا صاغرين. وبسرعة استولى الفدائيون على إيراد النادي وما كان بخزينته وجميع متعلقات الضباط الإنجليز، وخرج الفدائيون مسرعين ليقيدوا جميع أفراد الحراسة الإفريقيين تنفيذا لما اتفق معهم عليه. واستولوا على أربع عربات بريطانية كانت في مكان الانتظار وسلموا كل ذلك في القاهرة إثباتا لتمام نجاح عملية الاقتحام.

جمع المعلومات

كان لا بد لتصعيد عمليات القتل والنسف من تجميع معلومات عن أهدافنا القادمة لزيادة أعمال العنف التي كان يقوم بها الفدائيون، فإلى جانب عمليات التخريب والنسف والاغتيالات. كانت تحركات تجري على نطاق واسع للحصول على معلومات دقيقة عن الجيش البريطاني بالقاعدة.

وبواسطة المندوبين الذين يعملون في مكاتب الجيش البريطاني حصلنا على رسومات المعسكرات والمنشآت التفصيلية. وكان يدون على هذه الخرائط والرسومات أي تعديل يطرأ بموجب المعلومات التي كنا نحصل عليها أولا بأول من المندوبين. وفي النهاية أصبح لدينا خرائط تفصيلية شاملة عن توزيع القوات والوحدات البريطانية بمنطقة القنال. وكنا عن طريق العاملين في مكاتب الضباط والقيادات البريطانية نحصل على كميات هائلة من محتويات سلال المهملات التي تلقي فيها الأوراق من مكاتب القادة وضباط القاعدة، كانت ترسل كما هي إلى مكتب معلومات القاهرة، وهناك يعاد فحصها بدقة وأمكن أيضا الحصول منها على معلومات في غاية السرية.

تعيين الأهداف الحيوية

بعد أن حصلنا على عدد من خرائط ورسومات المعسكرات والمخازن والمنشآت كنا نعطى صورة من أجزاء هذه الرسومات والخرائط إلى المندوبين المصريين العاملين بها ليقوموا بتعيين أماكن الأهداف الحيوية، والمتحكمة بحيث يفيد تحديد أماكنها كثيرا في عمليات التخريب والنسف والتدمير المؤثر. ثم يعاد وصل هذه الأجزاء لكل معسكر حتى تعطي تفصيلات وافية عن كل معسكر بالكامل على حدة.

الحصول على التقارير والمستندات السرية للغاية

أمكننا تجنيد (بالاتفاق مع العاملين في مكاتب رئاسة القوات البريطانية وكان منهم شخص يعمل لدى العدو ليعمل لحسابنا) أحد الأجانب غير البريطانيين. وكان يعمل كاتبا بمكتب أحد الجنرالات في الجيش البريطاني من القادة الكبار. .

وعن طريق هذا المندوب واسمه الحركي (المندوب) «واطسون» والذى أمكنه أن يغافل هذا الجنرال ويحصل على مفاتيح خزينة المستندات لفترة زمنية بسيطة مكنته من طبع المفتاح على قالب من الشمع سلمه لنا بالخارج وأمكننا عمل نسخة طبق الأصل من المفتاح . وتمكن بواسطة هذا المفتاح المصنع أن يحصل لنا على كمية هائلة من المستندات ذات الصفة السرية للغاية وكان يحملها معه بالخارج ليصورها في أحد محال التصوير التابعة لنا في السويس «مصوارتي كليوباترة السيد رشاد النقادي» ويعيد المستندات الأصلية بعد تصويرها ثانية في اليوم التالي إلى مكانها في الخزينة مستعينا بالمفتاح المصطنع .

الاستيلاء على قطارات كاملة

من ضمن المهمات التي أمكن لمندوبينا الذين يعملون في مخازن الجيش البريطاني في التل الكبير مساعدتنا فيها أمكننا الحصول علي كمية من الختامات الخاصة بعربات البضائع المشحونة بالمهمات العسكرية للجيش البريطاني وكذلك كمية كبيرة من جهاز الختم الذي يطلق عليه صفارة . وهي عبارة عن شريط من الصلب ينتهي بعلبة تشبه الصفيح .

وكان المتبع أنه بعد أن تملأ عربة بضاعة السكة الحديد بالمهمات العسكرية بعد تفريغ السفن بميناء السويس أو بور سعيد ويغلق الباب على البضائع والمهمات يؤمن الباب لعربة بضائع السكة الحديد المشحونة بالبضائع العسكرية بإدخال طرف الشريط الصلب في سقاطة الباب ثم يتم إدخال طرف الشريط الاخر في العلبة الصفيح أو الصفارة المثبتة في النهاية الأخرى للشريط ثم تعالج العلبة أو الصفارة بختامة من الصلب تحكم إغلاق الشريط ويصبح على الصفارة علامة مميزة للمهمات العسكرية البريطانية . وبالتالي يؤمن الباب المغلق لعربة السكة الحديد .

وبدراسة سلسة نقل المهمات والأسلحة العسكرية من ميناء الوصول في بور سعيد أو السويس علمنا أن المهمات والأسلحة والذخائر البريطانية تنقل من ميناء الوصول إلى مخازن القاعدة في القنال في عربات السكة الحديد المصرية وتؤمن كل عربة بضاعة مشحونة بهذه الصفارة بعد ختمها ، وتتم هذه العملية بمعرفة

أفراد مكتب إنجليزي يطلق عليه R.T.O وهو مكتب تشهيلات السكة الحديد بعد ختم أبواب عربات البضاعة بمعرفة الـ R.T.O في الميناء تسلم إلى مصلحة السكة الحديد المصرية لسائق القطار وعمال السكة الحديد المصريين وعلى السكة الحديد المصرية توصيل هذه العربات وتسليمها مختومة إلى مخازن الجيش البريطاني في القاعدة دون أية مسئولية من جانب السكة الحديد المصرية ما دام الختم سليما.

بعد الحصول على الأختام والصفارات وهي مفتاح العملية. وبعد دراسة هذه السلسلة. أمكننا ـ بالاتفاق مع مدير الحركة المصري المهندس «ذو الهمة الشرقاوي» بالسكة الحديد بالإسماعيلية ـ ترتيب إيقاف قطارات المهمات والبضاعة العسكرية قبل دخولها مخازن الجيش البريطاني وفي مناطق مأمونة لنا وذلك بعد حصولنا على معلومات عن ميعاد مغادرتها للمواني في طريقها إلى مخازن الجيش البريطاني وتجهيز عدد من العربات الفارغة مماثل لعدد عربات القطار المشحون بالمعدات العسكرية في المناطق الآمنة المتفق عليها مع الحركة بالسكة الحديد ثم تختم أبوابها بالصفارات والختامات المسروقة من مخازن الجيش البريطاني، وتقوم قاطرة بسحب عربات القطار الفارغة إلى مخازن الجيش البريطاني. وتقوم قاطرة أخرى بسحب عربات القطار المشحونة إلى مخازن الجيش المصري إما بالعباسية أو المعادي، ولحسن الحظ أنه في أحد هذه القطارات حصلنا على كميات كبيرة جدا وكافية من مواسير مدافع الميدان المصرية البريطانية الصنع ٢٥ رطلاً التي كانت شديدة الحاجة للتغيير. كما حصلنا على كميات هائلة من أجهزة القنابل الزمنية التي استخدمناها على نطاق واسع بعد ذلك. وفي هذا المجال أشيد بوطنية وشجاعة مدير حركة السكة الحديد «وذو الهمه الشرقاوي» وجميع العمال الأبطال الذين كانوا يتفانون في تفريغ العربات ونقلها.

مكافحة الجاسوسية

في مساء أحد الأيام حضر إلى المكتب شخص مصري يبدو من حديثه أنه مسلم ـ وعرض علينا بعض خرائط لمنشآت عسكرية وقال إنه يعمل رساما بمكتب الخرائط العسكرية البريطانية وإنه علم من بعض المصريين الذين يعملون معه أن مكتب المخابرات المصري بالإسماعيلية في حاجة إلى هذه الخرائط الموجودة تحت

يده. وأبدى لهم استعداده لذلك ولكنه فضل أن يسلمها للمخابرات المصرية بنفسه وعلم منهم عنوان المكتب المصري وأن الشخص المسئول عن استلام هذا النوع من الخرائط هو Abu El Fadel (ابو الفادل) ونطقها كما ينطقها الإنجليز بالدال وليس الضاد (أبو الفضل) وأصر على أن يسلمها لـ (أبو الفادل) نفسه واستنتجت في الحال أنه عميل بريطاني مكلف رأسا ومباشرة من ضباط إنجليز لإجراء هذا الاتصال وليس موفدا من أحد المواطنين المصريين كما يدعي ـ وتظاهرت بأنني لست (أبو الفادل) وأنني سأناديه له ليقابله وخرجت إلى المكتب المجاور وكان موجودا به الزميل سامي حافظ من مخابرات الطيران. وفي سرعة أفهمت الزميل سامي حافظ الوضع وطلبت منه أن يمثل على العميل أنه أبو الفادل ويستدرجه في الحديث حتى تكرر نطق هذا الاسم عدة مرات، ويجعله يعيد عليه الحديث الذي تحدث به إليه ثانية. وقمت أنا بتشغيل جهاز التسجيل من الغرفة المجاورة والمتصل بميكروفون في الغرفة الموجود به الزائر.

وبعد أن أعاد عليه الزميل سامي حافظ الكلام وتأكدت من سلامة التسجيل وأصبح لدي قرينة صوتية ضده أمرت باستمرار التسجيل ودخلت عليهما الغرفة عندما بدأ الزائر يخرج ثلاثة خرائط من تحت ملابسه ليسلمها للزميل سامي حافظ على أنه هو أبوالفادل. وبالاطلاع على الخرائط وجدناها خرائط صحيحة وليست مزيفة . عند ذلك فاجأت الزائر المشتبه فيه بسؤال مفاجئ له تمامًا قلت له. من الضابط الإنجليزى الذى كلفك بالحضور إلينا ؟ ونظرإلى دهشا وظل صامتًا ، فأخبرته بأني قد سجلت كل كلمة قالها وأن نطقه لاسم «أبو الفضل »يدل على أنه قد لقن بالاسم عن طريق رجل إنجليزي وأنه مكلف من قبل أعدائنا الإنجليز بالتجسس والخيانة وأنه من الأفضل له أن يعترف بكل شيء وبالحقيقة. . وأننا قد نستفيد منه بشكل أو بآخر وإلا قمت بتسليمه للنيابة ليحاكم بتهمة الخيانة كما حوكم «كنج صبري » من قبل . أصابته مفاجأتي له بالوجوم ثم انهار تماما . وبعد وقت قليل بدأ يتمالك نفسه معترفا بأن الضابط البريطاني الذي كلفه بالحضور هو ضابط المخابرات البريطاني ويليامز وهو نفس الضابط الذى كان يقوم بتشغيل الخائن كنج صبري والذى كلفه بعدة مهام .

(أولا) التأكد من أن المخابرات المصرية هي المهتمة فعلاً بهذا النوع من الخرائط .

(ثانيًا) محاولة الوقوف من خلال الحديث مع (أبوالفادل) عن سبب جمع هذه الخرائط .

(ثالثًا) محاولة استدراج(أبو الفادل)لدخول معسكر الجيش البريطاني الموجودة به الخرائط بحجة إمكان تسليمه هناك عدداً كبيراً منها يصعب على المندوب الخروج بها بنفسه .

(رابعًا) أواستدراج (أبوالفادل) بالحديث عن بعض مندوبى المخابرات بدعوى تسليمهم هذه الخرائط عندما يحصل لهم عليها (وبذلك يتمكن من الوقوف على أسماء المندوبين المصريين داخل المعسكرات) .

(خامسا) أن يحاول أثناء دخوله وخروجه من مكتب المخابرات المصرى التعرف على المداخل والمخارج للمكتب وحجم ومواقع الحراسات حول المكتب وتسليحها وعددها بالتقريب .

وبعد هذه الاعترافات أكدت له أنه قد تم تسجيلها أيضًا وأنه الآن أصبح متهمًا يمكن محاكمته وإثبات تهمة الخيانة وعليه أن يختار إما المحاكمة بتسليمه إلى النيابة أوالموافقة على أن يعمل لحسابنا وتنفيذ كل ما نأمره به، عند سماعه هذا العرض وافق وهو لايصدق أن حياة جديدة قد كتبت له ، ووافق بالعمل فى كل ما نأمره به. أخذت الخرائط وخرجت وتركته مع الزميل سامى وقمت بتصوير الخرائط الثلاث . أعدت إليه الخرائط وقلت له :

(أولا) خذ هذه الخرائط وأعدها إلى ويليامز وأفهمه بأن : لا أبو الفادل ولا المخابرات المصرية في حاجة إلى هذه الخرائط .

(ثانيًا) ردا على طلبه باستدراج (أبو الفادل) لدخول المعسكر أخبره أنك لم تجرؤ على ذلك مادام أبو الفضل ليس له أية رغبة في الخرائط .

(ثالثًا) أما عن استدراج (أبو الفادل) للإفصاح عن أسماء وشخصيات بعض المندوبين المصريين داخل المعسكرات فأخبره بأنك أرجأت ذلك فيما بعد إذا

أمكنك معاودة الاتصال بأبو الفادل خصوصا وأنه أسلمك بعض المنشورات ضد الجيش البريطاني (وأعطيته كمية منها ليقوم بتوزيعها داخل المعسكر) وعليك أن تسلم ويليامز هذه المنشورات (هدية مني له).

(رابعًا) أما عن عملية استكشاف مداخل ومخارج المكتب فإني أسمح لك باستخدام قوة ذاكرتك عند خروجك من عندنا فحاول أن ترسم صورة حسب رؤيتك وتعيدها على الضابط ويليامز.

(خامسًا) أما عن طلبه منك معرفة معلومات عن الحراسة فعليك أن تقول له: إنك لم تلاحظ أي حراسة ظاهرة وأنه لم يعترض طريقك إلى المكتب أي حراس ولكنك لاحظت وجود كثير من الأفراد داخل الشجر الكثيف المحيط بالمكتب وأنك خبرتهم من أصواتهم وبالغ في هذا العدد. أما عن التسليح فأخبرهم أنه لم يمكنك رؤيتهم حتى تقف على تسليحهم.

وأخيرا كلفته بزيارتنا مرة أخرى واتفقت معه على مكان معين يمكنه انتظارنا عنده بمدينة الإسماعيلية، ويستحسن أن يكون ليلا بعد أن يتصل تليفونيا، وأعطيته اسما كوديا «مرزبان» على أن يرتدي عند الزيارة قبعة قماش بيضاء كالتي اعتاد أن يلبسها أهل منطقة القنال ويحمل معه في يده بشكل ظاهر علبة مربى ماركة قها.

واعتبرته من هذه اللحظة عميلا مزدوجا أحاول الاستفادة منه لأقصى حد وإذا ثبت إخلاصه يمكن اعتباره مندوبا وطنيا كاملا.

وبعد ثلاثة أيام حضر بالأسلوب المتفق عليه وعرفني بأن الضابط ويليامز صدقه في كل ما قاله خصوصا عندما سلمته المنشورات وصرف النظر كلية عن إعادة تشغيله كجاسوس. ولكنه أبدى استعداده لخدمة بلده. وأفهمني أن الزيارة الأولى التي قام بها لنا كانت أول تجربة له مع الضابط ويليامز، وأنه لم يكن مقدرا خطورتها حتى تمت مقابلته معنا التي علمته فيها درسا لن ينساه. وعلمت من الحديث معه أنه يتقن التصوير وسلمته أدوات التصوير اللازمة لتصوير المستندات، وكلفته بتصوير أكبر عدد ممكن من الخرائط الموجودة. وفعلا قام بهذه المأمورية خير قيام.

تجنيد مندوب

في إحدى زيارات المندوب (مرزبان) ـ مندوب الخرائط السابقة ـ علمت منه أنه على صلة بشخص اسمه شريف كيسون يعمل مع ضابط المخابرات ويليامز، وكان لدينا بالمكتب ملف خاص عن شريف كيسون، وأحضرت الملف وعند اطلاعي عليه علمت أنه سوداني الجنسية يعمل مع مكتب المخابرات البريطاني، وأنه يتعاون معهم في أعمال الترجمة واستجواب المعتقلين المصريين من المقاومة الشعبية في عام ١٩٥١ وأنه مشتبه في تعاونه الضار ضد مصر، ولكن ليست هناك أي أدلة مادية ضده لأنه يمتاز بالحرص الشديد والذكاء الحاد، لكنه يعرف الكثير من المعلومات عن أعمال المخابرات البريطانية وخاصة عن الجواسيس المصريين الذين يعملون معهم. وأنه ضمن المطلوب اعتقالهم ولكنه لا يخرج إطلاقا من المعسكرات البريطانية ولا يتحرك إلا بحراسة. بالإضافة إلى هذه المعلومات كانت لدينا حصيلة معلومات عن شخصيته من واقع تقارير المندوبين الذين يعملون مع مكتب مخابرات الإسماعيلية المصري وطرأت في ذهني فكرة احتمال التعاون مع شريف كيسون، واتفقت مع مرزبان أن يحاول مكاشفة شريف كيسون عن إمكانية إقامة اتصال بيني وبينه، وأنه من الممكن تأمينه إذا تمكن من تقديم خدمات للمخابرات المصرية فيمكننا عند ذلك إصدار عفو عنه فلا يحاكم.

في لقاء بعد ذلك مع مندوب الخرائط (مرزبان) أبلغني أن شريف كيسون وافق على اللقاء والتعاون ما دام هناك عفو من أعلى المستويات المصرية سيصدر عنه، ولكنه اشترط كبداية لبناء جسور الثقة أن يتم لقائي الأول به داخل المعسكرات. وعد بعمل التصريح Pass الخاص بذلك لي تحت اسم مستعار وطلب مني صورة بغطاء الرأس (البيريه) والذي يجب أن أرتديه عند حضوري داخل المعسكر. وكانت مغامرة مني أن أقبل هذا العرض على هذا النحو. لكن كان لدي اقتناع بإمكان النجاح في مأموريتي فمن دراسة جميع المعلومات عن شريف كيسون تكون لدي شعور داخلي في إمكان الوثوق به حيث برزت لديه الشهامة والرجولة والوفاء بالوعد في كثير من المواقف مع الذين تعامل معهم. وفعلا تم اللقاء بأمان وأثبتت مجازفتي بدخول المعسكرات عن إمكاني الثقة منه وبنفس القدر أثبتت تصرفات شريف كيسون بعدم الغدر بي أنه أصبح محل ثقة لدي.

في أحد الأيام التالية حضر شريف كيسون مع (مرزبان) وللمفاجأة أخرج لي من جيبه صورة فوتوغرافية لوثيقة تصميم أحد الألغام المصرية المضادة للدبابات من مستندات إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية. وقال إن المستند الأصلي موجود في هذه اللحظة في حوزة الجاسوس المصري (مكسيموس) الذي كان في لقاء في مخابرات الجيش البريطاني اليوم، وقد قام هو بتصوير هذا المستند للمخابرات البريطانية وتمكن من تصوير صورة إضافية خلسة، هي التي سلمها لي وغادر الجاسوس مكتب المخابرات البريطاني في طريق عودته إلى القاهرة. و(مكسيموس) هذا هو موظف الأرشيف المصري المسئول في قسم إدارة البحوث والتطورات العسكرية المصرية المسئول عن حفظ مثل هذه المستندات وقد حضر به لتؤخذ له صورة في المخابرات البريطانية. وسوف يعود بالأصل ليودعه ملفه في الإدارة المصرية صباح اليوم التالي. وقد سبق وأحضر كثيرا من هذه المستندات للمخابرات البريطانية. واستنتاجا فإن المستند الأصلي سيكون في حوزة الجاسوس (مكسيموس) حتى صباح اليوم التالي، وكان علينا أن نقبض عليه متلبسا بحيازة هذا المستند الأصلي قبل إيداعه الملف. جعلت شريف كيسون يوقع على صورة المستند بما يفيد أنها صورة طبق الأصل من المستند. وتقديرا من شريف كيسون لأهمية عامل الوقت فقد زودني بوصف كامل للجاسوس وصورة فوتوغرافية له وكذلك عنوانه بالقاهرة. وكان يقيم في شبرا، وأبلغني أيضا أن الجاسوس سيسافر إلى القاهرة في قطار المساء من محطة الإسماعيلية في الساعة كذا وكان موعد مغادرة القطار قد اقترب جدا. ولعدم إضاعة مزيد من الوقت أمرت بتجهيز عربة ورافقني فيها الزميل سامي حافظ فأسرعنا بالسفر بالعربة إلى القاهرة وتوجهنا رأسا إلى مكتب مخابرات الطيران. وكان هناك قائد المكتب عصام خليل وزودنا بشخصين مسلحين رافقانا في العربة. وتوجهنا رأسا إلى مدخل منزل الجاسوس (مكسيموس) لأنه بحساب الزمن لم يكن قد وصل إلى منزله بعد.

حول مدخل المنزل انتشرنا نحن الأربعة وبعد مدة طويلة من المراقبة حضر شاب يطابق الوصف والصورة التي معنا. وعندما اقترب من باب المنزل اعتقلناه وأرغمناه على ركوب العربة.

ذهبنا رأسا بالجاسوس إلى مكتب مخابرات الطيران وكان ينتظرنا قائد المكتب عصام خليل. وللمفاجأة التي تم بها اعتقاله وتفتيشه وعثورنا على المستند الأصلي سليما انهار واعترف في التحقيق بكل ما يدينه. وفي الصباح ذهبت مع الزميل سامي حافظ إلى إدارة البحوث والتطورات الحربية. وقابلنا المدير وسألناه عن ملف تصميم اللغم وتأخر وصول الملف فترة ثم أحضره القائد وكان ينقصه تصميم اللغم. وبدت علامات الاستياء على المدير الذي أبلغنا أيضا بتغيب الشخص المسئول عن حفظ الملف، وزاد سوء موقفه عندما أبرزنا له صورة المستند المصورة في مكاتب الإنجليز.

بذلنا مجهودا كبيرا لإعادة الطمأنينة إلى القائد وأفهمناه أننا قبضنا على الجاسوس متلبسا بحيازة المستند الأصلي، ووافق كطلبنا بأن وقع على ورقة مكتوب بها شهادة بأن المستند الأصلي رقم كذا الخاص بتصميم اللغم المضاد للدبابات اختفى من الملف الخاص به رقم كذا وأن المسئول عن اختفائه هو موظف الأرشيف (مكسيموس)، وبذلك استكملت حلقات التهمة حول مكسيموس حيث حول إلى محكمة الثورة، وصدر عليه الحكم بالإعدام نظير خيانته.

كما وعدت شريف كيسون فقد صدر العفو عنه وترك العمل بالجيش البريطاني لأن أمره لابد قد انكشف بعد إعلان هذه القضية في الصحف.

القبض على شبكة كبيرة من الجواسيس

أثبت شريف كيسون أنه على درجة كبيرة من الذكاء. فقد سلمني بعد محاكمة مكسيموس صور مستندات عديدة أمكنه أن يحصل عليها من داخل أرشيف مكتب المخابرات البريطاني بعد اتفاقه على التعاون معنا. كان من هذه المستندات والوثائق الأدلة الكافية على خيانة عدد كبير من جواسيس مصريين يعملون في أماكن حساسة تحوي أسرارا مهمة للدولة. وكان أغلبهم في إدارة المباحث العامة، في بعض قيادات رئاسات أسلحة الجيش. وكان من أخطرها قسم التسليح بالسلاح البحري المصري بالإسكندرية، تم اعتقالهم جميعا وحوكموا وصدرت عليهم أحكام مختلفة. بعضها مخففة، وبرئ البعض منهم واستبعد البعض من العمل في الأماكن الحساسة.

بعد أن تمت محاكمة الخائن (مكسيموس) بالقاهرة عدت للعمل بمكتب الإسماعيلية، وفوجئت بأن المباحث العامة بالإسماعيلية قد قاموا بالقبض على المدعو محمود العدوي ورحلته إلى القاهرة ليحاكم أمام محكمة الثورة بتهمة الخيانة.

ولما كان محافظ الإسماعيلية قد سلم لي هذه القضية من بدايتها وكنت أنا المسئول عن السير فيها، ولم تكن حلقاتها قد استكملت بعد لإمكان إثبات تهمة الخيانة على المتهم بالأدلة المادية المذكورة، فقد عجبت لذلك ولم أشأ أن أتدخل في الموضوع على أساس احتمال قيام المباحث العامة باستكمال حلقاتها؛ ولكن في مساء ذلك اليوم اتصل بي تليفونيا السيد زكريا محيي الدين فكان بالإضافة لكونه مديرا للمخابرات يقوم بعمل كمدعي عام في قضايا محكمة الثورة. وطلب مني مقابلته بالمنزل في صباح اليوم التالي لأهمية الموضوع.

وكانت قضية محمود العدوي تتلخص في الآتي: في أحد الأيام حضر لي في مكتبي بالإسماعيلية وكيل المحافظة علي عفيفي ومعه ضابط صغير يعمل في المباحث الجنائية بديوان المحافظة (مجدي) وأبلغني أن هناك مواطنا مصريا يدعى محمود العدوي يقيم في منطقة فايد المتاخمة للمعسكرات البريطانية هناك. وليس له أي عمل ظاهر يتعيش منه. زار العدوي هذا الضابط (مجدي) في مكتبه بالمباحث الجنائية. وبعد حديث طويل معه أغراه بأنه يمكنه تسليمه مبلغا كبيرا من المال إذا ما قام هذا الضابط وحصل للعدوى على خطاب أومستند رسمي من المحافظة أو مديرية الأمن أو من المباحث يكون فيه ما يدل على أن مكتب مخابرات الإسماعيلية هو الذي يدير عمليات مقاومة الجيش البريطاني بكل أنواعها، وكذا الاعتداءات على الجيش البريطاني في محافظة الإسماعيلية، وأفهم العدوي الضابط (مجدي) أن هذه العمليات لحساب أحد ضباط المخابرات البريطانية وأنه سيقابله به في منزله لإجراء هذا الاتفاق. وقام الضابط بتبليغ ذلك إلى وكيل المحافظة الذي كلفه بمسايرة العدوي وقام وكيل المحافظة بإحضار الضابط مجدي ومعه قضيته لي للتصرف وأبديت استعدادي لتولي هذه القضية وزودت الضابط مجدي بجهاز تسجيل صغير

يسهل إخفاؤه واستخدامه لتسجيل ما قد يدور من أحاديث أثناء اجتماعه مع محمود العدوي وضابط المخابرات البريطاني على ضوء ما يسجل يمكن الوقوف على أبعاد القضية على أن يوالينا أولا بأول عن كل اجتماع سواء مع العدوي وحده أو مع العدوي وضابط المخابرات، من كل التسجيلات قام الضابط (مجدي) بزيارة محمود العدوي في مسكنه واجتمع معه منفردا وسجل له حديثا لم يتعد ما قصه علينا قبل ذلك، وتوقفت القضية عند هذا الحد وكنت وقتها منشغلا في قصة (مكسيموس).

مقابلة المدعي العام لمحكمة الثورة

قابلت زكريا محيي الدين بمنزله حسب الاتفاق قبل أن يتوجه مباشرة إلى محكمة الثورة، وذلك في صباح اليوم الذي كانت ستنتهي فيه محاكمة محمود العدوي. بادرني زكريا محي الدين بسؤال محدد: «هل المتهم محمود العدوي يعتبر في نظرك خائنا حسب ما لديك من خيوط هذه القضية؟

أجبته في الحال وبدون تردد: «كلا لأنه لا يمكن أن يحاكم العدوي على تهمة الخيانة بخصوص اتصاله بضابط المباحث الجنائية (مجدي) لأنني شخصيا لم يصلني أي تسجيل لحديث له يدل على الخيانة».

وأستأنف زكريا محيي الدين كلامه قائلا: « ولكن لقد تم تسجيل حديث للضابط معه في منزله وهو يطلب فيه من الضابط تكليفه بالحصول على الخطاب».

وأجبته: «مادام لم يتم تسجيل حديث بين الاثنين وبين ضابط المخابرات البريطاني والذي يمكن أن يدل على تواطؤ العدوي مع ضابط المخابرات البريطاني. فإن أركان الجريمة تكون غير قائمة، وإن رأيي ألا يحاكم محمود العدوي على تهمة الخيانة لأن الجريمة لم تحدث». وقلت له: «يمكن سؤال الضابط (مجدي) في شهادته في المحكمة عما إذا كان تقابل مع العدوي بحضور ضابط المخابرات البريطاني. وعلم منه أو سجل له أي كلام يدل على التواطؤ مع العدوي، فإذا كان رده بالنفي فليس هناك أي جريمة أو تهمة خيانة، ويجب أن يحكم ببراءته.

انتهت المقابلة عند هذا الحد وتركت زكريا محيي الدين وهو يهم بركوب السيارة متجها إلى محكمة الثورة .

وتخلفت في القاهرة حتى يمكنني التحقق من حكم البراءة ولكن صدر الحكم على محمود العدوي من محكمة الثورة بعشر سنوات أشغال شاقة ، وتأثرت من هذا الحكم ، وبلغني أن محمود العدوي بالسجن الحربي يطلب مقابلتي ، فقابلته وفوجئت به يشكرني لأنني أنقذته من حبل المشنقة ، ولم أعرف كيف بلغه موقفي .

واتضح لي أنه راض عن الحكم لأنه ارتكب أخطاء ، قد يكون هذا الجزاء من أجل هذه الأخطاء .

التحرش السافر رغم تقدم مفاوضات الجلاء

بعد عدة أيام من إعلان محاكمات شبكات الجواسيس التي كانت تعمل مع المخابرات البريطانية بالقنال . توقعت أن يكون هناك تحرش من البريطانيين بمكتب المخابرات المصري ولذلك كنت أوصي كل من يدخل المكتب أو يخرج منه من المندوبين أو الفدائيين أن يكون مسلحا ، علاوة على وضع وتنفيذ خطة حراسة مكثفة بشكل ظاهر تعمدت أن تصل أخبارها للمخابرات البريطانية .

وفي يوم كنت أركب عربة جيب عسكرية تابعة لمكتبنا يقودها الزميل كمال رفعت ومعنا الزميل سعد عفرة وثلاثة فدائيين آخرين وكلنا مسلحون . كنا في طريقنا إلى القاهرة عندما اتخذنا الطريق الموازي للترعة لنعبرها إلى الطريق المؤدي إلى القاهرة ، وفوجئنا بنقطة تفتيش بريطانية وضعت فجأة قبل الكوبري . وكانت تقوم بتفتيش إحدى عربات الجيش المصري وكانت تسبقنا ويقودها السائق بمفرده . أوقفنا عربتنا قبل نقطة التفتيش البريطانية لأننا توقعنا التحرش بنا ، فنزلت ومعي الثلاثة الفدائيين بأسلحتهم واتخذنا مواقع حاكمة على نقطة التفتيش البريطانية ، وذلك بعد أن أختفينا في الأعشاب على جانبي الترعة . واستمر كمال رفعت وسعد عفرة في السير بالعربة إلى أن أوقفهما جنديان بريطانيان بأسلحتهما عند نقطة التفتيش وطالباهما بمغادرة العربة لتفتيشها ، وضع كمال رفعت يده على زناد مدفعه الرشاش ، بينما قال سعد عفرة للجنود : نحن ضباط مصريون ولا يجوز تفتيشنا

وهو قابض على مدفعه لإيضاح أننا سنقاومهم، ذهب الجندي إلى رئيس الموقع الذي جاء إلى العربة وسمح لها بالمرور. وكانت المفاجأة أن العربة لم تتحرك، فكرر السماح بالمرور وإذا به يرى أربعة مسلحين قادمين من جانب الترعة وقال له كمال رفعت لا شك أنها كانت ستصبح معركة حامية لو منعتمونا أو قمتم بالتفتيش.

عملية خطف العسكري البريطاني «ريجدن»

قام طاقم من مجموعة الفدائيين باستدراج أحد الجنود من بار في الإسماعيلة، وعندما هموا بإرغامه على ركوب عربتهم قاوم بعض الشيء ولاحظ ذلك جندي بوليس حربي بريطاني فأطلق طلقا ناريا على العربة بعد أن تحركت وأصابت الطلقة جسم العربة دون أن تصيب أحد الأفراد. وأبلغ جندي البوليس الحربي القيادة البريطانية في القنال وفي سرعة صدرت الأوامر للقوات البريطانية بمحاصرة جميع الطرق لمخارج الإسماعيلية وتفتيش جميع العربات المغادرة لها.

وأنا بالمكتب وخالي الذهن تماما من كل ما حدث جاءتني مكالمة تليفونية من إحدى قواعد تدريب الفدائيين وهي عزبة الأستاذ حسين فهمي المحامي في القصاصين وكانت خارج نطاق الحصار المضروب على الإسماعيلية. أبلغني أنه حضر إليه ثلاثة من الفدائيين المعروفيين له ومعهم جندي بريطاني اختطفوه من أحد البارات ويريدون قتله ودفنه بعزبته. أصدرت أوامري إليهم عن طريقه بعدم قتله والنزول بعربتهم ومعهم الجندي المختطف حيا إلى رئاسة المخابرات بالقاهرة رأسا وألا يستعملوا أية أساليب عنف معه، وسلموه هناك. تصاعد الموقف البريطاني بسرعة غير عادية، وقبل أن تتخذ القاهرة قرارها بشأن الجندي المخطوف، أصدرت القوات البريطانية إنذارا رسميا لمحافظ الإسماعيلية لتبليغ السلطات المصرية «أنه إذا لم يسلم الجندي المختطف ر يجدن إلى القيادة البريطانية قبل الساعة ٨ مساء اليوم التالي سيتم احتلال مدينة الإسماعيلة الإسماعيلية بكل مرافقها للبحث عن ريجدن».

ولما كنت متأكدا بأن الحكومة سوف ترفض الإنذار، فقد قمت بعمل خطة سريعة مع الزميل عمر لطفي للدفاع عن مدينة الإسماعيلية، وجمعت أكبر عدد

ممكن من الفدائيين، كما تطوع جمع كبير من شعب الإسماعيلية وأبدوا كامل الاستعداد للاشتراك في الدفاع عن مدينتهم.

وذهبت لمقابلة فضيلة الشيخ محمد فرغلي رئيس الإخوان المسلمين بالإسماعيلية للمشاركة بشباب الإخوان في الدفاع عن المدينة، إلا أنه رفض وأخذ ينتقد عملية خطف الجندي البريطاني «ريجدن» وأكد أنه لم يكن لها أي مبرر أو معنى فشكرته على ذلك، وانصرفت في الحال.

وفي فترة زمنية قصيرة من صباح يوم الإنذار كان جميع أفراد المقاومة الشعبية بأسلحتهم في أماكنهم الدفاعية عن المدينة.

وقبل موعد نهاية الإنذار بزمن قصير ـ وكنت أستمع إلى إذاعة القاهرة ـ إذا ببيان من الحكومة المصرية يلقيه صلاح سالم وزير الإرشاد القومي آنذاك وعضو مجلس قيادة الثورة، ترفض فيه مصر الإنذار البريطاني. وبعد إذاعة البيان، اتصل بي الشيخ محمد فرغلي. تراجع وأبدى استعداده وشباب الإخوان، للدفاع عن المدينة وباركت ذلك، وكلفته بإعطاء التعليمات لشباب الإخوان. بالنزول إلى الخطوط الدفاعية، المخططة شعبيا بمدينة الإسماعيلية.

ويبدو أن جواسيس البريطانيين نقلوا للسلطات الإنجليزية مدى استعدادات وقوة المقاومة الشعبية المصرية حول المدينة، كذلك كان لرفض الحكومة المصرية لذلك الإنذار بهذه الصلابة، تأثيره الفعال على العقلية البريطانية، فقد صرفوا النظر عن احتلال المدينة كما جاء بإنذارهم لتوقعهم المقاومة العنيفة من أهالي الإسماعيلية.

وفي عملية مخطط لها ومحسوبة، قامت المخابرات المصرية بتزويد ريجدن بالملابس المدنية وجواز سفر باسم مزيف، وخرج من مصر برفقة أحد ضباط المخابرات إلى دولة أوروبية، ومن هناك عاد إلى بلده إنجلترا وأذاع من الإذاعة البريطانية بيانا بحسن معاملة المصريين له.

الحرب النفسية

بجانب أعمال المقاومة العنيفة التي يصحبها تبادل إطلاق النيران وبعض الخسائر في الأرواح، كان هناك أيضا نوع آخر استمر من بدء عمليات المقاومة إلى آخر يوم،

وكان أثره فعالا برغم أنه لا ينتج عنه أية خسائر في الأرواح ألا وهو الحرب النفسية التي تكلف العدو الكثير من الخسائر المادية. والأخطر من ذلك ما تسببه لنفسية جنود الاحتلال من انهيار عصبي وشعور بالقلق وعدم الاطمئنان. وقد مارسنا هذا النوع من أنواع المقاومة بأسلوب دقيق ومتقن ومدروس من بدء العمل الفدائي إلى يوم توقيع اتفاقية الجلاء.

أ ـ حرمان جنود القاعدة من صحافة يوم الأحد والمواد الغذائية

كانت صحافة يوم الأحد ولا تزال لها وضع خاص لدى كل بريطاني، وفي تلك الأيام في قاعدة القنال كانت صحافة يوم الأحد هي وسيلة الجندي البريطاني الوحيدة تقريبا التي تحافظ له على صلته بناديه الرياضي وحياته الاجتماعية. وقد قررنا بناء على ذلك أن النجاح في حرمان البريطانيين الموجودين بقاعدة القنال من الحصول على صحافة يوم الأحد قد يضيف شيئا من الضيق النفسي لمجموع البريطانيين الموجودين، وكان الجيش البريطاني يعتمد في الحصول على هذه الصحف من مكاتب التوزيع المصرية فتمكنا بعد الدراسة أن نوقف وصول هذه الصحف إليهم. وفي حالة انصراف الجيش البريطاني عن قنوات التوزيع المصرية أصبح إحضار الصحف خصيصا للقاعدة يكلفهم الكثير.

وقد مارسنا مثل هذه العمليات المزعجة والمكلفة أيضا بحرمانهم من كثير من مواد التموين التي كانوا يعتمدون على السوق المصرية في إحضارها لهم.

ب ـ أساليب أخرى للحرب النفسية

تمكنا خلال هذه المرحلة من جمع معلومات مسبقة عن أماكن الترفيه التي يقيمون فيها حفلاتهم الساهرة وتواريخ ومواعيد هذه الحفلات مثل ليالي عيد الميلاد ورأس السنة، بالإضافة إلى أماكن حفلات السينما ولذلك تم القيام باستكشاف لطرق الاقتراب من هذه الأماكن والمناطق المحيطة بها والحاكمة عليها من خارج معسكرات الجيش البريطاني. فكنا نقوم باحتلال هذه المواقع الحاكمة بأفراد قلائل من الفدائيين الذين تم تسليحهم بأسلحة أتوماتيكية سريعة الطلقات.

وفي الوقت الذي يبلغ فيه البريطانيون أعلى مراحل النشوة والاستمتاع يقوم الفدائيون بإطلاق نيران أسلحتهم على زجاج النوافذ والمصابيح الكهربائية لأكشاك الحراسة من الخارج والمصابيح الكهربائية بالداخل مع الحرص على عدم إطلاق النيران على الأفراد حتى تكون مثل هذه العمليات ذات طابع خاص، للإزعاج فقط فينفض الحفل في الحال، فتنطلق صفارات الخطر. وقبل أن تخرج الدوريات للاستطلاع والمطاردة ننسحب فى أمان تاركين المحتفلين والساهرين والساهرات في حالة نفسية مزعجة.

جـ ـ عمليات التخريب

من الطريف أننا تمكنا من القيام بعمليات نسف وتدمير عديدة ضد المنشآت البريطانية بواسطة الأقلام الزمنية التي حصلنا عليها عن طريق السطو على مخازن وقطارات البضائع التابعة للجيش البريطاني من التل الكبير، وكان استخدام هذه الأقلام الزمنية بواسطتنا هو الاستخدام الأول لها في مصر وضد أصحابها الأصليين. فتمكنا بواسطة هذا السلاح الجديد من تدمير مستودعات الذخيرة والبنزين والمهمات وطرق مواصلات الجيش البريطاني دون تواجد أفراد الفدائيين عند حدوث الانفجارات. وكنا قبل الحصول على الأقلام الزمنية نعتمد على الطريقة البدائية المبتكرة بوضع شمعة مشتعلة في علبة صفيح صغيرة بها بعض البنزين.

د ـ المنشورات

كان هناك طاقم فني متخصص في عمل المنشورات سواء من الفنيين المتخصصين في الرسوم الكاريكاتورية أو في الصياغة الإنجليزية التي تخاطب العقلية البريطانية، يكتبها مصريون عاشوا شبابهم في إنجلترا، ويتم كل ذلك في شركة النيل للإعلان ومنهم السيد على زين العابدين والد الشهيد جواد حسني وتحت إشراف الزميلين وجيه أباظة وجمال الليثي. (نموذج من هذه المنشورات في آخر الكتاب)

ونقوم نحن في منطقة القنال بواسطة شبكة المندوبين المصريين والفلسطينيين والأجانب المنتشرة في القاعدة البريطانية بتوزيع هذه المنشورات

التي كانت تخاطب جنود وضباط الشعب البريطاني وتذكرهم بعدم جدوى الاستمرار في احتلال مصر معرضين أنفسهم للمتاعب وعدم الاستقرار والقتل .

وقد وصل أمر توزيع هذه المنشورات لدرجة أن زوجة القائد العام البريطاني للقاعدة انتابها الذعر حين عثرت على أحد المنشورات تحت وسادتها في غرفة النوم؛ مما دفع القائد العام البريطاني لاجتماع مع السيدات الزوجات لرفع معنوياتهم ولكنهم تذمروا لعدم الاطمئنان في غرف نومهم وقالوا إنكم تقيمون وسط شعب يكرهكم وأمكنا الحصول مع وثيقة من داخل مكانهم تذكر ذلك .

ختام الكفاح

وفي مساء ٢٧ يوليو ١٩٥٤ وكنا عائدين من السويس إلى الإسماعيلية في عربة يقودها الزميل كمال رفعت ومعه سعد عفرة واثنان زملاء كمال رفعت هما الفدائيان : عباس شوقي وضياء حسنين . وبعد استلامنا صورة من وثيقة مهمة من مكتب السويس ، عبارة عن تقرير عسكري بريطاني عن الإجراءات البريطانية التي سيتخذونها في القاعدة إذا ما تمت عملية المفاوضات وإلى حين الجلاء الكامل ، وضعنا هذه الوثيقة في مظروف تحت المقعد الخلفي للعربة . وكقاعدة عامة كنا جميعا مسلحين ، اتخذنا طريقا فرعيا عند أبي سلطان في الصحراء حتى نتحاشى نقط التفتيش البريطانية خوفا على الوثيقة . فوجئنا بأنوار قوية تضاء فجأة في مواجهتنا صادرة من عربة دورية بريطانية . توقفنا بإشارة من أحد الجنود البريطانيين يعلق سلاحه (البندقية) على كتفه . نزلنا نحن الثلاثة كمال رفعت وسعد عفرة وأنا وانتظر في المقعد الخلفي بالعربة الاثنان الآخران . وكان بالعربة البريطانية جنديان آخران لم يظهر أي سلاح معهما . تركنا الجندي البريطاني المترجل واقفين واتجه إلى عربتنا وعند ذلك تكلم كمال رفعت وأشار لنا بالاستعداد للمقاومة وتفاهمنا على توزيع الأدوار بالإشارات بيننا نحن الثلاثة وأننا سنتعامل مع الجنديين الجالسين في العربة إذا قام الجندي المترجل بتفتيش العربة وعلي عباس شوقي وضياء حسنين قتله في الحال إذا حاول إرغامهما على النزول من العربة للتفتيش . نظر الجندي البريطاني داخل العربة في الكرسي الأمامي وخاطب عباس وضياء ثم قال فجأة

وبصوت عال مخاطبا زميليه في العربة البريطانية O.K (لا شيء هناك) واستأنفنا الرحلة إلى الإسماعيلية بأعصاب مشدودة من الموقف المفاجئ خصوصا وأننا كنا نريد أن نضع هذه الوثيقة أمام المفاوض المصري لأن بها تقديرا للموقف البريطاني يقول «إنه لا فائدة من القاعدة عند قيام حرب وسط شعب معاد يقاومنا بهذه الضرواة».

ولم يعد سرا أنه قد جاء بالوثيقة أيضا أنهم كانوا سيعتمدون على المماطلة في الجلاء حتى بعد توقيع الاتفاقية على أساس أنهم يتوقعون خلافات بين أعضاء مجلس قيادة الثورة بعد ذهاب محمد نجيب.

وفي نفس اليوم مساء عندما وصلنا إلى مكتب المخابرات بالإسماعيلية، وكنا نستمع إلي أنباء الثامنة منساء أعلن المذيع عن إتمام التفاهم على جلاء الجيش البريطاني عن مصر نهائيا نتيجة المفاوضات وأن التوقيع الأولي على الاتفاقية قد تم في ذلك اليوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤.

مقاومة اتفاقية الجلاء

بعد إبرام اتفاقية الجلاء ظهرت في مصر بعض العناصر المتبرمة من الاتفاقية، خصوصا من البنود الخاصة بموافقة الجانب المصري على وجود قاعدة بريطانية بجميع معداتها ومخازنها في منطقة القنال يديرها عدد محدود من البريطانيين في ملابسهم المدنية وكذا من البند الخاص بإعادة النشاط للقاعدة في حالة نشوب الحرب أو في حالة اشتراك تركيا في حرب. انعكس هذا الرفض في منطقة القنال واستمرت عناصر الرفض ـ وكان معظمها من الإخوان المسلمين ـ في إحداث قلاقل في منطقة القنال كما تم نسف بعض الكباري والطرق. وكان رد الدولة حاسما باعتقال الفاعلين.

الغطاء والتدريب

لأجل الغطاء في عملي بالسودان كمراسل صحفي فقد قمت بتقديم طلب للعمل في دار الجمهورية وشركة للإعلانات المصرية وصار تعيني فيها، وقد وضع لي

برنامج تدريب دقيق لأجل أن ألم بأعمال المراسل الصحفي ومندوب شركة إعلانات، وقام بتدريبي مع شخص آخر متخصص في الإعلانات وآخر في الصحافة ومررت بأقسام الإعلان بجميع فروعها ثم بأقسام التحرير ثم التوزيع، وأصبحت في خلال شهرين جاهزا للعمل تحت هذا الغطاء وصار استخراج بطاقة صحفية بنفس اسمي وبطاقة Press Collect أيضا.

مراسل صحفي في السودان

بعد التوقيع على اتفاقية الجلاء في ٢٧/ ٧ / ١٩٥٤ انتهت أعمالي في مكتب مخابرات الإسماعيلية، وعدت للعمل بالقاهرة وهناك علمت أن مهمتي القادمة هي العمل في السودان وأنني سأعمل كمراسل صحفي لجريدة الجمهورية ومندوبا لشركة الإعلانات المصرية التابعة لدار الجمهورية.

وقبل توجهي إلى السودان أمضيت شهر ديسمبر سنة ١٩٥٤ في التعرف على شخصيات مهمة، تعمل في السودان ولكنها كانت في مصر حينذاك بسبب مأموريات أو إجازات. من أهم هذه الشخصيات حسين ذو الفقار صبري عضو مجلس السيادة بالسودان والمرحوم الأستاذ عبد العزيز السيد وكان وقتها يشغل منصب المدير المصري لجامعة الخرطوم قبل أن يصبح وزيرا للتربية والتعليم وهو أصلا أستاذي في العلوم الرياضية بالكلية الحربية، كما تعرفت إلى الأستاذ صلاح محمد علي مدير وكالة الأنباء العربية بالخرطوم وغيرهم ممن أفادوني كثيرا في تسهيل عملي الصحفي والسياسي في السودان بعد ذلك.

ومن خلال دراساتي ومقابلاتي وأحاديثي التي قمت بها تمكنت من وضع ملخص للموقف العام في السودان وعلاقاته بمصر.

وعلى أعتاب توجهي إلى السودان كانت عوامل كثيرة تعمل ضد صالح مستقبل العلاقات بين مصر والسودان.

فالحزب الوطني الاتحادي (حزب الأزهري ونور الدين) وهو حزب الأغلبية البرلمانية تنكر لمبدئه وهو الوحدة مع مصر وأصبح ينادي بالانفصال عن مصر أملا في الاستقلال كلية. ونظام الحكم المصري لا يحظى في السودان برضاء أحزاب

الأغلبية ولا أحزاب الأقلية، وكذلك الرأي العام يؤيد الاتجاه الانفصالي لتأثره بتصرفات ثورة ٢٣ يوليو مع صديقهم الرئيس محمد نجيب. وبريطانيا تلعب دورا مستترا في محاولة إقناع الرأي العام السوداني بأن أفضل الحلول للسودان هو الحصول على استقلال مرتبط بالتاج البريطاني كالنظام، ولو في شكل بقاء الحاكم العام البريطاني الذي كان معمولا به في الهند. وكانت بريطانيا على اتصال وتعاون وثيق مع أتباع المهدي زعيم طائفة الأنصار وحزب الأمة.

وعلى ضوء هذا الموقف تحددت تفاصيل مهمتي وعلى رأسها الإجابة عن سؤال مهم جدا: هل هنالك أمل في الوحدة؟ أم انقطع الأمل تماما؟ كما كان عليّ أن أدرس جذور الوضع المتردي وموقف التيارات المختلفة ضد الوحدة وأسباب تلك الحقيقة وهي بالتحديد مواقف الأحزاب التي تنادي بالانفصال وتلك التي تنادي بالوحدة، وكذلك مواقف طوائف أتباع المهدي والخاتمية أتباع الميرغني.

ولكي أتمكن من الحصول على الإجابات الصحيحة لمهمتي كان لابد لي من تكوين دائرة واسعة من المعارف يكون لها اتصالات وثيقة وقريبة من معظم التيارات السياسية الموجودة في السودان. وفي أول يناير سنة ١٩٥٥ سافرت إلى الخرطوم بعد أن سبقني إلى هناك مساعداي، صديقي زميل الدراسة محمد غالب وكان أبوه سودانيا ومساعدي الآخر عبد الفتاح فرج وهو مصري، وأصلا من قبيلة الدنكا بجنوب السودان.

وعند وصولي للخرطوم توجهت لزيارتهما وكانا قد أقاما بفندق يملكه رجل سوداني خفيف الظل وشهرته (كيشو). وكان الفندق ملتقى الشباب المثقف في الخرطوم فهو مكانهم المفضل وخاصة اليساريين السودانيين. كما كان المكان المفضل لإقامة أعضاء البرلمان الجنوبيين.

وتوطدت علاقاتي بعدد كبير من شباب السودان المثقفين ومعظم السياسيين الجنوبيين والكثير من عناصر الحزب الوطني الاتحادي الذين تمسكوا بمبدأ «الوحدة مع مصر ثم استطعت من خلال المعارف والأصدقاء المقربين توسيع دائرة معارفي أكثر لتشمل عناصر الجناح الموالي لمصر (جناح نور الدين) داخل الحزب الوطني الاتحادي وتمكنت من التعرف إلى بعض أعضاء البرلمان

الشماليين والجنوبيين وكذلك شملت دائرة معارفي العديد من المصريين خاصة المدرسين، ومهندسي الري.

وكانت هذه الدائرة الواسعة المعارف مصدرا مهما لمعرفة حقيقة الأوضاع بالسودان، وبعد فترة أخرى وجيزة توطدت علاقاتي وصداقاتي بكثير من العناصر السياسية السودانية الذين كانت لهم مواقف معادية من الوحدة مع مصر، ولذلك فقد كانوا في كل المناسبات يعبرون ـ بصدق ـ عن حبهم لمصر وللمصريين. وكنت أعجب لذلك في بادئ الأمر حتى نبهتني الواقعة التالية، التي عبر فيها الشعب السوداني ـ تلقائيا ـ عن ذلك التناقض.

واقعة سينما الخرطوم

حضرت في إحدى الأمسيات عرضا سينمائيا بإحدى دور العرض بالخرطوم وحين عرضت الجريدة الإخبارية الناطقة في بداية العرض، ظهرت ملكة بريطانيا في إحدى الفقرات وفي إحدى المناسبات البريطانية، وكانت تمتطي صهوة جواد من خيول الحرس الملكي المطهمة وترتدي ملابس الحرس الملكي الملونة الفخمة فتؤدي التحية العسكرية للحرس المصطف أمامها في خشوع ونظام. عند ذلك ضجت قاعة السينما المحتشدة بالشعب السوداني، وأخذوا يصفقون أثناء هذه اللقطة تصفيقا شديدا ويهمهمون استحسانا، وتلت هذه الفقرة أخرى ظهر فيها جمال عبد الناصر وهو يخطب في الجماهير المصرية وركزت الجريدة الناطقة الأجنبية عليه وهو في حالة عصبية ظاهرة ويضرب بيده على المنصة بحماس فما كان من نفس الجمهور السوداني إلا أن ضج بالأصوات المعادية والسخرية لمرأى عبد الناصر.

كان هذا رد فعل تلقائي لا يعبر عن حب أو سخط الشعب السوداني لبريطانيا أو مصر، ولكنه انعكاس صادق لمدى ما صنعه الاستعمار البريطاني في نفسية الشعب السوداني بحيث شوه العلاقة الأخوية المصرية السودانية.

الرجوع إلى التاريخ

بعد هذه الواقعة راجعت تصرفات مجموعة الأصدقاء السودانيين وبخاصة العناصر السياسية، وقد تأكدت أن هناك تناقضا في جذور الفرد والشعب

السوداني. ثمة أحداث تاريخية على مدى الزمن منذ الوجود المصري في السودان حفرت بعمق في هذه العلاقة التاريخية وتركت آثارا طيبة وأخرى سيئة، كما أن هناك أسبابا تاريخية مفتعلة تسبب فيها أحد الأطراف الخارجية وهو الذي طرأ على الوجود المصري بالسودان ـ وأعني الاحتلال البريطاني لمصر والسودان ـ لذلك تفرغت كلية لقراءة تاريخ السودان الحديث منذ حملة محمد علي باشا على السودان سنة ١٨٢٢. وكان ما أثارني في هذا المجال سرعة التحول للرأي العام السوداني من تأييد شبه إجماعي للوحدة مع مصر عقب إبرام اتفاقية السودان في ١٢/ ٢/ ١٩٥٣، إلى موقف شبه عدائي لمصر وللوحدة وقبل مضي أقل من سنتين على هذا التأييد.

القوى المؤثرة في المجتمع السوداني

عبر تاريخ السودان منذ حملة محمد على باشا حتى تاريخنا المعاصر كانت تلك القوى وما زالت حتى وقت وجودي بالسودان هي:

أولا: الطوائف الدينية والتي توطد نفوذها من خلال موجة دخول الطرق الصوفية إلى السودان على أجنحة الدعوة الإسلامية.

ثانيا: الوجود المصري الأخوي في السودان منذ حملة محمد علي.

ثالثا: التيارات والتنظيمات والأحزاب السياسية التي أخذ دورها في الوضوح والتكوين لفرض وجودها بجانب الطائفية ذات الجذور العميقة في المجتمع السوداني.

رابعا: الاحتلال البريطاني لمصر والسودان.

أولا: الطوائف الدينية

انتشر الإسلام في السودان عن طريق الطرق الصوفية. وحتى وقت حملة محمد علي، كانت الطرق الصوفية في السودان هي البديل للحكومات المركزية، حيث كانت تجمع بين السلطتين الدينية والإدارية.

وقد دخل التصوف إلى السودان على يد الشريف أحمد أبو دنانة، وبدأ من بربر ثم تعددت بعد ذلك مختلف الطرق الصوفية وكان من أبرزها في هذا العصر :

الطريقة الإدريسية

كانت هذه الطريقة أكثر الطرق الصوفية تأثيرا في السودان والذي أدخلها هو السيد أحمد بن إدريس الفاسي دون أن ينزل أرض السودان. وكان من أبرز تلاميذه محمد عثمان الميرغني سنة ١٨٥٣ ـ ١٨٧٣ وهو الذي كون الطريقة (الختمية) والتي انتشرت في شمال وشرق السودان (الميرغنية).

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى تطوع علي الميرغني زعيم الختمية بتوقيع وثيقة ولاء لبريطانيا ونشرت في عدد خاص من جريدة (السودان تايمز) (٤ أغسطس سنة ١٩١٥) ووقعها معه الشيخ محمد مصطفى الميرغني والسيد الشريف يوسف الهندي جاء فيها «إننا شهدنا عيانا ما كان يجري فيما سلف مدة الأتراك (يقصد المصريين) من الجور والفجور والاستبداد في الأحكام بدوام الظلم والتنكيل والتمثيل والقلاقل والإهلاك والإهانة وحكمنا الأتراك (لم يدخل السودان عسكري تركي إطلاقا) والدراويش (هذا التعبير ـ الدراويش ـ أشاعه البريطانيون لأن محمد أحمد السيد كان يعارض بشدة تسمية أنصاره بالدراويش لأنهم جنود فكر وعقيدة وليسوا جنود دروشة وغيبوبة وأحلام) وغيرهم فلم نجد عدلا مثل ولاة أمورنا الإنجليز الحاضرين الوفيين العاملين».

هذه الطريقة الختمية بحكم تعاليمها الدينية كانت تقوم على يد مؤسسها محمد عثمان الميرغني بدورها الديني، ومع تصاعد الاتصال الحضاري السوداني المصري من انتشار التعليم في السودان على يد الحكومة المصرسودانية والثقافة بواسطة المدارس العسكرية المصرية السودانية بالسودان والمتعلمين السودانيين بالأزهر، سايرت الطائفة الختمية النهضة الصاعدة وكان لها دور يتمشى مع سياسة الحكومة، وبالتالي حتمت عليها الظروف توطيد العلاقة مع مصر فيما قبل الثورة المهدية. وكان لها موقف سلبي من الحركة المهدية في بدء ظهورها ثم انقلب إلى موقف معادي للمهدية خوفا على مركزها الشعبي.

وبعد انتصار المهدي في معركة الجزيرة (أغسطس سنة ١٨٨١). أيدت المهدي وأخذت موقفا سياسيا محايدا مع مصر على أساس التمشي مع ما يؤكده المهدي من

أن حركته هي ثورة ضد الأتراك وجنود الأتراك الخاضعين للسيطرة البريطانية وفاة محمد أحمد المهدي تولي وزيره الأول الخليفة عبد الله التعايشي و أخوات المهدي وأسرته وأقاربه ضد التعايشي تطلعا لوراثة عرش المهدي وطم الدنيا انحاز علي الميرغني زعيم الختمية للتيار المضاد للخليفة وكانت الطائفة ا تسيطر على شرق السودان.

وعلى يد السياسة البريطانية انغمست الختمية في السياسة بعد هزيمة المهد المعارك الفاصلة في كرري (١٨٩٨).

وقامت بدور الانتهازية السياسية، وأيدت المحتل البريطاني ضد الخليفة مصر.

واستمرت الختمية في لعب هذا الدور الانتهازي، فعندما تخلى عنها الاس تماما، ووضع كل ثقله على عبد الرحمن المهدي - انقلب الميرغني مرة أخرى مصر سنة ١٩٥٣. وبعد عام ١٩٤٨ ظهرت في أفق القوة السياسية الصاع السودان، رغبة الكثير من السودانيين في الابتعاد عن الارتباط بمصر، وتن جهة وطنية لذلك، وسرعان ما ركب موجتها علي الميرغني وساندها. وأ عندما شرع محمد نجيب في حل قضية السودان دعا الزعيمين الطائفيين وز الأحزاب بالسودان للحصول على تأييد الجميع لفكرة تقرير المصير والاستفتا الوحدة أو الاستقلال.

حضر الجميع وراوغ علي الميرغني ولم يحضر. ولوح بأنه يبارك اتفاقية ال (١٢ فبراير سنة ١٩٥٣) ولكنه سرعان ما حركته الأصابع الخفية، ووقف حكومة الأزهري الخاضعين للختمية موقفا معاديا للوحدة بصورة سافرة، ثم الأزهري بعد ذلك بموقف سلبي من عملية تقرير المصير، وفي الوقت نفسه مباركا لعملية الانفصال!

الطريقة السمانية

أدخلها إلى السودان أحمد الطيب البشير، وعندما تولاها حفيده محمد ا الدايم كان أستاذا للإمام محمد أحمد المهدي الكبير، وعرفت بعد ذلك الطريقة المهدية.

بالإضافة إلى هاتين الطريقتين البارزتين، كانت الطرق المجذوبية، والقادرية، والشاذلية، والإسماعيلية. وجميع هذه الطرق الصوفية هي التي حفظت ونشرت الإسلام في السودان. ومع زيادة التدخل الاستعماري في مصر في أواخر عصر إسماعيل باشا انعكس ذلك على الوجود المصري في السودان.

المهدية

أخذ محمد أحمد المهدي منشئ الطائفة المهدية يواجه هذا الخط بالثورة على القهر والذل وهذا ما اعتبره التدخل الاستعماري في مصر في أواخر عصر إسماعيل وأوائل عصر توفيق تمردا مما جعل مصر المغلوبة على أمرها ترسل الحملات العسكرية المتتالية للقضاء على هذه الثورة (وكانت هذه الحملات ترسل إلى السودان تحت قيادة الضباط البريطانيين والأجانب. ويصرف عليها من أموال مصر) وكانت الطريقة أو الطائفة المهدية تقوم وحدها بهذا الدور إلى أن تحقق أول انتصار لها على قوات الحكومة في معركة الجزيرة في ١٢ أغسطس سنة ١٨٨١، فلفتت الأنظار إليها لأنها حققت كل ذلك تحت راية الجهاد فآمنت بالثورة المهدية كل الطوائف والملل داخل السودان حتى القبائل الوثنية بالجنوب وتوحد الشعب السوداني تحت راية الجهاد.

وتفجرت أحداث ثورة عرابي في مصر فتجاوبت الثورة المهدية مع كفاح عرابي، وخاصة عندما قام شيخ الأزهر الشيخ محمد عليش بإدانة الخديو توفيق بالخيانة. وأصدر فتوى بخلع الخديو وعرف أن المهدي قبل وفاته كان أصدر أمره بحملة تتوجه إلى مصر لتحريرها (٢٦ مايو سنة ١٨٨٥) وهو ما فعله خليفته عبد الله التعايشي. وقد وصلت جيوش الخليفة إلى جرجا بمصر كما أن محمد أحمد المهدي طلب إلى أعوانه المحاصرين للخرطوم بأن يأتوا بالقائد البريطاني جوردن حيًّا إذا وقع في أيديهم أسيرا ليفتدي به البطل المصري المنفي أحمد عرابي».
ويستمر الثائر المسلم محمد أحمد المهدي في رفع راية الجهاد حتى وافته المنية بعد أربع سنوات من الكفاح وبعد تحرير الخرطوم بخمسة شهور فقط حقق فيها استقلال السودان لمدة ١٣ سنة تقريبا، وأثبت عن جدارة أنه قام بثورته لتخليص المستضعفين من القهر والظلم والتخلف.

الخليفة عبد الله التعايشي

وقبل وفاة الثائر محمد أحمد المهدي بمدة قصيرة كان أحس بخطورة أقاربه وإخوته وطمعهم في وراثة دعوته وكفاحه لأجل المغانم فقط، خصوصا بعد ما تكشف له تواطؤهم مع حارس بيت المال أحمد سليمان. أعلن (أنه بريء منه) تبرؤه منهم وبايع وزيره وقائده الأول عبدالله التعايشي. وبعد وفاته سنة ١٨٨٥ تحرك الحقد والغيرة وطمع الدنيا في نفوس أهل المهدي وعشيرته فانقلبوا ضد الخليفة التعايشي في الوقت الذي كانت فيه الثورة في أوجها. . ودارت معارك ضاربة بين الأشراف (عشيرة المهدي وإخوته) وبين الخليفة التعايشي، وبدل أن يركز الخليفة على الخط الخارجي بدد جهودا جبارة في مقاتلة الأشراف الذين ناصبوه العداء في مختلف أنحاء السودان وانضمت إليهم بعض الطوائف والقبائل، وكانت النتيجة الحتمية هزيمته على يد البريطانيين سنة (١٨٩٨) الذين لعبوا دورا حاسما في بذر بذور الشقاق داخل السودان ووقف الختمية منه أيضا موقفا معاديا بتأليب أطماعهم ضده.

هزيمة مشـــــرفة

حاصر الزحف البريطاني جيش الثورة المهدية بأحدث الأسلحة من الشمال والجنوب والشرق وفي مواجهة الأسلحة المتخلفة للثورة المهدية، وأخيرا سقطت فركة في ٧/ ٦/ ١٨٩٦، ثم دنقلة وعطبرة في ٨ أبريل سنة ١٨٩٨، وأخيرا كرري وهي المعركة الفاصلة في ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ وقام أبطال السودان فيها بخوض معركة ضارية وغير متكافئة بصدورهم وأسلحتهم المتخلفة بمشاركة الجماهير، وصمدوا حتى الرمق الأخير.

عبد الرحمن المهدي وفترة التنكيل

ولد عبد الرحمن المهدي بعد وفاة والده محمد أحمد المهدي باثنين وعشرين يوما فقط. لم ير والده الثائر ولم يتزود بتعاليمه وخلقه وتقشفه، وكانت سنوات طفولته هي سنوات الخلاف الحاد بين أهله والخليفة التعايشي.

امتلأت نفسه مرارة من السلطة الثورية كما عاصر استجداء أفراد أسرته لمرتباتهم

المتواضعة من الخليفة وشاهد أهله يدخلون السجون ويوضعون في القيود، ثم عاصر حملة الإنجليز الرهيبة بالتنكيل بأسرته بعد هزيمة الخليفة حيث أعدموا على مرأى منه عمه وأخواته الكبار وحرموا عليهم دخول معقل المهدية في (أبا) وشاهد بعينيه هدم الإنجليز لمقبرة والده والتمثيل بجثته وحرقها بعد فصل رأسه. وولد ذلك في نفسه اليأس من معاندة الإنجليز لأنه لا سبيل لمقاومتهم.

كان في شبابه يقيم في أم درمان ويتقاضى مرتبا من الحكومة خمسة عشر جنيها شهريا. وتبعا للمخطط البريطاني بعد تغير الظروف الدولية في أوائل أيام الحرب العالمية الأولى وكانت بريطانيا قد قضت تماما على مضمون الثورة المهدية.

كانت الأوضاع البريطانية الدولية والحربية تقضي باستمالة الطوائف السودانية الإسلامية بعد استئناسها، وتلاقت الأهداف البريطانية مع نفسية عبد الرحمن المهدي اليائسة وذهب عبد الرحمن المهدي للإنجليز بعرض خدماته وسمح له الإنجليز بالعودة إلى جزيرة (أبا) لضمان ولاء الشيوخ والعشائر ضد الدعاية التركية التي كانت تنادي بالجهاد ضد المستعمرين، وبعد نجاح عبد الرحمن المهدي في مهمته الإنجليزية أغدقوا عليه المال المغري بعد ما مارسه الإنجليز فيهم بالتنكيل والتشريد والحرمان. وأعطى الإنجليز عبد الرحمن المهدي ستمائة فدان ومبلغ ٤٥٠٠ جنيه كقرض ثم اعتبروه هبة في ١٩٢٦. وفي سنة ١٩٣٣ كان عبد الرحمن المهدي يمتلك ١٣ ألف فدان وجاء بأتباعه إلى الجزيرة لا ليتلقوا تعاليم الجهاد الإسلامي ولكن ليعملوا بالأجور الزهيدة في أرضه كعمال حتى بلغ عددهم في عام ١٩٣٣ حوالي ٤٥٠٠ عامل وتحول ابن الثائر إلى زعيم للثروة بدلا من الثورة.

المهـــد ختميـــــة

لم يقف المخطط البريطاني عند حد وخصوصا في غيبة من الوجود المصري المحتل بالإنجليز في بلده. فعندما دخلت تركيا الحرب مع ألمانيا وناشدت تركيا دولة الخلافة بإيعاز من ألمانيا بنشر دعوة الجهاد الإسلامي في الولايات التركية اسما والخاضعة للاستعمار البريطاني هادفة لإحداث القلاقل في المستعمرات البريطانية ذات الأغلبية المسلمة ومن ضمنها بصفة خاصة السودان. أسرع البريطانيون

بمواجهة المخطط الألماني التركي خوفا من تدهور الأوضاع في السودان وبالتالي في باقي مستعمراتهم الإسلامية، واستخدموا نفس الطوائف الدينية في السودان وعملوا على التقارب بين الطائفتين الكبيرتين في السودان الختمية والمهدية.

وأعلن البريطانيون عودة السيد علي الميرغني من سواكن، كوفئ هو الآخر بتخصيص مرتبات له ولعائلته ومنحه الأراضي الزراعية. وعاد ليبرز فضل المساعدات البريطانية وآلت ملكية جريدة «حضارة السودان» الناطقة بلسان السلطة البريطانية في السودان إلى زعماء الطوائف علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي والشريف يوسف الهندي على شكل شركة، وجاء في افتتاحية العدد الأول لهذه الجريدة: «أما سياستها الداخلية فستدور رحاها على ركن التوفيق بين الحاكم (البريطاني) والمحكوم الشعب السوداني». وفي مواجهة تجاوب الشعب السوداني مع ثورة مصر سنة ١٩١٩ أعلنت «صحيفة الحضارة» (يونيو سنة ١٩١٩) «أن وفدا من سراة البلاد سيتوجه إلى انجلترا لتهنئة الملك بانتصار إنجلترا في الحرب» (بعد أن انتهت الحرب بمدة) وفعلا ذهب الزعماء السودانيون إلى لندن لمواجهة الوفد المصري والذي يطرح «وحدة وادي النيل» وعبر وفد الولاء لبريطانيا «عن رغبتهم في انفراد بريطانيا بحكم السودان» وعليه أكدت بريطانيا على استبعاد السودان من القضية المصرية في تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢.

ثانيا: الحركة الوطنية وتخطي الطائفية

كان للوجود المصري الحديث في السودان ـ وبنفس القدر الوجود السوداني في مصر ـ أثر كبير في نمو الحركة الوطنية الحديثة في السودان بما عمله من فكر ووعي ثقافي وطني وسياسي. وساعدت الأزمات السياسية التي كان يفتعلها الاستعمار في مصر المحتلة والسودان المحتل إلى اشتعال جذوة الوطنية السودانية وإلى الخروج من التقوقع داخل الطرق الصوفية والطائفية التي أعلنت الولاء فجأة للمستعمر البريطاني بعد كفاح طويل واستقلال دام على يدها لمدة ١٣ عاما عندما اندلعت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ وذهب الوفد المصري إلى مؤتمر باريس للمطالبة بالاستقلال.

تجاوبت الحركة الوطنية السودانية الجديدة مع الثورة المصرية وقامت المظاهرات الصاخبة في السودان مطالبة بوحدة وادي النيل وكان على رأس المتظاهرين الضابط السوداني المتقاعد محمد أمين هديب.

عقب تصريح بريطانيا في ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ قامت جمعية «الاتحاد السوداني» وكان لأحد الضباط المصريين (محمد فتوح) علاقة بها وهو في الوقت نفسه كان صديقا للبطل الضابط السوداني علي عبد اللطيف وكانت هذه الجمعية تجمع المثقفين السودانيين ونظمت مظاهرة مطالبة أيضا بوحدة وادي النيل، وأحيل الضابط عبد اللطيف إلى المعاش وكون جمعية سرية جديدة اسمها «اللواء الأبيض» وكان من ضمن تنظيمها عدد كبير من موظفي البريد والتلغراف والتليفونات (حققوا سرعة الاتصال ونشر الدعوة الوطنية). وفي مواجهة التجمع الطائفي الاستعماري عند نشرهم وثيقة الولاء لبريطانيا، وتأكيدهم في هذه الوثيقة على اختيارهم لبريطانيا دون مصر. وقادت «اللواء الأبيض» المظاهرات ضد بريطانيا والطائفية المتعاونة معها خصوصا بعد اعتقال السلطات البريطانية لمندوبي «اللواء الأبيض» بسبب السفر إلى مصر للمطالبة بوحدة وادي النيل.

عمت المظاهرات الخرطوم وأم درمان ووادي مدني وحلفا والأبيض وبور سودان ومالكال وكسلا وكان المتظاهرون السودانيون يرفعون العلم الأبيض وخريطة النيل واعتقل علي عبد اللطيف في ٤/ ٧/ ١٩٢٤ وحكم عليه بالسجن واندلعت الثورة (سنة١٩٢٤) في السودان مؤكدة على المطالبة بوحدة «وادي النيل» ومتخطية عمال الطائفة المتعاونة مع الاستعمار. وخرج طلبة الكلية الحربية السودانية في مظاهرات وطنية نظامية ويشتعل حماس الجماهير لمنظرهم ٩/ ٨/ ١٩٢٤.

بعد انسحاب الجيش المصري من السودان سنة ١٩٢٤ طبقا للإنذار الذي قدمه الإنجليز لحكومة مصر على إثر اغتيال السردار، انفرد الإنجليز بالسودان، وأخذوا يثيرون طائفتي الختمية والمهدية الجديدة (المهدي ختمية) لتوسيع شقة الخلاف بين مصر والسودان. ومع ذلك استمرت القوى الوطنية السياسية في التجمع والانتشار إلى أن تكون أول تنظيم سياسي وطني عام ١٩٣٨.

في عام ١٩٣٨ تكون المؤتمر القومي العام للخريجين يضم الخريجين السودانيين من مراحل التعليم المختلفة ووجد هذا التنظيم مقاومة من الحكومة.

في عام ١٩٤٢ طالب مؤتمر الخريجين السلطة الحاكمة بحق تقرير المصير وقوبل بما يشبه الرفض وعلى أثر ذلك انشق مؤتمر الخريجيين إلى :

(أ) المعتدلين : وأغلبهم من العناصر ذات الولاء للمهدي ختمية وكان على رأسهم إبراهيم أحمد وكانوا على صلة بشكل أو بآخر بالحكومة ويؤيدونها .

(ب) المتشددين : وكانوا من القوى السياسية الوطنية وكانوا يطالبون بالحرية وحق تقرير المصير بزعامة إسماعيل الأزهري وتجاوب الرأي العام السوداني مع الأزهري فكون حزب الأشقاء وكان هدفه الاتحاد مع مصر . وكانت الختمية في هذا الوقت تأخذ جانب التقارب مع مصر غيرة من المهدية فكان حزب الأشقاء تحت رعاية الختمية (علي الميرغني) وكانت مصر تؤيد هذا الحزب . والجانب الآخر من الخريجين انضم تحت لواء عبد الرحمن المهدي . وكونوا حزب الأمة برئاسة ابنه صديق المهدي وكان هذا الحزب ينادي باستقلال السودان التام (السودان للسودانيين) . .

- سنة ١٩٤٨ قاطع حزب الأشقاء انتخابات الجمعية التشريعية التي أقامها البريطانيون وعارضتها حكومة مصر ، ونظم الحزب المظاهرات ضد الجمعية التشريعية واعتقل زعيم الحزب إسماعيل الأزهري .
- ثم قامت الختمية بتبني فكرة تكوين جبهة وطنية ، وكان ذلك نتيجة صراع داخل حزب الأشقاء وكانت هذه الجبهة الوطنية تدعو إلى عدم الارتباط الكامل بمصر . وكانت تحت رعاية الميرغني .
- سنة ١٩٥١ تكون الحزب الجمهوري الاشتراكي يعارض الاتحاد مع مصر .
- بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ قام الرئيس محمد نجيب بالمبادرة لحل قضية السودان وعمل على جمع الشمل السوداني واندمج حزب الأشقاء مع الجبهة الوطنية في الحزب الوطني الاتحادي بزعامة الأزهري .

وقد خرج الحزب الوطني فجأة بإعلان استقلال السودان الكامل ومعارضا الوحدة مع مصر مدعيا الظروف السابق الإشارة إليها .

ثالثا: تاريخ اللعبة البريطانية في السودان

بدأت الأطماع البريطانية في السودان عقب احتلالها لمصر عام ١٨٨٢ وكان، للسودان وضع خاص بالنسبة للوجود المصري بها بموجب «الفرمان السلطاني التركي في ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ بنقل ولاية مصر على السودان». توالت على السودان أحداث الثورة المهدية حتى استطاع محمد أحمد المهدي أن يحقق انتصارات متتالية وكانت الجيوش المصرية تسيطر على أجزاء كثيرة من السودان. وبخاصة في الشرق.

وانتهزت بريطانيا الفرصة لابتلاع السودان من يد الإمبراطورية العثمانية المنهارة، ومن الولاية المصرية المحتلة ففرضت على مصر إخلاء السودان، لكن رئيس الوزراء المصري شريف باشا رفض إخلاء السودان بموجب فرمان ١٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ لأنه يحظر على مصر التصرف في الأقاليم السودانية. كان ذلك بموجب مذكرة أرسلها شريف باشا إلى سير أفلين بارنج في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٣، ثم استقال شريف باشا بضغط بريطانيا وتولى نوبار باشا الوزارة فنفذ ما طلبه الإنجليز بإخلاء السودان سنة ١٨٨٤.

ولأجل الانفراد كاملا باحتلال السودان فرض على الحكومة المصرية سنة ١٨٩٩ الخاضعة تماما للإرادة البريطانية توقيع وثيقة استعمارية بين حكومتي بريطانيا ومصر، ووجدت بريطانيا في رئيس وزراء مصر الضعيف الشخصية بطرس غالي الرجل المناسب لتسليم مقدرات السودان إلى السلطة البريطانية بموجب اتفاقية ١٩ يناير سنة ١٨٩٩.

وبعد ستة أشهرمن توقيع الاتفاقية الأولى وكانت مادتها الأولى تعترف بحق رفع العلم المصري فقط على سواكن والتي لم ينسحب منها الجيش المصري طول فترة الثورة المهدية. أبرم كل من كرومر وبطرس غالي مرة أخرى في ١٠ يوليو سنة ١٨٩٩ اتفاقا آخر أنهى شكل الوجود المصري كلية من سواكن أيضا. وهذا هو ما يطلق عليه اتفاقيتي سنة ١٨٩٩.

منذ تثبيت أوضاع الاستعمار البريطاني في السودان وطبقا لاتفاقيتي سنة ١٨٩٩ المشئومتين، فقد أكدت هاتان الاتفاقيتان على أن يكون الحاكم العام للسودان بريطانيا. وفي الوقت نفسه سرداراً للجيش المصري حتى يضمن الإنجليز السيطرة على أوضاع الجيش المصري، وبموجب هاتين الاتفاقيتين تنبه البريطانيون إلى أهمية مياه النيل بالنسبة لمصر بالمقام الأول ثم السودان وإمكان اللعب بها.

وكان المخطط البريطاني والمتحكم في أمور مصر والسودان يختص مصر بالنصيب الأكبر من مياه النيل وبشكل مبالغ فيه لأسباب في نفس يعقوب وليس من أجل مصالح مصر. فمصر اعتبرها الإنجليز منذ الاحتلال مزرعة القطن التي تشغل مصانع الغزل والنسيج في بريطانيا. . وكان من مصلحتهم ازدهار الزراعة في مصر حتى تزدهر صناعة وتجارة المنسوجات في بريطانيا، وفي الوقت نفسه لم تكن السودان وقتها في حاجة إلى كميات كبيرة من المياه لتخلف الأمور الزراعية فيها. ولاعتمادها بصفة رئيسية على مياه الأمطار كما أن بريطانيا درست نفسية الشعب المصري الذي تعد الزراعة بعداً أساسيا في حياته فهي تقدر مدى حرصه على المياه.

في عام ١٩٢٩ أبرمت اتفاقية مياه النيل مع مصر ونالت مصر نصيب الأسد من مياه النيل على حساب السودان حيث تحددت حصة مصر بـ ٤٨ مليار م٣ سنويا والسودان ٤ مليار م٣ سنويا فقط، وهذا التميز ترك آثارا سيئة على نفسية القوى الوطنية السودانية على مر الزمن. في الوقت نفسه عمل البريطانيون منذ وجودهم في السودان على إقامة مشروع الجزيرة وأنشئوا فيها زراعة القطن بغرض منافسة السودان لمصر في هذه الزراعة وطرح إمكانية حصول السودان على نصيب من مياه النيل على حساب حصة مصر المبالغ فيها، لذلك عقب مقتل سردار الجيش المصري وحاكم عام السودان على يد الوطنيين في القاهرة.

قدم البريطانيون إنذارا إلى حكومة سعد زغلول، ومن ضمن شروطهم إعطاء السودان كمية مفتوحة وغير محدوده من مياه النيل، مما أوجد بعض المرارة لدى المصريين وأعطت حقا مستقبلا للسودانيين يصعب استرجاعه منهم بواسطة المصريين.

هذه اللعبة البريطانية الخبيثة خفيت أبعادها في وقتها عن عقلية المصريين والسودانيين، ولكن ثمارها ظهرت بعد اتفاقية السودان (٢فبراير سنة ١٩٥٣) فعندما عقدت مفاوضات مياه النيل بين مصر والسودان بالقاهرة في أبريل سنة ١٩٥٥ ظهرت جذور ما حفره الإنجليز من تناقض بين المطالب المصرية والحقوق السودانية. وفشلت هذه المفاوضات بشكل مأساوي مما كان له أثر بالغ على العلاقات المصرية السودانية بل إنها كانت من الأسباب الرئيسية في استبعاد فكرة الوحدة مع مصر.

أول عملية بالسودان

كان الأستاذ صلاح محمد علي رئيس وكالة الأنباء العربية يعمل مع مدير جريدة (Morning News) وهي جريدة باللغة الإنجليزية تصدر في السودان، وكان المدير بريطانيا أقام بالسودان مدة طويلة جدا. وعلمت من صلاح محمد علي أن لهذا الرجل نشاطا اجتماعيا ورياضيا واسعا فهو حريص على سباق الخيول ويقوم بالتحكيم أثناء السباق، وعند متابعة أخبار ونشاطات هذا الرجل ساورنا أنا وصلاح شك في أن هذا البريطاني يقود شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان. وعن طريق صديق لنا داخل مصلحة التليفونات السودانية وضعت مكالمات هذا المدير تحت المراقبة.

وبعد مدة وجيزة من وضعه تحت المراقبة تأكدنا من أنه على اتصال مريب بجميع المستشارين البريطانيين في حكومة السودان، فهو يتلقى منهم أدق المعلومات وهم بدورهم يعملون بتعليماته. كما ثبت اتصاله بمعظم وكلاء الوزارة الدائمين بحكومة السودان، وظهر أن معظمهم يتعاون تعاونا كاملا مع بريطانيا. إلا أن أخطر ما تأكدنا منه هو علاقته المريبة برئيس مكتب الاتصال الحبشي بالسودان (ملس عندوم) وكان يعتبر من أخطر عملاء الولايات المتحدة الأمريكية في السودان.

وفي الوقت نفسه تمكنا بعد مجهود شاق من استمالة سكرتير مدير جريدة (Morning News) السوداني للعمل معنا. وقد تمكن هذا السكرتير من الحصول على نسخة من مفتاح خزينة المدير الإنجليزي التي يحتفظ فيها بالأوراق السرية فقمنا بتصويرها وإعادتها إلى مكانها ثانية.

وعن طريق هذه المستندات القيمة تأكدنا من أن هذا المدير رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية بالسودان وبالتالي حصلنا على المعلومات التي أثبتت أن «ملس عندوم» الذي تعلم بمصر في مدارس أسيوط على علاقة وثيقة بالمخابرات الأمريكية، وعن طريق التنصت علي مكالماته التليفونية تبين لنا أنه على اتصال ببعض العناصر المصرية الأصل والسودانية الجنسية التي يهمها بقاء الاستعمار البريطاني في السودان لازدهار أعمالهم.

وللأسف وعلى الرغم من كشف العلاقة المريبة «لملس عندوم» والتي سجلتها في المخابرات المصرية إلا أن مصر وافقت في وقت لاحق أن يكون سفيرا للحبشة بمصر ولفترة طويلة، وكان عميدا للسلك الدبلوماسي الأجنبي في مصر ثم أكرمته مصر فصار لاجئا سياسيا بعد سقوط هيلاسلاسي. كذلك كشفت هذه المستندات السرية عن الخطط والتدابيرالبريطانية لعزل السودان كلية عن مصر.

ولشغفي بالرحلات والاستكشافات قمت فيما بين فترات العمل بعدة رحلات استطلاعية إلى غرب السودان حتى الأبيض وإلى شرقه فوصلت حتى كسلا وبور سودان. ولحسن الحظ وبطريقة موفقة تكشف لي خلال إحدى هذه الرحلات، أحد الأسرار الاقتصادية الذي جعل من السودان مركز اهتمام بريطانيا وبالتالي جعل بريطانيا تخشى التقارب المصري السوداني.

خلال رحلتي للأبيض اصطحبت معي مساعدي في المكتب عبد الفتاح فرج السوداني الأصل الجنوبي.. وفي أحد أيام الرحلة استيقظت مبكرا وبعد أن تناولنا الإفطار خرجنا معا في جولة بالمدينة، واسترعى انتباهي مبنى على النمط الأوربي الحديث، وفي ملابسهم البيضاء الناصعة أحاطت جموع غفيرة من السودانيين بالمبنى، ولاحظت أحد الأجانب الذين يقيمون معنا بالفندق وهو يقف بجوار المبنى ويتحدث مع فريق من جموع السودانيين.

أثار الموقف فضولي فسألت عن سر المبنى وسبب تجمع الناس من حوله. فعلمت أننا في موسم لتسويق محصول السودان من الصمغ العربي وأن السودان تستأثر بحوالي ٨٥٪ من حصة الإنتاج العالمي لهذا المحصول.

أما المبنى الحديث هذا فهو مبنى بورصة الصمغ العربي.. والرجل الأجنبي

الواقف في وسط السودانيين مندوب الحكومة البريطانية ويعمل مستشارا لشركات تجارة الصمغ العربي . . وقد اعتاد الحضور كل عام في هذا الموسم ليشرف على عملية تجارة الصمغ العربي . أما باقي السودانيين ذوي الملابس الوطنية البيضاء فمعظمهم مندوبون للشركات الأجنبية التي تقوم بشراء الصمغ العربي من السودان، «والأبيض» تعتبر مركز تجميع هذا المحصول .

ودفعني الفضول لدخول مبنى البورصة فلم يعترضني أحد إلا أن الجميع أخذوا ينظرون إلي مستغربين ومستفسرين عمن أكون . وتغاضيت عن هذا ووقفت أراقب ما يحدث، فبدأت المزيدات لشراء وبيع الصمغ العربي، ولاحظت أن ثلاثة فقط من مندوبي الشركات هم أنشط المندوبين حيث تمكنوا من الحصول على معظم المحصول المطروح في البورصة وبأسعار متفاوته نسبة ضئيلة جدا . وعند الاستفسار علمت أن مندوب شركة جلاتلي وهانكي Glatly and Hanky هو الذي تمكن من الحصول على معظم الكمية المطروحة . وأن هذه الشركة البريطانية يرأس مجلس إدارتها الجاسوس البريطاني الشهير في البلاد العربية «عبد الله فلبي» وكان يشغل في الوقت نفسه منصب المستشار السياسي للملك سعود . أما ما تبقى من المحصول فقد حصلت عليه أيضا شركتان بريطانيتان وهكذا احتكرت بريطانيا الصمغ العربي .

وعند وجودي في أول إجازة بمصر اتصلت بالدكتور رياض تركي وكان رئيسا لمركز البحوث القومي وبعد سرد القصة كاملة عليه فكر قليلا ثم أجاب إنه يعلم أن الصمغ العربي له استخدام مهم في تكنولوجيا استخراج البترول . وأشار عليّ بزيارة حقول البترول البريطانية في البحر التابعة لشركة شل (Shell) وأعطاني اسم أحد المهندسين الجيولوجيين المصريين العاملين هناك وهو من تلاميذه وعلمت بالفعل أن الصمغ العربي يستخدم في عملية حفر آبار البترول، فعندما تدور البريمة بسرعة فائقة خلال عملية الحفر ينتج عن تلك الحركة السريعة حرارة مرتفعة فيبرد بواسطة خليط من الطفلة والصمغ العربي ويسمى هذا الخليط Draga Gum . وكذلك عندما يتأكد من وجود البترول تصنع ماسورة خاصة من نفس هذا الخليط ليمر من خلالها البترول المتدفق من البئر، فهذه الماسورة الخاصة هي الوحيدة القادرة على مقاومة تيار البترول المتدفق واحتكاكاته كما تحمي البريمة أثناء عملية الحفر من التآكل والكسر .

وعند عودتي إلى القاهرة واطلاعي على إحصائيات التجارة الدولية تبين لي أن بريطانيا كانت وقتها هي المحتكر الوحيد لتجارة هذه المادة وأنها تعيد بعد ذلك توزيعه وبيعه إلى جميع الدول المنتجة للبترول. وبناء على ذلك رفعت تقريرا يتضمن قصة الصمغ العربي كاملة مع التوصية بأن تحاول مصر في السنة التالية وفي موسم المحصول أن تقوم بشراء الصمغ العربي عن طريق بنك مصر فرع السودان وهو فرع كان يرأسه الأستاذ عمارة.

وبالفعل في السنة التالية. وكنت قد تركت العمل بالسودان، علمت أن بنك مصر هناك قد تمكن من دخول المزاد. ونتيجة للمنافسة تسبب في رفع السعر لصالح المنتج السوداني وحصلت مصر على حصة مجزية من النصيب الذي احتكرته بريطانيا طويلا.

من المطبخ السياسي إلى جزيرة آبا

خلال عملي في السودان تناقلت أوساط شباب السودان أخبار صالون تتجمع فيه الشخصيات السياسية ورجال الأعمال السودانيين وبعض المستوطنين الأجانب وأعضاء البرلمان وبعض الدبلوماسيين الأجانب. وعلمت من هؤلاء الشباب أن ضيوف الصالون تقدم لهم الخمور وعندما تلعب الخمر برءوسهم تنطلق ألسنتهم بأسرار الدولة السياسية والاجتماعية فتتلقفها الآذان المتنبهة. وفي أمسيات هذا الصالون كان يتم طبخ سياسة السودان العليا كما كان يحدث في مصر في «كلوب» محمد علي قبل الثورة.

وفي فيلا كبيرة تملكها أرملة أحد أثرياء الأجانب من الإيطاليين الذين جمعوا أثناء عملهم بالسودان ثروات طائلة، كانت تقام أمسيات الصالون. وكان لهذه الأرملة ابنة على جانب كبير من الجمال، ولها نشاط اجتماعي واسع في السودان وكانت مخطوبة لأحد الشبان اللبنانيين الذي يعمل في شركة أجنبية كبيرة في السودان وكان صديقا لمحمود سليم. وأوعزت لزميلي المصري أن يدخل فيلا المطبخ السياسي بصحبة صديقه اللبناني. تم ذلك بأسلوب طبيعي جدا.

وكان محمود سليم وسيما وعلى درجة من الثقافة فأمكن بسهولة اكتساب ثقة

أعضاء هذا النادي السياسي الاجتماعي، وأصبح من أكثر أعضاء هذا المنتدى الاجتماعي محبة. وساعدتني المعلومات التي كنت أحصل عليها منه عما يدور من أحاديث وأسرار في هذا المطبخ السياسي الفريد في نوعه على الوقوف على حقيقة أي حدث سياسي أو اقتصادي رسمي لا تعلن عنه الصحف. وكانت هذه المعلومات مادة صحفية في منتهى الكفاءة، وكنت أرسلها إلى جريدة الجمهورية، أما المعلومات ذات الصبغة السرية فكنت أرسلها أولا بأول كتقارير إلى رئاستي.

وثائق اتفاقية مياه النيل

عن طريق أحد أعضاء هيئة التدريس المصريين في السودان، الأستاذ «نصر الدين السيد» والذي له صلات اجتماعية ممتازة بكبار الموظفين في الدوائر السودانية المهمة تعرفت على شخصية سودانية بارزة ذات وعي كامل بألاعيب السياسة الاستعمارية البريطانية في السودان.

وعندما شعر هذا الصديق السوداني بالدور الذي يقوم به المستشار البريطاني «كارل مايكل» ـ وخاصة أثناء مفاوضات اتفاقية مياه النيل سنة ١٩٥٥ والتي كانت تتم بالقاهرة بين وفد حكومة السودان برئاسة خضر حمد وزير الري السوداني وعضوية مأمون بحيري وبين الوفد المصري برئاسة زكريا محيي الدين ـ أمكن هذا الصديق السوداني الوطني أن يقدمني إلى صديق له، يعمل في أرشيف وزارة الري السودانية، وكان هو الآخر على درجة عالية من الوعي السياسي.

كان المستشار كارل مايكل يرسل إلى القاهرة يوميا، ودوريا، تقارير إلى وكيل الوزارة مأمون بحيري. والذي كان يرافق وفد المفاوضات السوداني في القاهرة، وكان بتلك التقارير توجيهات وإحصائيات كلها تدعو إلى التشدد في موقف السودان من حصة مياه النيل ومصاغة بدهاء اشتهر به البريطانيون.

كانت كل هذه التقارير ذات السرية العالية تصلني في وقت مناسب جدا وكان يتم تصويرها وإعادة المستندات الأصلية. وبالاتفاق مع رجال شركة مصر للطيران كانت صور هذه الوثائق المهمة ترسل أولا بأول لتكون في متناول يد المفاوض المصري قبل اجتماعات التفاوض، مما كان له أثر كبير في كشف المخطط البريطاني،

الذي كان يمثله المستشار البريطاني موريس، المرافق لوفد السودان لمفاوضات مياه النيل بالقاهرة، والذي تسبب في إفشال هذه المفاوضات التي أجريت في إبريل ١٩٥٥، وتوقفت في الشهر نفسه. (نجحت تلك المفاوضات عام ١٩٥٩ عندما ابتعد الإنجليز عن الوظائف).

حادث اختناق العمال الفلاته

وفي مساء أحد الأيام أبلغني الصديق المصري صلاح محمد علي مدير وكالة الأنباء العربية بالسودان وكان مكتبه بجوار مكتبي الذي استأجرته بالخرطوم. أبلغني أن برقية وصلته حالا تحمل نبأ سيئا، فقد اختنق أكثر من مائة عامل من الفلاته في بلدة «كوستي» في مديرية «النيل الأزرق» وعلى النيل الأبيض، وهم عمال أُفارقة يفدون في مواسم خاصة إلى السودان أو يمثلون القوة العاملة الموسمية وكانت تفرض عليهم الشركات الزراعية السودانية البريطانية أجورا زهيدة يرضون بها تحت وطأة ظروفهم السيئة. وعندما طالب هؤلاء العمال برفع أجورهم رفضت هيئة مشروع الجزيرة طلبهم واستعدت عليهم السلطات السودانية والبوليس، فاعتقلوا لعدم إمكان التفاهم معهم، ووضعهم البوليس مكدسين في عنبر واحد وكان عددهم حوالي ١٣٥ عاملا. وبعد مدة من الحجز في هذا العنبر الضيق المساحة، ماتوا جميعا مختنقين من شدة الحرارة Heat Exhaust.

وأفادني صلاح محمد علي أن هذا الحادث اهتمت به صحافة ووكالات الأنباء العالمية وكلفوا مندوبيهم بالتوجه إلى «كوستي» مكان الحادث لتغطية أنبائه. فاتخذت المبادأة وأسرعت في تجهيز نفسي وسافرت إلى هناك في الليلة نفسها.. وبصحبتي زميل صحفي سوداني هو الأستاذ سعد الشيخ ومساعدي عبد الفتاح فرج، ووصلنا إلى هناك بعد منتصف الليل وعلى الفور توجهنا إلى مكان الحادث واجتمعنا فور وصولنا مع قائد البوليس السوداني وجمع من أهالي (كوستي) وكانوا مجتمعين في شبه ثورة ضد حكومتهم وجاء على لسان أحدهم: «الله يرحم أيام الاستعمار البريطاني» وتبادلت الحديث معهم، وأقنعتهم بعد مناقشة هادئة مستنكرا فضل الاستعمار، وأفهمتهم أن استعداء السلطة على هؤلاء

المظلومين هو من فعل موظفين سودانيين ولكنهم في الحقيقة لحساب شركة ما زالت أصبع بريطانيا تعمل فيها.

وفي الصباح الباكر خرجت من المنزل الذي استضافوني للإقامة به إلى منطقة العنبر المشئوم، وهناك أخذت أقيس العنبر الذي حجز فيه ١٣٥ بائسا اختنقوا عن آخرهم بالخطوة طولا وعرضا حتى يمكن أن أقف علي الحجم الكلي له. وأخبرني الأهالي أن العمال لم يقوموا بأي عمل من أعمال العنف، ولكنهم توقفوا فقط عن العمل وتجمعوا في أماكن إقامتهم المتواضعة حول الأكواخ فحضر رجال البوليس وأخذوا في جرهم بقسوة. وربطهم بعضهم ببعض بالحبال وهم يصرخون من شدة الألم وعنف المعاملة ثم ساقوهم إلى هذا العنبر وأغلقوا عليهم الأبواب بإحكام. وبعد نصف ساعة بالضبط أخذ المحجوزون داخل العنبر يستغيثون ولا من مجيب، ثم بعد مدة أخرى علا صوتهم وأخذوا يدقون بشدة على الأبواب واعتقد حراس العنبر القلائل أن المحتجزين في حالة ثورة فلم يبلغوا رؤساءهم. ورويدا أخذت أصوات الاستغاثة والاحتجاج تخفت إلى أن خمدت مرة واحدة ثم ساد صمت الموتى. وعندما علم الرؤساء بهذا الحادث المفجع أرادوا التستر على الجريمة البشعة فقاموا أثناء الليل وقبل بزوغ النهار بنقل جثث الموتى إلى مقبرة كبيرة جدا بالقرب من العنبر وأهالوا عليها التراب. وقادني الأهالي إلى مكان المقبرة... وتسمرت مكاني فقد هالني ما رأيت فلم يسعف الوقت والإمكانيات البوليس لتغطية الجثث بالتراب.. فكانت بعض الأذرع المتدلية والإرجل المستسلمة والعيون الجاحظة تطل من بين الأتربة تصرخ في صمت بليغ ضد عنف الإنسان وعدم آدميته. وأبرقت من الخرطوم بتفاصيل الحادث المؤلم، وأرسلت الصور إلى جريدتي وإلى إذاعة ركن السودان وهما المصدران اللذان انفردا بتفاصيل هذا الحادث المروع.

رحلة وحوار في جزيرة آبا

استمرت جزيرة آبا مهد الحركة المهدية تلعب دورها في تعميق جذور تعاليم المهدي الدينية. وأصبحت هذه الجزيرة أيضا معقل الحركة المهدية الاستعمارية الحديثة والتي ظهرت بشكل مخالف تماما للحركة المهدية الأصلية، حيث اشتهر

الزعيم السيد عبد الرحمن المهدي قائد الأنصار وراعى حزب الأمة بمعاداته لمصر وتبني الدعوة الانفصالية عن مصر. يعكس أفكار المهدي الكبير، وقمت برحلة إلى الجزيرة يرافقني الأستاذ سعد الشيخ وهو صاحب شركة إعلانات سودانية كانت مندمجة مع شركتنا المصرية، وكان شابا واسع الاطلاع بشئون وتاريخ بلده السودان. وأثناء الطريق روى قصة السيد عبد الرحمن المهدي، وكيف كان يتقن القيام بدوره المزدوج وهو تعميق وتثبيت زعامته الدينية ليغرر بأتباعه لمسايرة السياسة البريطانية الاستعمارية. فبعد أن شب السيد عبد الرحمن المهدي أعادته بريطانيا للحياة في جزيرة آبا بين أتباعه وأنصاره الذين كانوا يتوافدون من جميع أنحاء السودان للتفرغ للعلم والعبادة حسب تعاليم المهدي الكبير داخل أروقة القصر المعد لهذا الغرض. وكان عبد الرحمن المهدي يتعمد الاختفاء قبل موعد الغروب ويتسلل خارجا إلى البراري والحقول، يتجول فيها. وعندما يخيم الظلام كان يتعمد أن ينير مصباح يد (بطارية يد) كهربائي من تحت عباءته فيبدو في الليل ومن بعد كأنه شبح منير. ويرى أتباعه المنتشرون في أرجاء الجزيرة هذه الظاهرة الغريبة ويعتقدون أنها تدل على الخير والبركة والتقوى وأن روح سيدهم عبد الرحمن المهدي الطاهر تتجول في الليل، ويصبح الأتباع بأعلى أصواتهم منادين: (سيدي بينور سيدي بينور) ولا يجرءون على الاقتراب منه فترتفع مكانته عندهم، وأصبح إيمانهم به واتباعهم له لا يربو إليه الشك.

وعند وصولنا إلى مقر المهدي بالجزيرة علمنا بالصدفة أن ابن السيد عبد الرحمن المهدي «الأستاذ الصادق المهدي» قد حضر. وانتهزت هذه الفرصة وطلبت مقابلته ورحب هو بهذا اللقاء. وكنت علمت من زميلي الأستاذ سعد الشيخ أنه خريج جامعات بريطانيا ووجدته شابا لبقا عالي الثقافة يتقن الحوار في لغة عربية محببة باللكنة السودانية ذات النطق العربي السليم قدم إلينا الشاي على الطريقة البريطانية. وبدأ الحوار فسألته «عن موقف حزب الأمة قبل بداية مفاوضات مصر مع بريطانيا على المسألة السودانية، وتأييده لهذه الاتفاقية في اجتماعهم بمحمد نجيب ثم تحولهم وتنكرهم للاتفاقية إلى المطالبة بالانفصال وأن يصبحوا أعضاء في الكومنولث البريطاني علما بأن تحرير وادي النيل شماله وجنوبه كوحدة واحدة كان هدف المهدي الكبير». فقال: «إن مصر منذ احتلالها من وقت عرابي وجميع ساستها برغم

وعيهم التام بأنهم غير مستقلين كانوا يعتبرون ويعاملون السودان على أنه مستعمرة مصرية ويتمسكون بحق الفتح وثابت ذلك من جميع محاضر جلسات المفاوضات المتعاقبة بين المصريين والبريطانيين، فكان المصريون يؤكدون دائما على حق مصر في السودان (حق الفتح) وضرورة تبعيتها لمصر بشكل أو بآخر ولم يضع زعماؤكم وساستكم أي اعتبار أو وزن لرأي السودان والسودانيين أنفسهم. وحتى أيام الاحتلال البريطاني لمصر والسودان كان الاستعمار البريطاني يدعي أن وجوده في السودان للمحافظة على حقوق مصر في السودان وكنتم تصدقونه، وهذا الخضوع الذي يعبر عنه الاستعمار البريطاني كنا في السودان نعرف جيدا أنه خضوع شكلي. لكنكم كنتم في مصر كالنعام تخبئون رءوسكم أمام عدوكم معتقدين خطأ أنكم مادمتم لا ترون عدوكم فهو لا يراكم. كنتم في مصر تصدقون بريطانيا فيما تدعيه لحمايتكم حتى من مطالبة السودانيين بحقهم في بلادهم، وتتناسون أن في السودان شعبا وساسة وقادة وزعماء وطنيين ينتمون إلى هذه الأرض». وقال أيضا: «إن الوجود البريطاني في السودان حقيقة والوجود المصري في السودان منذ الاحتلال البريطاني لمصر رمز وشكل دون المضمون. المفروض علينا نحن السودانيين أن نتعامل مع الحقيقة لا مع الشكل».

عند هذا الحد من حديثه بدأ الانفعال بفرض نفسه على نبرات صوته ويبدو أن سؤالي في هذا الوقت بالذات أصاب منه موجعا برغم أن رده كان به شيء من الواقع والحقيقة المرة فقررت أن أستمر في محاورته. فأعدت إلى ذاكرته أن مصر عندما أرادت التفاوض مع بريطانيا على الجلاء عن مصر بدأت أولا بالمطالبة بالجلاء عن السودان، وبادرت مصر بجمع شمل الأنصار (طائفتكم) وطائفة الختمية ومختلف الأحزاب في القاهرة وبذلت مصر خالص جهدها لتوحيد كلمتكم واعترفت بكيانكم وبإرادة الشعب السوداني، وبحقكم الكامل في تقرير المصير لتختاروا الوضع الذي يحقق مصلحتكم. لكن للأسف كان لحزبكم (حزب الأمة) موقف أثر على مجريات الأمور بشكل عكسي مخالفا بذلك لمبادئ وأهداف الحركة المهدية الأصلية على يد المهدي الكبير.

ووافيت القاهرة بهذا الحديث وتعليقي عليه بأنه يكاد يطابق الرأي العام السوداني الذي يتطلع في هذا الوقت إلى الاستقلال.

كنت قد تقدمت منذ وصولي إلى السودان بأوراق رسمية للسلطات السودانية لتسجيل مكتب الجمهورية للإعلانات والصحافة بمستندات سليمة عن طريق مكتب أحد كبار المحامين السودانيين (محمد أحمد محجوب أحد أقطاب حزب الأمة والذي أصبح وزيرا فيما بعد). وقدمت مع صور هذه المستندات طلبا إلى وزارة الداخلية السودانية والجوازات والجنسية لأحصل على تصريح إقامة للعمل. وكنت أتردد على مكتب الوكيل الدائم لوزارة الداخلية السودانية «محمد عثمان يس» للسؤال عن طلب الإقامة. وفجأة وبعد مرور أكثر من ستة شهور على وصولي للسودان استدعاني محمد عثمان يس وكيل الداخلية الدائم بمكتبه. وأخذ يسألني عن حقيقة اسمي وعملي السابق قبل العمل الصحفي وأجبته بأنني كنت ضابطا بالجيش المصري برتبة اليوزباشي وقد استبعدت من العمل بالجيش بعد عملية التطهير بعد الثورة. ولكني تمكنت من الحصول على عمل في دار الجمهورية في شركة الإعلانات الشرقية. وأخرج قصاصة ورق من درج مكتبه قرأ فيها اسم يوزباشي محمد عبد الفتاح أبو الفضل. ورقم التليفون وعنوان المنزل. (ادعائي بأنني من الضباط المصريين في التطهير كان تغطية فقط بطبيعة الحال).

وبثبات كررت عليه ما قلت له، وأفهمته أنه ليس هناك ما يمنع ضابط الجيش بعد استقالته أو استبعاده من العمل العسكري أن يمارس عملا مدنيا وليس في هذا ما يثير الشبهات، وقد تركته وأنا شبه متأكدا أن هناك وشاية أو تبليغ من أحد، وأنه أخذ يشك كباقي السودانيين أنني موفد من السلطات المصرية في مأمورية خاصة، ولكني قبل مغادرتي مكتبه قلت: إن السلطات المصرية إذا كانت هي التي رتبت وضعي بهذه الصورة لم يكن من الصعب عليها أن تزيف اسمي حتى تكتمل الصورة والغطاء.

وقال لي الزميل صلاح محمد علي رئيس وكالة الأنباء العربية بالخرطوم إنه في لقاء خاص بينه وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية علم منه أن هناك أحد المدرسين المصريين المعينين بعقد مع حكومة السودان، يتعاون مع الأمن السوداني وأنه هو الذي أبلغهم ذلك بعد أن رجع إلى دفتر التليفون المصري ووجد به اسمي بالكامل وعنوان منزلي بالقاهرة وأمام الاسم رتبة اليوزباشي.

وتولاني غضب من هذا الشخص الذي وصل إلى هذه الدرجة من الخسة وأردت أن ألقنه درسا بصورة أو بأخرى وكان يملك عربة فاخرة وكثيرا ما يتركها أمام منزله أثناء الليل في حي الموجرن الهادئ في السودان وتمكنت من وضع عدة أقراص من السكر في تنك بنزين العربة. وعندما قام بتشغيل عربته بعد ذلك احترق الموتور وكبده ذلك مبالغ طائلة لإصلاحها.

وكان في هذا التصرف شيء من الصبيانية، ولكني كنت شابا وفي بدء حياتي العملية، ولكني استدعيته بعد ذلك بمدة، وحذرته من مثل هذه الأعمال الخطرة، وأكدت له أنني الذي قمت بتخريب سيارته انتقاما مما قام به من أعمال تصل إلى مستوى الخيانة.

الاحتكاك بالوكيل الدائم

بعد واقعة استدعائي في الأمن السوداني ومواجهتي لشكوكهم، تصادف ودعيت إلى حفل عشاء في منزل الصحفي صالح عرابي رئيس تحرير جريدة الصراحة السودانية وكانت تؤيد سياسة مصر إلى حد كبير. وبعد أن بدأ المدعوون في تناول الأطعمة من البوفيه وأثناء انتقائي لبعض الأطعمة وكنت بالمصادفة وقتها بجوار وكيل الداخلية الدائم محمد عثمان يس، وكان يتبادل الحديث بالإنجليزية مع رئيس تحرير جريدة المورننج نيوز Morning News. وهو في الوقت نفسه رئيس شبكة الجاسوسية البريطانية في السودان الذي أشرت إليه قبلا وجه محمد عثمان يس الكلام لي وهو في حالة سكر: «كيف حال ولد البق»؟ وهذه إهانة بالغة درج عليها أهل السودان عندما يريدون توجيه إهانة إلى أي مصري على أساس أن حشرة البق موجودة في البيوت المصرية الفقيرة وحاولت السيطرة على أعصابي وقلت له: إنني أفتخر بأنني مصري صميم لأنك وصفتني بصفة مصرية صميمة لا نخجل منها ولكنك لا أكثر ولا أقل من خائن سوداني وولاؤك في المقام الأول لهذا البريطاني ولبريطانيا. وكنت متأكدا أن رئيس تحرير المورننج نيوز، يتقن اللغة العربية وواصلت توجيه اللوم الشديد له وبصوت مرتفع وتجمع حولنا كثير من المدعوين من السودانيين والأجانب. وحضر الداعي صالح عرابي وأخذ يعتذر لي هو وجمع كبير من نواب البرلمان الأصدقاء، ورفعت الحرج عن موقف الداعي صالح عرابي

وقلت له إنني في منزلي وقد قمت بالتصرف نيابة عنه وفي اليوم التالي حضر لي في المنزل الأستاذ صالح عرابي ومعه جمع كبير من الصحفيين السودانيين وكثير من أعضاء البرلمان. وكان الاجتماع مثمرا، قام الصديق العزيز محمد عبد الجواد نيابة عنهم بالكلام وقال: إنهم حضروا ليس للاعتذار ولكن بدافع حبهم وتقديرهم لمصر والمصريين وامتدادا لدور الوطنيين السودانيين الذين يؤمنون بضرورة الوحدة مع مصر، وإنهم على يقين من قدرتي على توصيل ما سيعبرون عنه إلى المسئولين في مصر. وقال محمد عبد الجواد: «إن السودان منذ احتلال البريطانيين لمصر وللسودان بعد إخماد ثورة عرابي اندلعت فيه ثورة محمد أحمد المهدي تحت علم الدعوة الدينية الصادقة بمعاداة المحتل الأجنبي.

وكان المهدي الكبير في ثورته ضد الإنجليز يقوم بمحاربة الإنجليز والأتراك ولم يقصد المصريين إطلاقا لأنه في الوقت نفسه كان يعتبر ثورته امتدادا لثورة المصريين بقيادة أحمد عرابي. وبرغم أن الثورة السودانية تمكنت من تحقيق الاستقلال لمدة حوالي ١٣ سنة. فقد قامت الجاسوسية البريطانية داخل صفوف الثورة المهدية بالفتن بعد أن تجاوبت معها الكثير من الدول العربية والإسلامية وتمكنت بريطانيا بعد ذلك بالاستعانة بالجيش المصري المغلوب على أمره وبقيادة الضباط البريطانيين من إخماد ثورة المهدي ونجحت بريطانيا في غرس بذور الخلاف بين السوداني والمصري. ثم استدارت على المهدية نفسها وخلقت زعامة خائنة لتعاليم المهدي من أبنائه هو عبد الرحمن المهدي، كما استعانت بالطائفة الميرغنية والشريف الهندي في توطيد دعائم حكم بريطانيا ونفس الشيء تكرر بعد توقيع اتفاقية السودان، وفي غفلة من المسئولين المصريين الذين لم يفطنوا لملابسات الألاعيب البريطانية في تعاملهم مع الثورة المهدية. فقد قامت بريطانيا، وفي غفلة من المصريين، باللعب داخل صفوف الاتحاديين بزعامة الأزهري الذي كنتم تعتمدون عليه، وفي زيارته لبريطانيا قبل تقرير المصير تم طبخ الدور بالكامل وعاد وهو ينادي بالاستقلال متخليا عن المتفق عليه مع المصريين من تحقيق الوحدة، وبأموال أمريكا، وبتغلغل النفوذ البريطاني في السودان وسيطرتهم على الوزارات السودانية عن طريق وكلاء الوزارة السودانيين الدائمين وكلهم عملاء لبريطانيا فشلت الوحدة. . . وبشكل مؤكد ولا أمل لمصر في تغيير الوضع داخل السودان

وكل ما نرجوه منكم هو تحسين وتقوية العلاقات بين شعب مصر والسودان والذي عن طريقها يمكن تحقيق ما هو أقوى وأثبت من الوحدة.

الواقع أنني لم أجد ما أرد به على كلام هذا الصديق المدعم بالأسانيد التاريخية وكان هذا الحديث مجال تقرير شامل لي عن موضوع الوحدة أو الاستقلال. وأعتقد أنه كان من ضمن الأوراق التي استندت إليها مصر في مباركة رغبة السودان في الاستقلال.

الصراع في منطقة الشرق الأوسط

منذ وصولي إلى الخرطوم في أول يناير سنة ١٩٥٥ وما قبلها بعد إبرام اتفاقية السودان والتطورات التي حدثت في الرأي العام السوداني منذ إبرام الاتفاقية في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣. ومنذ إبرام اتفاقية الجلاء في أكتوبر سنة ١٩٥٤ اتسم الموقف الداخلي في مصر بالهدوء. كانت مصر مصممة على التفرغ لمعركة التنمية وذلك بالبدء في تنفيذ مشروع السد العالي. ومنذ عام ١٩٥٣ حاول دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة، ثم إيدن في فبراير سنة ١٩٥٤ إقناع مصر بضرورة وأهمية قيام اشتراكها في حلف عسكري دفاعي لمنطقة الشرق الأوسط (امتدادا لمشروع صدقي بيفن الذي سبق ورفضته مصر قبل الثورة) لسد الفراغ بعد جلاء القوات البريطانية عن مصر على أن يقوم العرب بمساندة هذا الحلف، بمباركة مصر له.

رفضت مصر وعارضت هذا الحلف مشيرة وبكل وسيلة وبخاصة في وسائل إعلامها وبشكل مركز في إذاعة صوت العرب المسموعة في العالم العربي كله بالإضافة إلى الإذاعات الموجهة لدول العالم الثالث وهي مناطق نفوذ الاستعمار القديم والكتلة الغربية. وفوجئت مصر بالدول الغربية العظمى تحاول استئناس مصر وتطويعها لتفرض عليها التبعية، وكلما كانت تعارض مصر في قبول ما رسمه لها الاستعمار القديم كالدخول في أحلاف عسكرية تحتويها، كانت الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة. وطلبت مصر السلاح من الغرب لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية، وأمعن الغرب على فرض الشروط المجحفة، وحاولت مصر طلب المعونات الاقتصادية والعسكرية من روسيا فلقيت من الغرب التهديد والوعيد، ودخلت مصر في دوامة.

بعد أكتوبر سنة ١٩٥٤ استخدمت كل من بريطانيا وأمريكا شتى أساليب الضغوط على مصر لتعيد إلى منطقة الشرق الأوسط استكانتها السابقة للاستعمار الغربي خصوصا مع ظهور النفوذ الروسي المتطلع للانتشار وكسر حصار التحالفات الغربية من حوله خاصة في المناطق حديثة الاستقلال ذات التيارات الوطنية.

كانت المهمة هينة وبسيطة بالنسبة لإنجلترا وأمريكا في أغلب دول الشرق الأوسط، ولكنها كانت صعبة ومستعصية في تعاملها مع مصر.

تحسن الموقف في السودان

كل هذه المواقف الصعبة التي واجهت بها مصر الضغوط المختلفة من الدول العظمى وبخاصة من الكتلة الغربية والولايات المتحدة جعلت الرأي العام العربي يتجاوب مع مواقف مصر المتطلعة لتحرير إرادتها من دوائر التبعية. وحيث إن السودان علاوة على انتمائه للوطن العربي، فإنه برغم ما شاب علاقاته بمصر من تدهور في فترة تقرير مصيره والتي عاصرت فترة منها، فقد تغير الموقف كلية هناك في آخر عام ١٩٥٥ ومطلع عام ١٩٥٦ سواء على المستوى الرسمي أو الشعبي. وعادت الثقة المتبادلة بين القطرين الشقيقين.

إجازة بلا عودة

في الأيام الأخيرة من يونيو سنة ١٩٥٦ حضرت إلى القاهرة في إجازة وقبل أن أغادر الخرطوم حصلت على فيزا (تصريح) العودة Re - Entery Visa.

بعد الخلاف المستمر بيني وبين وكيل وزارة الداخلية السودانية الدائم محمد عثمان يس تلافيا لاعتراض المسئولين في قنصلية السودان بالقاهرة على إعطائي تأشيرة الدخول، ومع ذلك فقد كانت آخر إقامة لي بالسودان. وفي مساء ٢٦ يوليو وكنت في عربتي قرب ميدان السيدة زينب أستمع من خلال راديوا السيارة إلى خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في احتفالات ٢٦ يوليو بالإسكندرية، وأثناء الخطاب أخذ يشرح ملابسات تمويل السد والظروف والمراحل التي مرت بهذا التمويل، وأعلن في نهاية هذا الاستطراد قرار تأميم شركة القنال.

وفي يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٦ صدرت لي الأوامر بعدم العودة إلى السودان كي أقوم بمهمة في مصر بعد تتابع الأحداث نتيجة تأميم قنال السويس. كلفت بإعادة تنظيم المقاومة السرية بمنطقة القنال لأن الموقف الدولي الغربي بدأ يشن حملة مسعورة ضد مصر. توحي بأن هناك عدوانا مرتقبا على مصر كرد على عملية تأميم القنال.

وفي الأيام التالية شكلت بريطانيا وفرنسا وباقي دول الكتلة الغربية هيئة دولية مستفزة اسمتها «هيئة المنتفعين» وعن طريق هذه الهيئة مارس الغرب علينا ضغوطا مختلفة جعلت القيادة في مصر تعد العدة لأسوأ الاحتمالات. وهي العدوان المسلح.

المقاومة السرية ضد الاحتلال

في النصف الثاني من يوليو سنة ١٩٥٦، تم انتقاء نخبة من الزملاء من ضباط الجيش والبوليس والمدنيين وتحدد لكل منهم منطقة لنشاطه للتحضير لعمل المقاومة السرية. كان في منطقة «أبو سلطان» الزميل سعد ناظر محطة «أبو سلطان» والذي سبق عمله معي أثناء مقاومة البريطانيين في القنال في الأعوام السابقة لإقامة الجلاء، وكانت له مدة خدمة طويلة بالمنطقة وله معارف في كل مكان. وفي كل القرى المحيطة كلفته ومعه المواطن المكافح غريب تومي (غريب خضيري) بإعادة الاتصال بالمندوبين السابقين بالمناطق الأخرى والمنتخبة لقيادات المقاومة لإيوائهم وتحضير غطاء مناسب لكل منهم. ثم تم تزويد كل منهم بموتوسيكل أو فيسبا. وتمت عملية تجهيز أماكن رئاسات المقاومة الفرعية، وذلك في مدة عشرة أيام وكان التوزيع كالآتي:

الإسماعيلية: عبد الفتاح أبوالفضل (رئاسة)، القنطرة غرب: محمد الصلاحي والحاج محمد المعداوي، الإسماعيلية: ضياء الدين حسنين، فايد: م. أول يحيى راشد، السويس: م. أول عبد القادر عبد العظيم، الصالحية: الشيخ حسين اللق (شيخ البلد)، بور سعيد: صاغ يحيى القاضي، يوزباشي مصطفى كمال الصياد، باشجاويش باراشوت حسني عوض، السيد: إبراهيم عبد الغفار، السيد: محمد على الشاعر.

وبدأت القيادات فورا في تجنيد أفراد جماعات المقاومة ومن نفس أفراد المقاومة الشعبية الذين سبق تعاملهم ضد الجيش البريطاني قبل اتفاقية الجلاء، ولكن بشكل سري. وكل قيادة جهزت في منطقتها مخازن لتشوين الأسلحة والمتفجرات

والمعدات التي ستستخدم في المقاومة السرية وإذا بدأ العدوان كان من المفروض أن تتحول هذه المقاومة السرية إلى مقاومة شعبية شاملة.

شعرت بالموقف يتحرج وقد تسوء الأحوال ولذلك فقد عجلت باستلام أكبر كمية من الأسلحة والمعدات ومواد من الجيش والحرس الوطني، وقام الزميل صلاح هدايت بإعداد كميات كبيرة من زجاجات المولوتوف والقنابل القرطاسية (هولو تشارج Holow Charge، وأعددت مقرا سريا لرئاستي بالإسماعيلية في إحدى الشقق هناك.

العدوان الثلاثي

في مساء يوم الاثنين ٢٩ أكتوبر كنت بمدينة الإسماعيلية وعلمت هناك ومن خلال اتصال تليفوني مع رئاسة المخابرات بالقاهرة أن إسرائيل قامت بالاستيلاء أثناء الليل على منطقة ممر متلا في سيناء وهي خالية من القوات المصرية وبها فقط بعض جنود الحدود مخترقة بذلك الحدود المصرية. وقد تمت الغارة على الممر بإسقاط جنود المظلات، وكذلك تم الهجوم الإسرائيلي على سيدر الحيطان بقوة تقدر بكتيبة وأن حجم العملية يدل على أنها مقدمة لعدوان شامل وليست عملية إسرائيلية محدودة.

وفي صباح يوم الثلاثاء ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٦ سافرت إلى القاهرة وقابلت المشير عبد الحكيم عامر الذي أمر بسرعة صرف جميع ما أحتاجه من معدات وأسلحة من مخازن الجيش والحرس الوطني لتوزيعها على المقاومة الشعبية. وفتحنا مركز تجميع لقوات المقاومة من خارج المنطقة بعزبة الأستاذ حسين ذو الفقار عمدة قرية طويحر بالشرقية ومركز رئاسة في نفيشة في عزبة العمدة قاسم سلطان.

وفي مساء ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٦ ظهرت تمثيلية الإنذار البريطاني الفرنسي مطالبا الجانبين المصري والإسرائيلي بإيقاف القتال برا وجوا وأن يسحب كل منهما قواته بعيدا عن القناة بمسافة عشرة أميال على الأقل. وعلى أن توافق مصر على احتلال القوات البريطانية والفرنسية مؤقتا للنقط الرئيسية في كل من بور سعيد والإسماعيلية والسويس لضمان حرية الملاحة، على أن ينفذ ذلك خلال ١٢ ساعة

وإلا سيضطرون للتدخل العسكري. ورفض مجلس الوزراء المصري هذا الإنذار واستمر الطيران المعادي في ضرب قواتنا طول النهار على طريق تقدمها إلى سيناء.

وفي يوم الأربعاء ٣١/ ١٠/ ١٩٥٦ تأكدت لدينا المعلومات التي سبق أن رفعها جهاز المخابرات إلى الرئاسة عن الاستعدادات البريطانية في قبرص ومالطة للنزول في منطقة قناة السويس وذلك بقيام العدو بغارات جوية مركزة ومتلاحقة علي جميع المطارات المصرية بمنطقة القناة، وظهر جليا أن الهدف هو تدمير السلاح الجوي المصري الذي كان مسيطرا على سماء المعركة مع إسرائيل حتى هذا اليوم بالرغم من مساعدة الطيران الفرنسي للقوات الإسرائيلية.

وفي يوم الخميس ١/ ١١/ ١٩٥٦ استمرت الغارات المركزة على جميع الأهداف والمنشآت المصرية وبخاصة المطارات العسكرية، وبدأت الطائرات البريطانية والفرنسية في اللجوء إلى الطيران المنخفض لتحقق دقة إصابة أهدافها . . وصدر في صباح يوم ١/ ١١/ ١٩٥٦ قرار مصري بسحب القوات المصرية من سيناء لإفساد مخطط إسرائيل بقطع خط الرجعة على الجيش المصري في سيناء واستمرت الطائرات المعادية في ضرب القوات على طريق الانسحاب. وفي الوقت نفسه وصلت كميات هائلة من الأسلحة للتوزيع في المنطقة على الشعب بأكمله ليقاتل بجانب الجيش.

وفي يوم الجمعة ٢/ ١١/ ١٩٥٦ ألقى الرئيس عبد الناصر خطابه الشهير في الأزهر الشريف موضحا للشعب المصري وللعالم، أبعاد التآمر الإنجليزي الفرنسي الإسرائيلي وانتشر على أثر ذلك النداء «حانحارب. . . حانحارب» رمزا للمقاومة.

المنظر المؤلم

وفي يوم السبت ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أثناء مروري على طريق القاهرة الإسماعيلية مع قوى المقاومة الشعبية لمقاومة الغارات الجوية على الطريق دخلت محطة أبو صوير الجوية العسكرية وكان منظر العدد الكبير من الطائرات المصرية الميج الروسية الصنع وهي محطمة على أرض المطار مؤلم للغاية، وعلمت هناك من أحد الفنيين أن هذه الطائرات ما كان يجب أن تضرب وتحطم بهذه السهولة.

(أولا) لأن الزمن الذي يستغرقه الطيار من وقت الإنذار حتى الصعود إلى الجو بهذا النوع من الطائرات زمن بسيط جدا ولكن الطيارين المصريين وقت ضرب القاعدة كانوا يبيتون في فندق بمدينة الإسماعيلية (فندق المسافرين) ولم يكن بالمحطة العسكرية أي طيار.

(ثانيا) أنه كان من المفروض على المسئولين عن القاعدة أن يخفوا الطائرات تحت الأشجار الموجودة حول أرض المطار، خصوصا وأن هذا النوع يمكن سحبه بسهولة ولو بالأيدي أو بواسطة الدواب لخفة هذه الطائرات.

وفي اليوم نفسه أرسلت كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ومواد النسف إلى المقاومة الشعبية في بور سعيد دخل بها الزميل سمير غانم وعاد.

● وفي بور سعيد صباح يوم الأحد ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٦، بدأ الهجوم المركز من العدو على بور سعيد وكانت القطع البحرية الفرنسية والبريطانية قد دخلت الغاطس أمام بور سعيد حتى وصل بعضها إلى مسافة ٤٠٠ متر من الشاطئ ووجهت نيران مدافعها على شواطئ بور سعيد وبور فؤاد وكانت تسقط ألف دانة مدفعية في الدقيقة على ساحة بور سعيد آنذاك وهي ٤ كيلومتر مربع وبذلك فاقت كثافة النيران المعادية، أكبر تركيز بالنيران لأي معركة من معارك الحرب العالمية الثانية؛ فدمرت جميع الأسلحة المصرية الثقيلة المضادة للسفن والطائرات، وأمست بور سعيد خالية من الأسلحة الثقيلة.

وبدأت قيادات المقاومة الشعبية بالمدينة: مصطفى كمال الصياد وحسني عوض التنسيق مع ما تبقى من وحدات الجيش القليلة في المدينة للتعاون معها والاشتراك في خطة الدفاع بجمع طوائف الشعب. وكان قائد الكتيبة الرابعة مشاة العقيد حسين توفيق يس وهو المسئول عن الدفاع على طول الشاطئ ووحداته منتشرة من منطقة مطار الجميل إلى الجبانات إلي البلاج إلى كوبري الرسوة بأعداد بسيطة. كذلك كان هناك عدد محدود من رجال الجيش المصري في منطقة مكاتب شركة القنال وكان الموقف مؤثرا للغاية عندما رحب القائد حسين توفيق يس باشتراك المقاومة مع قواته، وقال لمصطفى الصياد إنه كان يشعر قبل هذه المساهمة الشعبية بضعف وقلة قواته وبالوحدة القاتلة على طول هذه الجبهة. ولكن الشعب المسلح

بالروح العالية رفع من روحه وروح جنوده المعنوية وأقسم بالله على المقاومة لآخر طلقة. استمرت الغارات الجوية ومدفعية الأسطول في الضرب والإجهاز على مواقع المدفعية المصرية ومدفعية السواحل وبطارية الصواريخ والتي استشهد عدد كبير من جنودها. نظمت المقاومة طريقة لترحيل النساء وكبار السن والأطفال عبر البحيرات إلى دمياط والمطرية وفي مساء ١٩٥٦/١١/٤ كانت وحدات الجيش المتبقية في المدينة كلها من المشاة فقط، وهي عبارة عن الأحياء من الكتيبة ٢٧٥ في بور فؤاد والكتيبة ٢٩١ والكتيبة الرابعة وكذلك كانت هناك بطارية مدافع صاروخية في حي المناخ وكتيبة حرس وطني بين مطار الجميل والبلاج.

● ويوم الاثنين ١٩٥٦/١١/٥ في الساعات الأولى من الصباح استأنفت مدافع الأسطول والطائرات المعادية الضرب على مواقع وخنادق الجيش والمقاومة ثم توقفت مرة واحدة بما كان يوحي ببدء إنزال قوات العدو على الشاطئ. وفي الساعة التاسعة صباحا أسقط العدو موجته الأولى من رجال المظلات بمنطقة مطار الجميل وتمكنت قوات المقاومة والجيش هناك من إبادتها عن آخرها. وفي التاسعة هبطت الموجة الثانية بشكل موسع على طول الشاطئ وعلى بور فؤاد، وأبلى الجميع بلاء حسنا في مقاومتها وأبيد معظمها إلا بعض هابطين منفردين تمكنوا من الهروب في المناطق القريبة ولكن الشعب كان يتعقبهم ويجهز عليهم، وحدثت خسائر كبيرة في جنود الجيش واستشهد كثير من أفراد المقاومة.

في الوقت نفسه ضرب البطل القائد العقيد حسن توفيق يس قائد القوات المصرية المدافعة، المثل الأعلى في الفداء، واستشهد في خندقه في منطقة الجبانات. وكان القدوة في سلوكه وقوة عزيمته لجنوده وإخوانه من أفراد الشعب المشترك معه في الدفاع المجيد. ونظرا لكثرة خسائر العدو في الهابطين من المظلات في هذه المناطق الدفاعية المستميتة، تم إسقاط الموجة الثالثة بشكل مكثف على المناطق الخالية من الدفاعات حول وابور المياه، وموجة أخرى من المظليين الفرنسيين في بور فؤاد في منطقة بعيدة بعض الشيء عن الدفاعات المصرية وكونت رأس كوبري بها بعد أن طاردها بعض أفراد المقاومة والجنود المصريين. وحدثت خسائر كثيرة بين الطرفين، ولكن الفرنسيين تمكنوا أخيرا من احتلال بور فؤاد كما تمكنت القوات الهابطة عند وابور المياه واحتلته قبل غروب يوم ١٩٥٦/١١/٥.

• وفي مساء يوم الاثنين ٥/ ١١/ ١٩٥٦ وبينما أيدن يعلن كذبا في مجلس العموم أن بور سعيد استسلمت، استأنفت الغارات الجوية المركزة على المدينة وبخاصة على مخازن الأخشاب ومستودعات البترول والكبائن الخشبية وحي المناخ وكل ما هو قابل للاشتعال. واشتعلت المدينة بشكل مخيف وتحولت إلى كتلة هائلة من النيران. وسيطر العدو في مساء هذا اليوم على موقعين فقط هما موقع وابور المياه وموقع منعزل في بور فؤاد.

• بعد فجر يوم ٦/ ١١/ ١٩٥٦ وعلى أول ضوء للصباح كانت شوارع المدينة مملوءة بجثث الشهداء من المدنيين، واستأنف العدو العمليات الجوية ومدفعية الأسطول الضرب بشكل مركز ومتواصل إلى أن أحدثوا ستارة كثيفة من الدخان على طول الساحل استطاع بها العدو الاقتراب والتقدم بقوارب إنزال الجنود المحملة، ونجح في إنزال قوة مشاة الأسطول وعدد من الدبابات وتمكنت هذه القوات المعادية من احتلال مناطق متفرقة على الساحل.

في الوقت نفسه تمكنت قوات مظلات من احتلال مطار الجميل بعد تدمير كل دفاعاته، تحت ستار نيران الغارات الجوية ومدفعية الأسطول. تمكنت قوات الأسطول المعتدي من احتلال ميناء بور سعيد وتمكن العدو من إنزال جميع وحداته ودباباته التي اتجهوا بها وخلفها الجنود المترجلون إلى المدينة بعد أن أحدثوا ثغرة في سور الميناء، وانتشروا في أنحاء مدينة بور سعيد وكانت تقابلهم الجموع الشعبية المسلحة، وأحدثوا في الشعب خسائر كبيرة إلى أن وصلوا داخل الشوارع، فكانت المعارك العنيفة مع الشعب الرابض في كمائن فوق الأسطح وفوق أشجار الحدائق وخلف البواكي ومن داخل المنازل، وكانت معركة رهيبة ولكن غير متكافئة، حيث تمكن العدو من هدم كثير من المنازل بواسطة مدافع الدبابات. وكانت هناك بطولات كثيرة منها:

• **عملية الأشجار**: انتشر بعض أفراد من الفدائيين المصريين فوق أشجار حديقة البلدية (حديقة الباشا) وانتظروا مرور إحدى دبابات العدو وخلفها عدد من الجنود المترجلين، وفجأة فتحوا عليهم النيران من فوق الأشجار فقضوا على جميع المترجلين من العدو وقبل أن توجه مدافع الدبابات إليهم النيران تمكنوا من النزول والهروب.

● كمين خلف البواكي : كمن جمع من الفدائيين خلف البواكي عند المنزل ٤٥ شارع عبادي في انتظار مرور إحدى دوريات الأعداء وعندما أخذوا يطلقون النيران على الدورية تمكنت الدورية من إصابة يسري بخيت الذي استشهد في الحال وسقط جنديان بريطانيان قتلى ، وتقدم شقيق الشهيد يسري بخيت ليحمل جثته بعد انسحاب أفراد المقاومة ، واستشهد الشقيق الآخر وجدي بخيت وكانت والدتهما مقيمة في نفس المنزل فخرجت تصيح على ولديها غير عابئة بجنود العدو ، اتجهت صوب الجثتين وقبل أن يصوب جنود الأعداء النار على الأم الثكلى تمكنت مجموعة أخرى رابضة في إحدى النوافذ من الضرب على باقي أفراد الدورية البريطانية وقتل جميع أفرادها .

● وعند تقاطع شارع محمد على بالقرب من شارع الحميدي أمام كنيسة الأقباط كانت هناك دبابة بريطانية مفتوحة البرج ويقف به ضابط يراقب المنطقة وخلفه دبابة أخرى وفجأة خرج الفدائي عبد الله إبراهيم وبيده قنبلة يدوية واندفع بسرعة فائقة بجانب الدبابة وقبل أن يأخذ الضابط حذره ألقي الفدائي بالقنبلة داخل فتحة الدبابة وأصيب الضابط ، وحدث انفجار داخل الدبابة أوقفها ، وأطلقت الدبابة الثانية النيران على البطل واستشهد الفدائي عبد الله إبراهيم .

● احتل بعض القناصة البريطانيين أسطح كثير من المنازل ليؤمنوا تحركات قواتهم في الشوارع . وفي منطقة حديقة زغلول أمام رصيف فرقة المطافئ كانت مجموعة من الفدائيين تسير ولم يكن موجودا أي جنود بريطانيين في الشوارع ولم يتوقع الفدائيون وجود القناصة بأعلى المنازل المجاورة وفجأة أطلق القناصة النيران عليهم وأصابوا عددا من الفدائيين واستشهد بعضهم ، ولكن كان معهم الفدائي اليوناني الأصل والمصري الموطن بنايوتي مافرو ماتين وتأكد من مكان القناصة من فوق منزل نفوسه واحتمى بنايوتي بجانب أحد البواكي ومن موقعه وبمدفعه أخذ يطلق النيران عليهم وحضرت دورية بريطانية في الحال وأطلقوا النيران على بنايوتي واستشهد مع زملائه المصريين بعد أن تمكن من قتل أحد القناصة البريطانيين .

● في مساء يوم ٦/ ١١/ ١٩٥٦ قطعت القوات المعتدية مياه الشرب عن المدينة من وابور المياه حيث كانوا يحتلون منطقة محطة وخزان المياه .

● وفي الساعة الثانية من صباح يوم ٧ نوفمبر سنة ١٩٥٦ أوقف المعتدون إطلاق النار طبقا لقرار هيئة الأمم، ولكنهم استمروا في إشعال الحرائق في المباني التي كانوا يعتقدون أن بها أوكارا للمقاومة الشعبية، وباتت بور سعيد حزينة على شهدائها الأبطال عطشى بغير مصدر للمياه، جرحي لا يجدون الرعاية الكافية لتضميد الجراح ولكنها كانت رافعة الرأس لقيامها بواجبها المقدس في الدفاع لآخر رمق.

عملية نسف طريقي القناة والمعاهدة

● يوم ٦/ ١١/ ١٩٥٦ أعلن همر شلد سكرتير الأمم المتحدة موافقة بريطانيا وفرنسا على إيقاف القتال في مصر ابتداء من منتصف ليل ٦/ ١١/ ١٩٥٦، ولعلمنا أن الكلام شيء والفعل شيء آخر توقعنا تقدم القوات المعادية واتصل كمال رفعت بالرئيس جمال عبد الناصر واقترح كمال نسف طريقي القنال والمعاهدة واستمرارنا في المقاومة.

● واتفق مبدئيا على نقطة دفاعية بمثابة عنق الزجاجة حددناها على الخرائط وسط الملاحات وأراضي رخوة جدا يصعب تقدم الدبابات عليها إذا ما نسف الطريقان عندها، لتعطيل أي تقدم للجيش البريطاني والفرنسي في اتجاه الإسماعيلية. وثم التقدم في اتجاه بور سعيد لاستعادة موقع جسر الحرش.

وأبلغنا بعض المتطوعين بالإسماعيلية أن هناك عملية فدائية سنقوم بها وتوافدت علينا أعداد كبيرة من المتطوعين المتدربين وغيرهم. وفي السابعة والنصف مساء تحركنا في طابور كبير من العربات لا تقل عن ٧٠ عربة مدنية محملة بعضها بالأفراد من جميع الأعمار من سن ١٤ سنة إلى ٧٠ سنة ويحملون أسلحتهم ومواد النسف وأدوات الحفر.

واصلنا زحفنا إلى جسر الحرش بتكتيك قتالي تحرزا أن تكون القوات المعادية قد احتلته، وفي النهاية وجدناه خاليا ووزعت القوات عليه في مواقع دفاعية وعدت مع بعض الأصدقاء إلى موقع النسف. وأثناء حفر مواقع النسف خرج إلينا أهل القنطرة غرب وعلى رأسهم مأمور قسم القنطرة البكباشي عمر وهبي ومعه كل قوة

البوليس هناك، وقوة أخرى من خفر السواحل وقوة مسلحة من أهالي القنطرة عندما شعروا بوجودنا ونحن نعمل على الطريق في ظلمة الليل حضروا مقدمين أنفسهم للمقاومة في أي عمل يساهمون به للدفاع عن بلادهم وعمل الجميع بعزيمة صادقة مما عجل بالانتهاء من عملية الحفر. ثم تم نسف الطريق بنجاح بفضل القنابل القرطاسية Hollow Charge.

● حضرت قوات الحرس الوطني محملة على اللواري وكان خليطا من طلبة الجامعات وطلبة كلية البوليس وموظفين وتركنا لهم جميع أفراد المقاومة التي كانت معنا وكذلك قوات البوليس وخفر السواحل ليعاونوا في عملية الدفاع خلف المنطقة المنسوفة والتي كانت بمثابة مانع للتقدم للعدو وذلك لتعطيل أي تقدم للأعداء في اتجاه الاسماعيلية وأثناء الانتظار حتى يتم الاحتلال، فوجئت بصوت قائد قوات الحرس الوطني في الظلام، ووجدتني أتذكر هذا الصوت لأني أعرف صاحبه تمام المعرفة واقتربت منه، فتحققت أنه كمال عزمي، والذي يحمل رتبة يوزباشي احتياطي. كنت قبل هذه اللحظة أجهل كل شيء عن نشاطه الوطني حيث كان المسئول عن تدريبي في شركة الإعلانات المصرية دار الجمهورية قبل سفري إلى السودان. أثناء فترة تدريبي كان يبدو لي أنه شخص مدني أبعد ما يكون عن اختياره لعمل جاد كالتطوع والعمل الفدائي وعلمت أنه عمل ضابطا احتياطيا متطوعا في حملة فلسطين مع قوات أحمد عبد العزيز. وكان عمله الفدائي مغايرا تماما لروحه المرحة أثناء عمله المدني بشركة الإعلانات.

● سمعنا أن جي موليه رئيس وزراء فرنسا أعلن عن سقوط الإسماعيلية في البرلمان الفرنسي، فاستنتجنا أنهم قد يهاجمون الإسماعيلية، فعدنا إلى الإسماعيلية لتجهيز مواقع دفاعية حولها وبداخلها.

في نفس الليلة (٦/ ١١/ ١٩٥٦) وجهت روسيا إنذارا جديدا إلى الدول المعتدية أعلنت فيه أنها ستسمح لعدد هائل من المتطوعين الطيارين ورجال الدبابات والمدفعية والضباط بالسفر إلى مصر للقتال جنبا إلى جنب مع الشعب المصري، لطرد المعتدين إذا لم ينسحبوا.

وإزاء تباطؤ المعتدين في الانسحاب، أعلن الاتحاد السوفيتي أنه لن يقف مكتوف الأيدي أمام هذه القرصنة الدولية، وأذيع أيضا في نفس الليلة نبأ نسف سوريا لأنابيب البترول التي تؤثر على تدفق بترول العرب المحلي إلى بلاد المعتدين، وكذلك نسف آبار البترول في جميع أنحاء مناطق البترول العربية وكان للإخوة الفلسطنيين الفضل في كل ذلك.

● وفي الساعات الأولى من صباح يوم ٧/ ١١/ ١٩٥٦ وصلتنا إشارة من القوة التي احتلت جسر الحرش. (من الحرس الوطني بقيادة كمال عزمي) أن هناك قوة معادية تتقدم، سمعوا أصواتها من موقع الكاب أمامهم. وبعد ساعة أخرى حوالي الساعة الثانية اشتبكت دورية من العدو مع قوة دفاع جسر الحرش واستشهد اثنان من طلبة الجامعات محمد محروس، وبهجت قبوادان، وأصيب طالب الطب محمد صادق سامي، وأسر طالب الجامعة جواد حسني الذي استشهد بعد ذلك وهو في معسكر الأسري في بور فؤاد، وقتل ثلاثة من الأعداء.

وتوقف تماما تقدم العدو في اتجاه القنطرة والإسماعيلية، وتبين على ضوء النهار وعلى مرمى البصر من موقع الحرش أن الفرنسيين كانوا يحتلون مبنى المدرسة في محطة الكاب أمام مواقعنا شمالا. وبذلك نجحت خطة إيقاف التقدم.

لا راحة لعدو على أرضنا

أعلنت بريطانيا وفرنسا موافقتهما على إيقاف القتال الساعة الثانية صباح يوم ٧/ ١١/ ١٩٥٦ ورغم ذلك فقد استمرتا في القيام بعمليات عسكرية حول مداخل بور سعيد وكانت كلها ضد المقاومة الشعبية إلا أن المقاومة هي أيضا لم تتوقف عن عملياتها ضد القوات المحتلة.

وحين اكتمل تنظيم المقاومة تكون إعلام شعبي داخل بور سعيد تحت إشراف محمد أبو نار الذي باشر إصدار نشرات بعد كل عملية من عمليات المقاومة أوعمليات التحرش بالأعداء ليطلع شعب بور سعيد أولا بأول على مجريات أمور المقاومة. وفي رحلة لاحقة انضم إليهم طاقم إعلام من المقاومة التابعة لي وتسلل

إلى داخل بور سعيد يقوده الأستاذ محسن لطفي وتمكنوا من إصدار جريدة «المقاومة الشعبية» وجريدة «الأنصار» من داخل بور سعيد.

وفي يوم ٨/ ١١/ ١٩٥٦ تمكن الزميل اليوزباشي سمير غانم من دخول بورسعيد عن طريق المطرية والبحيرات لتولي قيادة المقاومة السرية لبدء عمليات قتالية وتخريبية ضد القوات البريطانية وإمداد القاهرة بالمعلومات عن القوات المصرية.

● وقد قام الفدائيون في يوم ١١/ ١١/ ١٩٥٦ ولمدة أربع ساعات كاملة بالاشتباك مع موقع يحتله الفرنسيون في بور سعيد.

● وفي يوم ١٤/ ١١/ ١٩٥٦ وصلت إلى بور سعيد متسللة قوات من الصاعقة المصرية التابعة للجيش بقيادة جلال هريدي لتعزيز المقاومة الشعبية ومعها أسلحتها وذخائرها علاوة على ما تسلمته من داخل بور سعيد من الزميل سمير غانم.

● وفي يوم ١٥/ ١١/ ١٩٥٦ اختبأت مجموعة من الفدائيين تحت البواكي وفي المنازل في شارع سعد زغلول وانتظروا مرور دورية بريطانية أمام سينما مصر. وفي الساعة التاسعة صباحا مرت سيارة جيب وسيارة مدرعة وفتح الفدائيون النار عليها في عملية خاطفة وانسحبوا في الحال.

وفي نفس اليوم اشتبك عدد من الفدائيين مع دورية من الأعداء مترجلة وألقوا عليها القنابل اليدوية.

وفي المساء قامت جماعة أخرى من الفدائيين بإلقاء قنابل على معسكر للقوات المعتدية داخل المدرسة اليونانية بشارع سعد زغلول وقام تشكيل آخر من المقاومة بنسف سيارتين بريطانيتين بشارع الملكة فريدة.

● وفي يوم ١٧/ ١١/ ١٩٥٦ قام تشكيل آخر بمهاجمة دورية بريطانية بشارع عباس وأصيب في هذه العملية الفدائي عبد المنعم مختار وأثناء نقله بعربة الإسعاف إلى المستشفى الأميري ومعه إخوانه قبض البريطانيون على كل من الفدائيين محمد شاكر مخلوف ومحمد مخلوف. وفي اليوم التالي مباشرة فتح الفدائيون النار على سيارة الإذاعة البريطانية التي كانت توجه نداءات للأهالي، وتعطلت السيارة.

وجـــاء دوري لدخـــول بور سعيــد

عـندمـا وصلـت أعـمـال المقاومـة إلى هـذه الـدرجة تـقرر أن تـتوجـه نـصف الـقيادة الرئيسية للفدائيين من الإسمـاعيلية إلى داخل بور سعيد وجـاء بذلك دوري لدخول بور سعيد.

بـعد أن استقرت أوضـاع العدو هناك، حـاول المراوغة في ميعـاد الانسحاب فقمت ومعي الزميل محمد فائق والزميل ضابط اللاسلكي محمد فرج ومعنا جـهـاز لاسلكي. ووصلنا إلى المطرية تمهيـدا لدخـول بـور سـعـيـد في يوم ١٦/ ١١/ ١٩٥٦ متسللين وأبحرنا من المطرية بملابس الصيادين على مركب صيد كبيرة يقودها الريس عبد المنعم في اتجاه بور سعيد. وعندما أوشكت المركب على الوصول إلى مشارف المدينة لاحظنا على مرمى البصر وجود بعض نقاط الحراسة البريطانية على الشاطئ ولم يكن قد تم اكتشافها من قبل. فأسرع الريس عبد المنعم بإجراء مناورة بمركبته وأمر رجاله بالتظاهر بالصيد، بينما طلب منا نحن الثلاثة النزول إلى قاع المركب وكان يستخدم كمخزن لكثير من أجولة السكر والدقيق ومواد التموين وبعض أقفاص السمك. قلت ضاحكا للزميل محمد فائق» علينا أن نعتبر أنفسنا ثلاثة أجولة من السكر التي لا تفكر ولا تتكلم. ولكن بوصولها بور سعيد ستكون مادة حلوة. وشعرنا بالمركب وهي تدور وتلف كثيرا في البحيرة وفعلا كان الريس عبد المنعم يتجول بمركبه خلال الأعشاب الطويلة مناورا متظاهرا بالبحث عن السمك والصيد وتمكن في النهاية من الخروج من وسط الأعشاب مرة واحدة ومباشرة إلى موقع على شاطئ بور سعيد بعيدا عن نقط التفتيش البريطانية على بحيرة المنزلة. وأخيرا نادي علينا وخرجنا من قاع المركب واشتركنا مع باقي الركاب في تفريغ حمولة البضائع من المركب. وكانت تنتظرنا عربات كارو يد فوضع لنا الريس عبد المنعم كمية من أقفاص السمك على عربة اليد وسرنا مع صاحب العربة إلى مكان معين متفق عليه. أما جهاز اللاسلكي فقد كان مقسما إلى أربعة أجزاء ملفوفة في الخيش وموزعة داخل أربعة أجولة من السكر. وتولى الريس عبد المنعم مسئولية توصيلها إلى قيادة المقاومة داخل بور سعيد، وأخيرا رست المركب على البر في القابوطي.

وتركنا الريس وسرنا خلف عربة اليد كما يفعل أصحاب البضائع الأخرى ورويدا رويدا ابتعدنا عن شاطئ البحيرة بعيدا عن نقط المراقبة البريطانية حتى دخلنا شوارع المدينة الضيقة وبعد مدة توقف بنا صاحب العربة أمام مطعم فول وطعمية نادى على صاحب المطعم الحاج محمد شلاطة وكان رجلا مهيبا كبير السن عليه سمات الصلاح والتقوى وصعدنا إلى منزل نأخذ قسطا من الراحة، تناولنا بالمنزل وجبة إفطار شهية من الفول والطعمية، وكان ضابط اللاسلكي فرج محمد فرج قلقا على جهازه وفجأة دخل علينا الغرفة الزميل سمير غانم. فبدلنا ملابس الصيادين بملابس عادية أحضرها سمير. وذهبنا معه إلى مركز قيادته بمكتبة محمود العدني وكان من أفراد المقاومة بالحي الإفرنجي. وهناك وجدنا أجزاء الجهاز الأربعة ملفوفة داخل أوراق الجرائد وجاهزة للتوصيل إلى أحد المنازل ليتم تركيبه وتشغيله من هناك. وفي صمت دخل علينا الشاب يحيى الشاعر وعمره آنذاك لا يتعدى ثمانية عشر عاما فأخذ إحدى اللفافات الأربع وخرج بها فوضعها على دراجة وانطلق، وعلى التوالي حضر ثلاثة شبان آخرون من إخوانه وزملائه فكرروا نفس ما فعله زميلهم يحيى الشاعر. وانزعج صاحب الجهاز فرج محمد فرج فطمأنته بأن الجهاز سيتم تجميعه في منزل يحيى الشاعر وأخذنا نضحك. وبعد وقت كاف توجهنا إلى المنزل المحدد واستقبلتنا والدته السيدة أمينة محمد الغريب بترحاب وبشاشة وأمومة محببة للنفس. وقد ساهمت هذه السيدة الفاضلة بشجاعتها وأبنائها الثلاثة في أعمال المقاومة وكانت مثلا للمرأة المصرية في الأزمات الوطنية. قامت السيدة فأفرغت جزءا من دولاب ملابسها لإخفاء الجهاز داخله، وفي الوقت نفسه قام ضابط اللاسلكي فرج بتجميع أجزاء الجهاز داخل الدولاب وصعد إلي سطح المنزل وثبت الهوائي بحيث لا يسترعي الانتباه. ثم قام بتشغيله حتى تم الاتصال بالقاهرة والإسماعيلية. واستمر فرج محمد فرج ملازما هذا المنزل وجهازه ولم يغادر هذا المكان إطلاقا حتى انسحبت القوات المعتدية من بور سعيد.

كان هذا هو الجهاز الوحيد الذي نقل أخبار بور سعيد بشفرة خاصة إلى مراكز القيادات، إلا أننا لم نستخدمه في نقل أية أخبار عن المقاومة حتى لا نقع في المحظور، لو أمكن للبريطانيين حل شفرة الجهاز. أما أنا فقد أقمت مع محمد فائق في إحدى الشقق بالحي الإفرنجي وهي شقة سامي خضير ضابط البوليس المكلف من

المحافظة للاتصال بالمقاومة. كما اتخذت لنفسي اسما مستعارا لأحد أصحاب محلات الدراجات التي تهدمت من آثار العدوان، وكان المحل يقع أمام مكتبة العدني فانتحلت اسم صاحب المحل وهو محمد غريب خليل، بينما اتخذ الزميل محمد فائق اسما آخر لأحد المدرسين بالمدرسة الثانوية ببور سعيد والذي كان قد هاجر مع أسرته إلى القاهرة واستخرجنا بطاقات شخصية بذلك عن طريق سامي خضير.

عمليـــة مخططـــة

كان هناك معسكر تابع للبوليس الحربي البريطاني وبعد الاستطلاع التفصيلي للموقع تبين أن أفراد البوليس الحربي يقيمون بأحد المباني وهو يطل على شارع الإسكندر الأكبر والسلطان حسين وخلف المبنى توجد أرض فضاء. وقد لوحظ يوميا عودة ثماني سيارات عسكرية لتقف في الأرض الفضاء بعد حلول موعد منع التجول. والأرض الفضاء... على كل ركن من أركانها الأربعة توجد دشمة مرتفعة تكسوها أكياس الرمال ويقف داخلها حارس مسلح للحراسة يقوم بتشغيل كشافات الإضاءة الليلة.

وفي مساء يوم ٢/ ١٢/ ١٩٥٦م وبعد أن تم وضع خطة دقيقة لمهاجمة هذا المعسكر تسللت أربعة أطقم من الفدائيين إلى أسطح المنازل الأربعة المشرفة على هذا المعسكر وكان قد طلب من كل فرد دور خاص ففتح الجميع نيران أسلحتهم المختلفة في وقت واحد. فقام بعضهم بضرب السيارات الثماني بالأسلحة المضادة للدبابات الـــ R.B.J. وفي نفس اللحظة قام أفراد آخرون من القناصة بإصابة الحراس الموجودين بكشك الحراسة ثم تجمعوا جميعا في مكان متفق عليه، وظلوا بأحد المنازل المهجورة حتى الصباح. وقد كللت هذه العملية بالنجاح دون أدنى خسائر في جانب الفدائيين.

عملية ملجأ الدبابات البريطانية

عقدت اجتماعا بحضور سمير غانم والرائد جلال هريدي قائد الصاعقة، ومصطفى الصياد المشرف على الجماعات الفدائية، لوضع خطة مشتركة لضرب

ملجأ الدبابات البريطانية وتقضي الخطة أن تقدم قوات الصاعقة بقيادة الملازم حسين مختار علي مهاجمة ملجأ الدبابات بالتنسيق مع قيادة المقاومة الشعبية، فتتولى المقاومة تأمين انسحاب قوات الصاعقة بعد تنفيذ الهجوم.

وفي المساء احتلت أطقم الفدائيين مواقعها المختارة بدقة. وكان الملجأ به سبع عشرة دبابة وعربة مدرعة بريطانية وهو موقع في أرض فضاء بطرح البحر في شارع ٢٣ يوليو أمام المبرة وتقوم على حراسته نقط بريطانية مسلحة. وكان مبنى السجن قريبا من الموقع فتم قيد أفراد الصاعقة في دفاتر مساجين بمعرفة ضابط الاتصال سامي خضير وبعد موعد منع التجول أطلق سراح رجال الصاعقة من السجن. وكان الطريق المؤدي إلى الموقع يصعب سير العربات فيه نظرا لكثرة أنقاض المنازل المهدمة لذلك تم اختياره ليكون طريق تقدم وانسحاب المهاجمين.

وفي منتصف الليل هاجم رجال الصاعقة الدبابات الرابضة في ملاجئها بأسلحتهم المضادة للدبابات «البلاندسيت» فتمكنوا من تدمير أربع دبابات وجميع العربات المدرعة كما أصابوا معظم أفراد الحراسة البريطانية ودوت في أرجاء المدينة أصوات تبادل النيران وانطلاق مدافع «البلاندسيت» وانفجار الدبابات البريطانية وأخذت المدينة تهتز من تأثير الانفجارات.

وانسحبت قوات الصاعقة عبر الطريق المهدم إلى مبنى السجن حيث بقوا فيه كمساجين حتى الصباح. إلا أن الدوريات البريطانية قامت بالتجول لقطع خط الرجعة على المهاجمين ومطاردتهم فاشتبكت معهم قوات المقاومة الشعبية حسب الخطة لتعيق تقدم الدوريات التي تطارد أفراد الصاعقة وقد حدثت بعض الخسائر في الأفراد.

وللأسف كانت هذه العملية آخر العمليات التي قامت بها الصاعقة في بور سعيد، لأن السلطات البريطانية استشعرت أن هذه العملية وغيرها من العمليات المخططة تمت بيد رجال مدربين على مستوى عال فتمكنت من معرفة مكان مبيتهم وداهمته في ليلة ١٥/ ١٢ واعتقلت سبعة من ضباط الصاعقة ومعهم الدكتور حسن جودة الذي كان يقيم معهم في عيادته المطلة على شارع صفية زغلول ورمسيس.

وأخذوهم أسرى ورحلوا معهم عند الجلاء على البوارج البريطانية فأنزلوهم في قبرص حيث عادوا منها إلى القاهرة بعد تمام انسحاب القوات.

اختطاف الضابط مورهاوس

قام اليوزباشي سمير غانم، بالاتصال بالعميد الموجي (الذي وقع أسيرا في أيدي القوات البريطانية أثناء الغزو) في المعتقل. أبدى العميد الموجي تخوفه من قيام القوات البريطانية باصطحابه هو وباقي الأسرى من الضباط المصريين إلى قبرص، بعد انسحاب القوات البريطانية من مصر، وعلى أثر ذلك أصدر سمير غانم تعليمات بخطف بعض الضباط البريطانيين، حتى يمكن المبادلة بالضباط المصريين. وقامت مجموعة من الفدائيين بخطف أحد الضباط. وكان يقود عربة بمفرده عند ناصية شارع رمسيس بالقرب من ميدان ديليسبس فاستولوا منه على بطاقته ووضعوه في عربة لأحد الفدائيين تصادف وجودها في نفس المكان وصعدوا به بسرعة لأحد المنازل الخالية من السكان بشارع إبراهيم توفيق وكان اسم الضابط أنتوني مور هاوس وقيدوه ووضعوه في صندوق لحمله خارج المنزل.

وعند استطلاع الطريق للنزول به فوجئوا بقوات كبيرة من البوليس الحربي البريطاني تقوم بتمشيط المنطقة بحثا عن الضابط المخطوف. عادوا وصعدوا إلى أعلى المنزل، ومن هناك قفزوا على سطح أحد المنازل المجاورة وتمكنوا من الهروب. ولكن أحد الفدائيين من أهالي الحي علم بوجود الضابط البريطاني في هذا المنزل ووجد أن البوليس الحربي البريطاني يقوم بعمل علامة بالجير على كل منزل يتم تفتيشه فقام بسرعة خاطر بتقليد هذه العلامة على المنزل الموجود به الضابط المخطوف ولم يقم البريطانيون بتفتيش المنزل واستمرت عملية الحصار البريطاني على المنطقة عدة أيام في خلالها مات الضابط «مور هاوس» حيث لم يتمكن مختطفوه من العودة لإخراجه من الصندوق وإنقاذه. وبعد رفع الحصار عن المنطقة قام الفدائيون بدفن الصندوق وبه جثة «مور هاوس» في الحوش أسفل المنزل. وبعد جلاء القوات المعتدية عن مصر طالب البريطانيون به حيا أو ميتا وسلمت لهم الجثة. وعلم فيما بعد سر اهتمام القوات البريطانية بهذا الضابط فقد كان يمت بصلة قرابة للأسرة المالكة البريطانية.

قتل ضابط المخابرات الشهير ويليامز

كان هناك مجموعة من الفدائيين صغار السن يقودهم عسران وكان لايتعدى سنة ١٥ سنة وله شقيق استشهد في عمليات ضرب بور سعيد نصب كمينا مع زملائه على الطريق المؤدي إلى الرسوة وخلف صندوق كبير انتظروا مرور عربة عسكرية منفردة فألقوا عليها وابلا من القنابل اليدوية وفروا هاربين. وعلمنا في نفس اليوم أن ضابطين بريطانيين كانا بهذه العربة وقتلا وكان أحدهما الكولونيل جريس والثاني الكولونيل ويليامز وهو الضابط الذي قام باعتقال ضباط الصاعقة وكان ضابطا للمخابرات في القاعدة البريطانية. ولعب دورا كبيرا في اعتقال كثير من الفدائيين عام ١٩٥١، وكان يحمي الخونة المصريين داخل المعسكرات البريطانية أمثال كنج صبري ومكسيموس، وحضر مع قوات الغزو وكلف بأن يعمل ضابط اتصال مع محافظة بورسعيد بعد احتلالها لأنه يتكلم اللغة العربية ورفض المحافظ محمد رياض التعاون معه.

البحث عن جهاز اللاسلكي

وفي مساء أحد الأيام وبعد موعد منع التجول كنت مع محمد فائق وسمير غانم في الشقة التي نقيم فيها بشارع الملكة فريدة. وكان سمير غانم يقوم بالإرسال على جهاز لاسلكي قديم. أما نحن فكنا نراقب الشارع أثناء الإرسال ومرت عربة بريطانية متخصصة في تحديد اتجاه أجهزة اللاسلكي ومثبت بأعلاها هوائي مربع يتحرك حول نفسه في بطء. وقد قصدنا بذلك أن تلتقط العربة صوت إرسال جهازنا فيبتعدوا عن موقع الجهاز الرئسي مع فرج محمد فرج ولما اقتربت العربة، طلبت من سمير غانم التوقف عن الإرسال والصعود بالجهاز معه إلى منزل آخر لتكرار الخداع مرة أخرى حتى يبتعدوا تماما عن الجهاز إلى سطح المنزل وبعد قليل غادرت العربة المنطقة. فنزل سمير والجهاز معه إلى منزل آخر لتكرار عملية الخداع حتى يبتعدوا عن والجهاز الأصلي في منزل السيدة فاطمة الغريب والدة يحيى الشاعر.

الختم المزور

في صباح أحد الأيام، وقبل أن أغادر المنزل الذي أقيم فيه سمعت أصوات حركة غير عادية في الشارع وخطوات سير جنود وعندما أطللت من النافذة وجدت أن البريطانيين، أثناء الليل أقاموا سوراً كاملا من الأسلاك الشائكة بطول شارع الملكة فريدة ونزلت مع الزميل محمد فائق فوجدنا أن هذا النطاق من الأسلاك الشائكة يحيط تماما بالمنطقة المتاخمة للميناء وعلى السور دوريات وحراسة مركزة لحماية قواتهم أثناء الانسحاب عن طريق الميناء وقد عزلوا هذه المنطقة تماما عن باقي مدينة بور سعيد حتى لا يدخلها المزيد من الفدائيين المصريين فيسببون لهم خسائر أثناء الانسحاب.

ووجدنا أنفسنا داخل السور معزولين عن بور سعيد، تجولنا حول السور فوجدت فتحة وأمامها طابور من أهالي المنطقة المعزولة، تسمح لهم السلطات البريطانية بالخروج من المنطقة لشراء حاجياتهم من بور سعيد والعودة. وكانوا يختمون على ذراع كل فرد يريد الخروج حتى يتعرفوا عليه عند العودة ولا يدخل غيرهم. وقفنا في الطابور وتم طبع الختم البريطاني على ذراعي أنا ومحمد فايق. وذهبنا إلى مركز قيادة المقاومة وهناك أمكننا الاستعانة بأحد عمال الزنكوغراف وصنع ختما مماثلا. ختمنا به أذرع عددا كبيرا من أفراد المقاومة تمكنوا من دخول المنطقة المعزولة في نفس اليوم، وقاموا في الأيام التالية بعمليات للإزعاج ضد الجيش البريطاني أثناء عملية الانسحاب حتى آخر يوم لهم قبل الجلاء الكامل.

الأسر

في يوم ١٤ ديسمبر وصلتني إشارة شفرية عن طريق جهاز اللاسلكي لأعود من بور سعيد، ومعي الزميل محمد فائق ليحل محلنا سعد عفرة بمجموعة أخرى رتبت طريق العودة مع الريس عبد المنعم الذي سبق أن حضرنا معه من المطرية. وغادرنا بور سعيد عن طريق القابوطي صباح يوم ١٥ ديسمبر مبكرين بعد ارتداء ملابس الصيادين وكان معنا الأستاذ الطناحي من مجموعة الإعلام حيث كان مريضا. قادنا الريس عبد المنعم عن طريق آخر في مياه البحيرة الضحلة مسافة طويلة لنصل إلى

مركبه في (الغاطس) بعد جزيرة صغيرة هي جزيرة الخندق، وعندما وصلنا إلى هذه الجزيرة ظهرت فجأة طائرة استكشاف بريطانية تطير فوق الملاحة وأخذت تحوم حولنا على ارتفاع منخفض. وقبل أن نصل إلى القارب مباشرة خرجت علينا من داخل أعشاب البحيرة دورية بريطانية فاحتجزتنا جميعا وكان معنا عدد كبير من الصيادين والعمال وأمرونا بالجلوس على الأرض. كنت ارتدي سويتروضعت في جيوبه الداخلية نماذج من المنشورات والصحف التي كنا نطبعها ونقوم بتوزيعها داخل بور سعيد ضد الاحتلال.

وتوقعنا المتاعب فخلعت السويتر وبه المنشورات ووضعته داخل الأعشاب وأخذت فقط بطاقتي المزيفة ومائة جنيه كانت معي أعطيتها للريس عبد المنعم واحتفظت بالبطاقة في جيب الجلابية. وعلى الفوز بدءوا بتفتيشنا وعثروا مع الريس عبد المنعم على النقود فاستولوا عليها أما أنا فقد سلبوني دبلة الزواج وأخذوا من الأستاذ الطناحي علبة الدواء. أما محمد فايق فوجدوا في يده ساعة سلبوه إياها، وأخذ محمد فايق يصيح بالإنجليزية Give me my wotch I'am a school teach-er, I'need my wotch أعطوني ساعتي - أعطوني ساعتي أنا مدرس وفي حاجة إلى ساعتي. وأخذوا يضحكون وبالطبع لم يعيدوها له.

ثم جاءت مرحلة الاستجواب وكان السؤال بالإنجليزية ضابط بريطاني وبجانبه مترجم يتكلم اللغة العربية باللهجة الشامية. ولما جاء دوري كان الضابط بعد أن أطلع على البطاقة يوجه لي السؤال باللغة الإنجليزية وكنت لا أعيره اهتماما لأني صاحب محل دراجات لا يفهم الإنجليزية. وقد تم الإفراج عن الريس عبد المنعم والأستاذ الطناحي والزميل محمد فايق وركبوا المركب إلي المطرية. أما أنا فقد كشفوا على باطن كفي ووجدوها غير خشنة بدرجة كافية كعامل يعمل بيديه. واحتجزوني مع عدد آخر من المعتقلين، وأرسلوا في الاستفسار عن صحة المعلومات التي بالبطاقة. واحتجزت لمدة ثلاثة ساعات قاموا أثناءها بتشغيلي مع باقي الأسرى في نقل الحجارة «دشمة مدفع» كانوا يقومون بتحصينها وكان العمل متواصلا. ثم أفرج عني وحدي وعدت مسرعا إلى بور سعيد مرة ثانية لأبلغ باللاسلكي إنني ما زلت محتجزا في بور سعيد وكانوا قلقين علي حتى أبلغهم محمد فايق بما حدث.

وفي يوم ١٧ ديسمبر قبل الغروب فوجئت وأنا برئاسة المقاومة بمكتبة العدني بحضور سعد عفرة في زي رجال الإسعاف وبصحبته آخرون من رجال إسعاف الإسماعيلية ومعهم عربة إسعاف جاءت بتصريح من البوليس الدولي عبر طريق الإسماعيلية بور سعيد خلال نقط تفتيش الجيش الفرنسي. استبدلت ملابسي بملابس أحد أفراد الإسعاف لأعود بدلا من سعد عفرة في عربة الإسعاف.

وفي يوم ٢٣ ديسمبر احتفلنا جميعا بجلاء العدو.

التهـامي.. والقلـعة الغـامضة

بعد الثورة مباشرة كان من الزملاء الذين عينوا معنا حديثا بالمخابرات : حسن التهامي . ولم يكن له مكتب خاص بمبنى المخابرات . ولا نعلم عن عمل محدد يقوم به ، إلا مساهمته في إحضار بعض خبراء المخابرات الأمريكيين لعقد حلقات دراسية لأربعة من ضباط المخابرات المصريين للاستفادة بخبراتهم فقط .

وفي فترة متقدمة ـ بعد البدء في إنشاء برج القاهرة بحيث أخذ يرتفع عن الأرض ، علمنا أن حسن التهامي احتل الدور الأول ، وأحاط جزءا من هذا المبنى بأسوار عالية . وجعل له بوابات ضخمة وكان مقره في مجموعه يشبه قلاع الأمراء في العصور الوسطى . وحتى بعد احتلاله لهذه القلعة كنا نسميها قلعة الأسرار حيث عجزنا كضباط مخابرات وزملاء أن نعرف أي شيء عن العمل الذي يجريه داخل هذا الحصن .

بعد أن قام على صبري باستلام العمل بالمخابرات العامة محل زكريا محيي الدين بعد العدوان الثلاثي علمت وأنا أعمل بالمقاومة الشعبية في الإسماعيلية أن حسن التهامي قد صدر قرار بنقله من قوة المخابرات .

ورفض حسن التهامي أن يغادر قلعته الغامضة بأسفل البرج واعتصم بها هو وأعوانه ، وأرسل له على صبري رئيس المخابرات مجموعة مسلحة من ضباط المخابرات أرغمته على مغادرة قلعته . وبعد أن أنهينا عملنا بمنطقة القنال ، وعدت إلى عملي بالقاهرة علمت من كمال رفعت ـ وكان زميل دراسة لحسن التهامي ـ أن الرئيس عبد الناصر وصله نسخة من شرائط تسجيل مسجل عليها بعض أحاديث عبد الناصر التليفونية ذات الطابع السري وكان هذا هو السبب في طرده من القلعة

وعلمت أيضا أن حسن التهامي كان منذ بداية الثورة يعمل وهو موظف بالمخابرات في عمل خاص مكلف به من عبد الناصر.

هذا العمل لم نعرف به إلا مؤخرا بعد إرغام حسن التهامي على مغادرة هذا المكان، وكان مسئولا أمام الرئيس عبد الناصر عن مراقبة تليفونات أعضاء مجلس الثورة والوزراء والشخصيات ذات الصفة العامة وأنه يسجل هذه الأحاديث لعرضها على عبد الناصر فقط.

وكانت النتيجة أنه قام بتسجيل أحاديث عبد الناصر نفسه. وكانت حجة التهامي عندما طالبوه بإخلاء القلعة أنه هو صاحب الفضل في الحصول على تكاليف إنشاء البرج من الأمريكان.

وكان من المفروض أن يجازي حسن التهامي على الأقل بإبعاده عن المراكز الحساسة بعد كشف عملية تجسسه على مكالمات الرئيس عبد الناصر. وهنا يثور التساؤل لمصلحة وحساب من كانت تسجل مكالمات رئيس الجمهورية؟! ومع ذلك، فقد نقل حسن التهامي معززا مكرما للعمل برئاسة الجمهورية وفي أعمال لا يعلمها أحد، وفي هذه الفترة تظاهر بالتدين الشديد وأطلق لحيته. ثم أرغمه عبد الناصر على إزالتها بعد أن أحضر له الحلاق.

وبداية من هذا التاريخ بدأ في الهلوسة وخلط الواقع بالغيبيات سواء أكان عن عمد أم تماديا في تغطية شيء لا يعلمه إلا الله والعالمون ببواطن الأمور.

بعد وفاة الرئيس عبد الناصر أبلغني المرحوم كمال رفعت أن حسن التهامي أثناء عمله بالرئاسة، بعد طرده من قلعة برج القاهرة، فاجأه عبد الناصر بالوثائق التي تسلمها من الاتحاد السوفيتي التي تؤكد أن أحد أعضاء سفارتنا في موسكو وكان يعمل لحساب حسن التهامي قام بتجميع معلومات عن الجيش السوفيتي وتدريباته من الضباط المصريين الذين يتدربون في الاتحاد السوفيتي. وعلمت بذلك المخابرات السوفيتية بواسطة عملائها في الولايات المتحدة الأمريكية، وأبلغ عبد الناصر هذه الواقعة للمرحوم كمال رفعت، وعلمت بعد فترة بنفس هذا المضمون من صلاح دسوقي، وهو على قيد الحياة أطال الله في عمره. والغريب في الأمر رغم كل هذه

الأعمال المريبة من حسن التهامي فقد عين في فترة لاحقة سفيرا بوزارة الخارجية وصدر قرار جمهوري يسمح له بالزواج من أجنبية.

وبعد وفاة الزعيم عبد الناصر كنت أزور حسن التهامي في منزله للحصول منه علي بعض دراسات وقرارات المؤتمر الإسلامي حيث كان يشغل مركز سكرتير عام المؤتمر الإسلامي، وفي هذه المقابلة الطريفة أخذ يقص على حقيقة قصة صفقة الأسلحة التشيكية. ومن ضمن حديثه أن الرئيس عبد الناصر قبل توقيع اتفاقية صفقة الأسلحة التشيكية أرسل حسن التهامي في مأمورية خاصة إلى الولايات المتحدة ليستطلع رد فعل رجال المخابرات الأمريكية في أثر هذه الصفقة على السياسة الأمريكية إذا ما تمت ولما عاد من هناك طمأن الرئيس عبد الناصر بأنه قام باستجلاء الموضوع مع المسئولين في الولايات المتحدة، وأن توقيع وإعلان هذه الصفقة سوف لا يحدث أي انزعاج لواشنطن وقال للرئيس عبد الناصر وقع الاتفاقيةولا تخش شيئا. وتردد عبد الناصر، فما كان من حسن التهامي إلا أن صرخ في وجهه قائلا «امض يا جبان!!!» وكان ردي على حسن التهامي «أنه يجوز لك أن تقص مثل هذه القصص على أي إنسان آخر إلا على حيث إني أعلم جيدا أنه لا يجرؤ أي إنسان مهما كان قريبا من الرئيس عبد الناصر أن يحدثه ويأمره بهذه اللهجة المهينة».

وجاءت فترة حكم الرئيس السادات وكان حسن التهامي من أقرب المقربين للسادات برغم ما اشتهر عنه من عدم الاتزان وتفسير الأحلام والغيبيات علاوة على أنه كان قد بلغني من أحد المقربين لأنور السادات عندما كان يرأس المؤتمر الإسلامي ويعمل معه حسن التهامي أن حسن التهامي دخل عليه مرة يراجع أنور السادات في موضوع وأخرج له مسدسه الذي يتباهى دائما بحمله أينما كان وهدد به أنور السادات، فما كان من أنور السادات إلا أن نظر له في هدوء واستهزاء وقال له «اجر يا ولد والعب اللعبة دي مع أحد غيري لأنه فاتك أنني أتقن هذه اللعبة أكثر منك» وبرغم ذلك وصلت العلاقة الودية بينهما لدرجة أنه اختاره كمندوب له للتقارب مع حكام إسرائيل وقابل موشى ديان في قصر الملك الحسن ملك المغرب للتمهيد لزيارة الرئيس السادات للقدس، وإعلان مبادرته.

والأخطر من كل هذا أن يعين أنور السادات حسن التهامي ذا الشخصية المهزوزة في الظاهر والغامضة في الباطن في الوفد المصري للتفاوض مع إسرائيل في قلعة ليدز في بريطانيا ثم يعينه في وفد المفاوضات الرسمي في كامب ديفيد وكان له مكانة عند السادات أثناء المفاوضات الجانبية تفوق صلاحيات وزير الخارجية المصري محمد إبراهيم كامل الذي استقال من قبل إبرام اتفاقية كامب ديفيد، وجاء في مذكراته عن هذه الفترة فقرات كلها تهكم وسخرية مما كان يدعيه حسن التهامي أثناء المفاوضات أو في وقت الراحة من التظاهر بسيطرته على أكبر شبكة استخبارات بالإضافة إلى اتصاله بسيدنا الخضر. عاد حسن التهامي بإكاليل الغار بعد كامب ديفيد وألبسه الرئيس السادات ريش الطاووس في الاحتفالات العسكرية وبوأه مكانا عاليا في يوم الزينة الكبرى بحيث كان يوازي أو يتخطى نائب رئيس الجمهورية.

كل هذه المتناقضات تدعونا للعجب ولكن هذا العجب زال بعد رفع الحجاب عن أسرار المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط وبعد أن نشرت بعض وثائق السفارة الإيرانية في طهران بعد أن احتلتها منظمات طلبة إيران واحتجزت رجال السفارة، فقد تناولت صلة حسن التهامي الوثيقة بالمخابرات الأمريكية وأنه كان هناك تنظيم سري يجمع بين مخابرات إيران والسعودية ومصر والمغرب يطلق عليه نادي السفاري Safary Club وكانت سكرتاريته الدائمة بالقاهرة وقد تكلف إنشاؤها وتجهيزها المبالغ الطائلة وكانت مهمتها مقاومة الشيوعية في المنطقة وكان من ضمن المهام التي كلف بها هذا النادي الإعداد لاجتماع بين مصر وإسرائيل في قصر ملك المغرب.

وأخيرا وفي الأيام الأخيرة قبل حادث اغتيال أنور السادات ساءت العلاقات بين حسن التهامي وأنور السادات بسبب تصريحاته لبعض الصحف العربية بما يشوه اتفاقية كامب ديفيد، ولكن حسن التهامي بقدرة قادر استمر في العمل وبدرجة نائب رئيس وزراء في رئاسة الجمهورية إلى أن أحيل إلى المعاش في عهد الرئيس مبارك. وتخلصت المسئوليات العامة في مصر من هلوسة صاحب قلعة الأسرار (القلعة الغامضة) والذي كان قادرا على تبوء أعلى المراكز برغم ما حوله من شبهات.

المخابـرات.. وإعـادة التنظيـم

منذ بدء وإشراك «المخابرات الحربية» في مهام كثيرة منها الأمن الداخلي وتأمين البلاد من خطر القاعدة البريطانية التي كان يربض فيها أكثر من مائة ألف جندي بريطاني بأسلحتهم. كان على المخابرات أن تجدد شبابها وتعيد تنظيم نفسها. لم يعد أمام المخابرات إلا المساعدة في مواجهة التحديات الخارجية والمصاعب الداخلية إلى أن تحقق إبرام اتفاقية الجلاء وبذلك استكملت المخابرات تنظيمها حتى يلائم متطلبات الاستقلال الكامل وما يحتاجه ذلك من تأمين سياسة مصر الخارجية وأوضاعها الداخلية واستلزم ذلك:

(أ) محاولة تدريب ضباط في الاتحاد السوفيتي

حاولت مصر بعد الثورة مباشرة عن طريق سفير مصر في الاتحاد السوفيتي في ذاك الوقت (عزيز المصري باشا) أن تعقد اتفاقا مع الاتحاد السوفيتي لإرسال بعثة من بعض ضباط المخابرات المصريين تحت ستار العمل الدبلوماسي. وحضور تدريب في المخابرات الروسية ولكن السلطات السوفيتية لم توافق على الفكرة حينذاك.

(ب) الاستعانة بالخبراء الألمان

كانت المحاولة الثانية مبكرة. وعقب الثورة مباشرة حيث قام جهاز المخابرات باستدعاء عدد من أكفأ رجال المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية عن طريق استدعائهم بواسطة الملحقين العسكريين المصريين في سفارتنا بالخارج وفي البلاد التي كان هؤلاء الألمان يختبئون ويعيشون فيها. وقد استؤجرت لهم فيلا بعيدة عن جميع مباني المخابرات

أقاموا فيها. وكانوا مكلفين فقط بكتابة مذكراتهم وخبراتهم في المخابرات والجاسوسية الألمانية أثناء الحرب العالمية الثانية وما قبلها. وخصصت المخابرات لهم طاقما محدودا من ضباط المخابرات لقراءة ومراجعة هذه التقارير والمذكرات وانتهوا منها بوضع المبادئ العامة لتنظيم أسلوب عمل المخابرات بما يلائم ظروف مصر وأمنها ثم أضفنا خبرات أخرى. حصلنا عليها من بعض الخبراء الأمريكان. وحسب معلوماتي وقتها فإن حسن التهامي فقط هو الذي كان يتصل بالأمريكان.

(جـ) الاعتماد على النفس

وتجدر الإشارة إلى أنه منذ بدء العمل في إدارة المخابرات بعد الثورة مباشرة. كان هناك تصميم بالاعتماد على النفس بالإضافة إلى الاستعانة بالمخابرات الأجنبية. وأعد ترتيب للحصول على مختلف المراجع والكتب التي تناولت أعمال المخابرات والجاسوسية في مختلف الدول قبل الحرب العالمية الثانية وأثنائها وبعدها. ووجدنا بمكتبة المخابرات مجموعة لا بأس بها من هذه المراجع. قمنا بترجمتها وطبعها وتوزيعها على جميع العاملين بالمخابرات. ثم حصلنا على الكثير من المراجع والكتب عن طريق سفاراتنا وملحقينا العسكريين بالخارج وعكف على دراستها نخبة من الزملاء المصريين ضباط المخابرات واستخلصوا منها ما يفيد التنظيم وأسلوب العمل، ثم وزعت ترجمتها على جميع ضباط المخابرات ليعكفوا على قراءتها والاستفادة من الخبرات التي تحويها. وكانت هذه الكتب هي المراجع الأساسية في حصولنا على أصول علم المخابرات وحققت لنا مبدأ الاعتماد على النفس إلى حد بعيد.

(د) الاستفادة من المتخصصين الأمريكان (سنة ١٩٥٣)

بعد الحصول على مذكرات الألمان والمراجع العلنية ودراستها بدقة وقع الاختيار على مجموعة من ضباط المخابرات المصريين ليضعوا تنظيما يلائم إمكانيات وظروف مصر كما ظهرت الحاجة الملحة لتطوير برامج مدرسة المخابرات ولتدريب ضباط المخابرات المصريين الجدد. وكان الضباط الموجودون بالخدمة أيضا يتلقون هذا التدريب. كما أعد برنامج تدريب لضباط

المخابرات بالقوات المسلحة حتى مستوى الكتيبة. وأثناء التطوير وإعادة التنظيم أمكن للزميل حسن التهامي عضو المخابرات والذي كان على علاقة مع أحد رجال المخابرات الأمريكية، واسمه مايلز كوبلاند. أن يستدعي مجموعة خبراء أمريكان في علم المخابرات.

قامت المخابرات المصرية بتجهيز منزل آمن لهم Safe House بالقرب من شارع الهرم وتكونت المجموعة المصرية من أربعة ضباط مخابرات فقط لعقد ندوات مع طاقم المخابرات الأمريكية في جميع أوجه التخصصات لمدة ثمانية أشهر.

وكان من المفروض أن يتلقى حسن التهامي المحاضرات معهم ولكنه كان يحضر من وقت لآخر بمصاحبة مايلز كوبلاند (وهو المؤلف المشهور لكتاب لعبة الأمم Game of Nations) أثناء هذه الدورة. وبانتهاء الحلقات أو الندوات انقطعت صلة هؤلاء الخبراء الأمريكان كلية بجهاز المخابرات والمجموعة المصرية. وتم تكليف اثنين من الضباط المصريين الأربعة بإعادة تنظيم مدرسة المخابرات والتي عرفت فيما بعد باسم «معهد العلوم الإستراتيجية» والتي كان يتلقى فيها رجال وزارة الخارجية الجدد الدراسة أيضا.

التنظيم الجديد

بعد أن تقرر إنشاء جهاز المخابرات الإستراتيجية بقيت المخابرات الحربية تابعة للجيش، وبها قسم الملحقين العسكريين وأنشئت المخابرات الإستراتيجية (العامة). وكان تنظيمها نابعا مما حصلنا عليه من بعض أفكار خبراء المخابرات الألمانية ومن المصادر العلمية الخاصة بالمخابرات من واقع الكتب والمراجع بالإضافة إلى ما حصلت عليه مجموعة الضباط المصريين الذين شاركوا في ندوات خبراء المخابرات الأمريكيين والذين اقترحوا تنظيما عرضوه في ندوة على السيد زكريا محيي الدين رئيس الجهاز في ٣/ ١٢/ ١٩٥٣.

وفي النهاية وضع تنظيم مثالي بمعرفة رجال المخابرات المصريين يلائم إمكانيات وظروف مصر آنذاك وصدر في مارس سنة ١٩٥٤ بقرار جمهوري علي شكل قانون باسم المخابرات العامة. ومن وقت التحاقي بالمخابرات العامة في يوليو سنة

١٩٥٢ إلى أن غادرتها للعمل برئاسة الجمهورية سنة ١٩٦٨ لم يطأ عتباتها ولم يتدخل في تنظيمها أو يشارك في برامج تدريب مدرستها أي أجنبي. ومنذ نشأة معهد العلوم الإستراتيجية توسع في التدريس والتدريب ليشمل ضباط القوات المسلحة ونخبة من الدبلوماسيين بوزارة الخارجية، وضباط المباحث العامة في وزارة الداخلية ورئاسات مكاتب الأمن بالوزارات والإدارات المهمة في الدولة، وأعتقد أن هذا الجمع الهائل من الدارسين خير شاهد على استقلال جهاز ومدرسة المخابرات بعيدا عن أي تبعية أجنبية. وكان المعهد يستعين بأساتذة الجامعات المصرية في تدريس المواد المدنية التي لها صلة بالعلوم الإستراتيجية كل في تخصصه مما ساهم بشكل أساسي في إقامة البناء كاملا على أكتاف المصريين فقط سواء كانوا عسكريين أو مدنيين.

مهمــة فـي تـركيـــا

بعد جلاء القوات المعتدية عن الأراضي المصرية في ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٥٦ أخطرت بأنني سأعمل في تركيا. وهي منطقة شديدة الحساسية بالنسبة للسياسة المصرية آنذاك لأنها كانت إحدى دول حلف بغداد (الحلف المركزي) الذي يتبناه الغرب وأمريكا في الشرق الأوسط بغرض الانفراد به بعيدا عن سياسة التحرر التي كانت تحرض مصر عليها باقي الدول العربية.

وكانت السكرتارية الدائمة للحلف مقرها تركيا. كما كان لتركيا علاقات دبلوماسية مع إسرائيل وحدود مشتركة مع كل من الاتحاد السوفيتي وإيران وسوريا والعراق. ولها علاقات وطيدة مع إيران والعراق زميلتيها في حلف بغداد ولها سياسة وعلاقات متقلبة مع سوريا لموقفها الرافض لحلف بغداد وعلاقة الشك وعدم الاطمئنان مع الاتحاد السوفيتي.

ومصر بحكم أهدافها الإستراتيجية حينذاك كانت لها علاقات طيبة مع سوريا والاتحاد السوفيتي، وعلاقات شبه عدائية مع حليفتي تركيا إيران والعراق.

وفوق كل ذلك كانت علاقة تركيا وثيقة بالولايات المتحدة الأمريكية، التي ورثت الاستعمار القديم في الشرق الأوسط وكان لها قواعد عسكرية في تركيا وهي من أكبر المحرضين والمباركين لنشر فكرة حلف بغداد على أساس سياسة احتواء الاتحاد السوفيتي Policy of containment. وتركيا في الوقت نفسه دولة إسلامية لها روابط إسلامية وعرقية وتاريخية مع مصر والعالم العربي برغم ادعائها بالعلمانية في الوقت نفسه كانت مفتوحة سياسيا واقتصاديا وتمثيلا مع عدوتنا وعدوة العرب إسرائيل. وشعب تركيا المسلم يسهل تفاهمنا وتعاملنا معه برغم

المظهر العدائي للحكومة التركية حينذاك بالنسبة للعرب بصفة عامة ولمصر بصفة خاصة.

وليس أدل على مدى عمق العلاقة الإسلامية بين تركيا ومصر من هذه القصة التي رواها لي الملحق العسكري المصري في تركيا في ذلك الوقت زكريا العادلي إمام قال «إنه قبل العدوان الثلاثي بمدة عندما كانت فرنسا وإنجلترا تتحفزان وتهددان مصر علي أثر تأميم قناة السويس كان لزكريا العادلي صديق تركي يشغل مركزا مهما بالأمن التركي العام.

وصلت معلومات لهذا الموظف التركي الكبير بحكم وظيفته تؤكد استعدادات فرنسا وإنجلترا لشن هجوم على مصر وأن مناطق وطوابير التجمع للغزو العدواني متجمعة في قاعدة قبرص. ذهب الصديق التركي بعد منتصف الليل إلى منزل ملحقنا العسكري في تركيا وأبلغه بتفاصيل هذه الاستعدادات شعورا بانتماءه الإسلامي الذي يحتم عليه إعانة ومساعدة إخوانه المسلمين في مصر ودون أي مقابل». وكذلك كنا جميعا نعلم مدى تدفق المتطوعين الأتراك على القنصلية المصرية. والسفارة في تركيا للمساهمة في مقاومة العدوان الثلاثي.

الواجبات

عملت في تركيا كمستشار صحفي في سفارتنا وكان لي مكتب صحفي في إستانبول، بالإضافة إلى مكتبي الصحفي في العاصمة أنقرة. وبدأت العمل في ٥ أغسطس سنة ١٩٥٧ وكان المطلوب مني:

(أولا) العمل داخل إسرائيل نفسها عن طريق العلاقات المفتوحة بين تركيا وإسرائيل.

(ثانيا) مراقبة النشاط الاقتصادي والسياسي والإستراتيجي الإسرائيلي في تركيا ومدى علاقة إسرائيل العسكرية بحلف بغداد.

(ثالثا) مراقبة نشاط حلف بغداد وبخاصة ما له تأثير على سياسة مصر ومدى علاقة

حلف بغداد بالسياسة العربية ونشاط وتفاصيل قواعد الحلف العسكرية وبالذات سكرتارية الحلف الدائمة في تركيا.

أهميـة التـزود بالمعلومـات

كالعادة، وكمبدأ في عملي فقد زودت نفسي بكثير من المراجع عن تاريخ تركيا القديم والحديث، وقمت في الوقت نفسه بالحصول من وزارة الخارجية، ومن أرشيف المعلومات بالمخابرات على كل ما يخص حلف بغداد والحلف المركزي وعلاقة تركيا بإسرائيل. وأمضيت فترة الاستعداد للعمل بتركيا بالاطلاع بدقة على هذه المصادر.

عملت في تركيا في وظيفة سكرتير صحفي بالسفارة المصرية. أنشأت مكتبا صحفيا بالسفارة بأنقرة وآخر في إستانبول إسلام بول (أي موطن الإسلام)، وهي ميناء تركي مهم وكانت عاصمة الدولة العثمانية قبل أنقرة. وطدت صلتي بالمراسلين الأجانب وبرؤساء تحرير الصحف ووكالات الأنباء المحلية والأجنبية. ونظمت إصدار نشرة أخبار أسبوعية أحلل فيها سياسة مصر إزاء كل ما يصدر من الحلف المركزي، وإزاء مواقف مصر في مواجهة هذا الحلف بأسلوب تحليلي وقد حازت هذه النشرات رضا كل من كانت توزع عليهم من المواطنين الأتراك والعناصر الدبلوماسية.

تسلمت عملي في تركيا في ١٩٥٨/٨/٥ ووثقت صلتي بالتنظيمات الوطنية التركية المعادية لإسرائيل بحكم أوضاعها الدينية (الإسلامية) وكان أهمها جمعية مكافحة الصهيونية التي كان يرأسها الجنرال التركي المتقاعد المرحوم جواد رفعت أتلهان. وكان في شبابه ضابط مخابرات القائد التركي جمال باشا (الشهير بالسفاح) في سوريا. وكان له العديد من المؤلفات ضد الصهيونية والماسونية، علاوة على كتبه التي ألفها عن الدونمة وكان له الفضل في أنه أعطانا تفاصيل هذا التنظيم الصهيوني في تركيا وفي معظم البلدان الإسلامية والعربية.

وعن طريق الجمعيات المناهضة للصهيونية أمكن تجنيد عدد لا بأس به من الشباب التركي كانوا يقومون لحسابنا بالسفر إلى إسرائيل، ويحصلون لنا منها على

المعلومات. أو يجيبون لنا عن الاحتياجات التي كانت تطلب منا من رئاسة المخابرات في مصر. ويقومون بمأمورية سرية.

كذلك عن طريق البلاد التي لها تمثيل دبلوماسي في إسرائيل وتركيا، تعاونت مع كثير من العناصر الدبلوماسية الأجنبية في مثل هذا العمل. كما تم تجنيد بعض الصحفيين الأتراك والمصورين الصحفيين.

الجالية العربية

يوجد في تركيا جالية عربية كبيرة جدا خصوصا من العراقيين والسوريين والأردنيين ومعظمهم من الطلبة الذين يدرسون في جامعات تركيا. وتوجد مصاهرات بين العرب والأتراك. هذه الجالية الكبيرة من الطلبة تعرفت عليها عن طريق الملحق العسكري المصري المرحوم زكريا العادلي، وكان يسبقني في العمل بتركيا بمدة طويلة. وقد أثثت وخصصت لهم صالة كبيرة بمكتبي كناد لهم. كانوا يترددون عليه كثيرا ويقيمون فيه حفلاتهم الوطنية وبذلك ازدادت أعدادهم حتى كان هذا النادي في وقت ما يجمع الطلبة العرب وبعض العرب العاملين في تركيا. وعن طريق هؤلاء ومعارفهم من شباب الأتراك أمكن تكوين شبكة معلومات لا بأس بها. للعمل داخل تركيا وخارجها وكان هدفنا الرئيسي العمل علي إسرائيل التي لها تمثيل دبلوماسي مع تركيا وعلاقات اقتصادية متشعبة. وكان الطلبة العرب بتركيا يتميزون بوعي وطني وقومي على مستوى عال بصرف النظر عن اتجاهاتهم العقائدية أو اتجاهات حكوماتهم، وكانوا يؤيدون على طول الخط سياسة مصر ويتباهون بالانتماء إليها بشكل أو بآخر.

الجمعيات الإسلامية

حضر الزميل أبو المكارم عبد الحي في زيارة لتركيا، وزارني هو وأسرته. وهو ضابط سابق ومن الوطنيين الذين كانوا ينتمون إلى جمعية الإخوان المسلمين، وكان قد صدر عليه حكم في قضية الإخوان وظل هاربا بالدول العربية مدة طويلة. ولشدة غيرته على بلده وقومه عرض على التعاون في تعريفي بأهم رجال ورؤساء

الجمعيات الإسلامية التركية بحكم صلاته الدينية بهم. وقد أمكن الاستفادة بأعضاء هذه الجمعيات في العمل ضد إسرائيل.

الميـاه الثقيـلة

كانت قد وصلتني معلومات غير مؤكدة أن لإسرائيل أبحاثا في مجال المياه الثقيلة التي تستخدم في صنع القنبلة النووية من الهيدروجين. وكان المطلوب التأكد من ذلك ومدى ما وصلت إليه إسرائيل من أبحاث في تصنيع هذه القنبلة النووية.

أمكنني الاتفاق مع المندوب «فاوست» (الاسم الكودي) وهو شاب تركي خريج كلية العلوم وله معرفة بأحد الدروز بإسرائيل وهو زميل دراسة في إحدي الحلقات العلمية في فترة من الفترات ويعمل في مركز البحوث بمعهد رحبوت الإسرائيلي.

سافر المندوب «فاوست» إلى إسرائيل وأمكنه الاتصال بالعالم الدرزي الإسرائيلي الجنسية. وكان فاوست يتجول في إسرائيل بصفته سائحًا ضمن وفد سياحي تركي. أمكنه بعد الاتصال بصديقه الدرزي وبالمناقشات العلمية أن يحفظ في الذاكرة عن ظهر قلب جميع المعلومات التي استنتجها من الأحاديث واكتفى بكتابة بعض رموز قليلة في صفحات متفرقة في نوتة التليفونات الخاصة به لتساعده على تذكر هذه المعلومات.

وعندما عاد إلى تركيا أمكنه وضع تقرير مفصل عن بعض المطلوب منه بعد إعادة تجميع كل ذلك من واقع الذاكرة وما دونه من رموز. وكانت عبارة عن معادلات كيمائية لمشروع تحضير المياه الثقيلة في إسرائيل.

وقد أمكن استكمال هذه المعلومات من مندوب آخر أجنبي. أما المندوب (فاوست) فقد تكررت زياراته على فترات متباعدة لإسرائيل للحصول على معلومات أخرى ذات أهمية علمية وإستراتيجية طلبت الرئاسة مني الحصول عليها وكانت على شكل أسئلة علمية فنية محددة.

قبل ظهر أحد الأيام وكنت بمكتبي بأنقرة اتصل بي القنصل المصري بإستانبول الزميل خيري العيوطي، وطلب مني ضرورة الحضور إليه في إستانبول بأسرع ما يمكن لأن لديه موضوعا لا يحتمل التأخير. سافرت بالطائرة ووصلت إلى مكتب القنصلية المصرية قبل الغروب. ووجدت القنصل في مكتبه. نادى القنصل المصري على شخص كان ينتظر بالغرفة المجاورة وعرفني به وهو يوناني الجنسية وكانت ملابسه متواضعة جدا ويتكلم اللغة الإنجليزية ببطء ولكنه مفهوم.

وكان يضع يده اليمنى بصفة دائمة في جيب بنطلونه. أفهمني القنصل أنه منذ وصوله لم يخرج يده من جيب بنطلونه ويشك في أنه يحمل سلاحا يخفيه في جيب بنطلونه. وأفهمني أيضا أنه حضر بخصوص مهمة مكلف بها من تنظيم يساري في اليونان لتوصيل معلومات في غاية السرية إلى أي من القنصليتين المصرية أو السورية (وكانت القنصلية السورية فعلا تشغل شقة في نفس مبنى القنصلية المصرية وفوقها وكان وقت الوحدة مع سوريا).

وناديت الزائر اليوناني، وأمرته مبدئيا أن يخرج يده اليمنى من جيب بنطلونه. والمفاجأة أني وجدت أن ساعده الأيمن بدون كف وبرر ذل بأنه فقدها أثناء مقاومة المظليين الألمان في معركة كريت في الحرب العالمية الثانية. وبدأ حديثه بعد أن اطمأن بعض الشيء وقال إن هناك في اليونان تنظيما إمريكيا بريطانيا يقوم بتوصيل الهاربين المجريين أنصار إمري ناجي (الزعيم المجري ١٩٥٦ أثناء العدوان الثلاثي على مصر) وكان رئيس وزراء المجر في وقت حركة المجر المعادية للاتحاد السوفيتي. ولكن اتباع إمري ناجي ورؤساء التنظيمات السرية المجرية المناهضة للشيوعية وللاتحاد السوفيتي وفي أنحاء متفرقة ومعروفة على حدود المجر هاربون من بطش السلطات السوفيتية. وقال أيضا إن هناك تنظيمات ومنظمات أخرى مناهضة خارج المجر وخصوصا في يوغوسلافيا واليونان، وتقوم بالتعاون مع التنظيم الأمريكي البريطاني في مساعدة العناصر المجرية الثائرة والهاربة في عبور الحدود اليوغسلافية ثم إلى اليونان لإنقاذهم من بطش السلطة الحاكمة في المجر.

وأضاف الزائر أنه عضو في الحركة اليونانية اليسارية، ومكلف بتبليغ السفارة

الروسية بتركيا عن طريق القنصل المصري أو السوري كل هذه المعلومات الأولية وقد حذره التنظيم التابع له من الاتصال المباشر بالسفارة أو القنصلية السوفيتية وأن عليه فقط تبليغ قنصليتي مصر أو سوريا لتقوم إحداهما بتوصيل هذه المعلومات إلى سفارة الاتحاد السوفيتي.

وأفادني أيضا أن لديه باقي المعلومات التفصيلية عن هذا التنظيم الأنجلو أمريكي في مدينة «قوله» اليونانية حيث يقيم وأن هذه المعلومات في وثائق فيها جميع أسماء وعناوين أعضاء المنظمة الأنجلو أمريكية وأماكن التسرب على الحدود وقال إنه ينتظر وصول أحد المصريين لاستلام هذه الوثائق ليسلمها بدوره إلى سفارة الاتحاد السوفيتي بأنقرة.

وعدت الزائر اليوناني بأنني سأقوم بالاتصال به في «قوله» في أقرب وقت وغادر هو مبنى مكتب القنصلية عائدا إلى بلاده على أساس أنني سأسلم هذه المعلومات إلي الاتحاد السوفيتي ولكن اشترطت عليه ألا أسلمها إلا بعد الحصول على التفاصيل منه. سافرت بعد عدة أيام إلي اليونان ومعي مساعدي الزميل سعد وفا، وتقابلنا مع الزائر اليوناني في منزله في «قوله».

وكان يقطن في أعلى منزل قديم بحجرة متواضعة بالسطح واستلمت منه جميع الوثائق وعدت إلى أنقرة، وبفحص الوثائق بدقة وجدت بها معلومات مفصلة عن التنظيم الأنجلو أمريكي ورئاسته في القنصلية الأمريكية في أثينا وموقعه في يوغسلافيا ومناطق التسلل عبر الحدود اليوغسلافية المجرية ومراكز تجمع الهاربين داخل وخارج يوغوسلافيا وأسماء أفراد ومندوبي التنظيم الأنجلو أمريكي وبعض أسماء المجريين المهمين المطلوب تهريبهم وأسلوب ووسيلة تسللهم لاجتياز الحدود عبر يوغسلافيا.

وتبين لي من مجمل المقابلة والمعلومات التي معي أن الحزب الشيوعي اليوناني هو الذي قام بتجميع هذه المعلومات الدقيقة عن طريق مندوبين له داخل التنظيم الأنجلو أمريكي ولشعوره بأنه مراقب من سلطات الأمن اليونانية المتحالفة مع الأمريكان فقد تعمد أن يكون توصيل هذه المعلومات إلى الاتحاد السوفيتي عن طريق طرف ثالث مصري أو سوري وفي دولة غير اليونان وهي تركيا، وأن

الشخص اليوناني (المندوب الزائر) بحالته المتواضعة ولمعرفته اللغة الإنجليزية قد يكون أنسب الأشخاص لتغطية هذه العملية، قررت الاستفادة لحساب مصر من هذه المعلومات وتأجيل تسليمها إلى الاتحاد السوفيتي. و اجتمعت مع الملحق العسكري المصري الزميل زكريا العادلي إمام وأطلعته على الموضوع وكان التعاون بيننا على مايرام. قسمت كمية المعلومات بيني وبينه واتفقت معه على أن يعطي هو هذه المعلومات على دفعات وفترات متتابعة إلى الملحق العسكري السوفيتي وأنا أعطي للمستشار الصحفي التشيكي نظير تكليفهما بالحصول لنا على معلومات سرية للغاية ومطلوبة لمصر عن أدق الاستعدادات والأسرار الإسرائيلية وكان لدي كثير من هذه الاحتياجات . على أن تكون المقايضة جزءا جزءا بحيث عندما تصلنا معلومات صحيحة نعطي الجزء التالي مقابل طلب آخر وهكذا (الاحتياجات هي المعلومات المطلوب الحصول عليها عن العدو بأسلوب أو بآخر). وكان المطلوب مني لرئاستي معلومات في غاية الأهمية بالنسبة للكتلة الشرقية فقد قايضنا عليها بهذا الأسلوب.

تقابلت أنا والملحق الصحفي التشيكي وكان لي به صداقة ومعرفة وأعطيته جزءا من المعلومات على أن يوافيني بكل ما هو مطلوب عن أبحاث المياه الثقيلة الإسرائيلية. ولا يمكن تصور مدى السعادة التي ظهرت على وجه الملحق الصحفي التشيكي عندما تسلم مني المعلومات فقد شد على يدي وأبدى استعداده الكامل لتلبية طلبي. كذلك أبلغني الملحق العسكري المصري أن الملحق العسكري السوفيتي الجنرال العجوز وكان من أبطال الحرب العالمية الثانية كان في غاية السعادة وأخذ يقبل الملحق العسكري المصري عندما تسلم هذه المعلومات.

بعد يومين بالضبط وبسرعة غير متوقعة حضر لي الملحق الصحفي التشيكي وبابتسامة عريضة سلمني مجموعة أوراق مكتوبة بالآلة الكاتبة باللغة الإنجليزية. أخذت أقرؤها بتمهل في حضوره وتذكرت أثناء القراءة أنني سبق وقرأت مثل هذه المعلومات عن أبحاث المياه الثقيلة الإسرائيلية من أحد المراجع العلنية وبنفس الألفاظ والمعلومات تقريبا. وسريعا تذكرت أن ذلك جاء في الكتاب السنوي لإسرائيل المطبوع، والذي نحصل عليه كل سنة من الجناح الإسرائيلي في معرض أزمير الدولي وبمنتهى السهولة، لأنه كتاب دعاية عن منجزات إسرائيل في جميع

المجـــالات Year Book وتقـوم إسرائيل بتـوزيعه على كل من يطلبه وأخـرجت الكتـاب السنوي الإسـرائيلي من رف المكتبـة وقلبت إلى أن وجـدت الجزء الخـاص بأبحـاث المياه الثقيلة من واقع نشـاط معـهد أبحاث رحبوت الإسرائيلي واستعـدت قراءة السطور بسرعة ووجدتها منقـولة في الأوراق التي تسلمتها من الملحق التشيكي دون حتى تصرف معقول .

انتبه الملحق التشيكي فجأة أثناء شربه القهوة ووجدني أقوم بعملية المضاهاة وفهم الموقف . تلعثم في الكلام وأنا صامت تماما وأنظر إليه في لوم صامت أيضا . وتمالك نفسـه وقـال ضـاحكـا : إنه لـم يكن يتـصـور أبدا أن مثل هـذا الكتـاب الإسرائيلي في حوزتنا ووعد أنه مستعد لتصحيح الغلطة . ونصحته بإعادة النظر عند تقدير مستوانا كعرب متعلمين وبالطبع لـم أسلـمه أي كـمية أخرى من المعلومات ، ولكنه بعد عـدة أيام عـاد سعيدا ومعـه تقرير حقيقي عن أدق المعلومات عن أبحـاث المياه الثقيلة في إسرائيل . وأفهـمته أنهـا معـلومـات صـحيحة وقيـمة حيث إن لدي بعضـا منهـا من مصـادر أخـرى . وعن طريق هذا الملحق الصحفي التشـيكي أمكنني الحصـول بعـد ذلك عن طريق المقـايضـة أيضـا على مـعلومـات كثيرة وأخـرى عـن إسرائيل . وكـان الفرق بيني وبينه أن المعلومـات التي أحصـل عليهـا أقايض عليهـا بمعلومـات كـان من المفروض أن تصل إليهم إن آجلا أو عـاجلا من مندوبيهم الشيوعيين في اليونان . وبنفس الأسلوب والطريقة أمكن الملحق العسكري المصري زكريا العادلي إمام أن يحصل من الجنرال السوفيتي العجوز على كل ما كلفه به وبنفس أسلوب المقايضة .

وبعـد مدة كشف الاتحاد السـوفيتي اللعبة حيث وصلته أخبار العملية عن طريق الحزب الشيوعي اليوناني .

وقـام السفير السـوفيتي في القـاهرة بتكليف من حكـومته بالاتصـال بالرئيس عبـد الناصر وأبلغـه بكل شيء عن لعبتنا هذه ، وقام السيد علي صبري وزير شئون رئاسة الجمهـورية وقتـها بإرسـال خـطاب لي وللملحق العـسكري زكريا العادلي فيه لوم حيث كان علينا أن نرسل مثل هذه المعلومـات إلي القاهرة للتصرف فيها على أعلى مستوى بين مصـر والاتحاد السوفيتي . ولم يكن اللوم منصبا على الطريقة ولكنه كان يشير إلى مكاسب أكبر لو أن اللعبة تمت على أعلى مستوى .

أثناء فترة تبادل المقايضة مع الاتحاد السوفيتي والسفارة التشيكية بأنقرة بخصوص معلومات المجر. دعيت إلى حفل أعياد أكتوبر في سفارة الاتحاد السوفيتي بأنقرة. وقرب نهاية الحفل وكان أغلب الحاضرين من رجال السلك الدبلوماسي في تركيا في حالة سكر. لاحظت حلقة كبيرة من رجال السفارة الروسية والكتلة الشرقية يحيطون بسيدة أمريكية رأيتها في هذا الحفل لأول مرة في تركيا، وعلمت بعد الاستفهام أنها القنصل الأمريكي الجديد الذي وصل حديثا من القنصلية الأمريكية بيوجوسلافيا للعمل بالقنصلية الأمريكية في تركيا. وكانت السيدة الأمريكية في حالة سكر بين وتتكلم بصوت مرتفع. وانضممت للحلقة المحيطة بالسيدة وكانت بدأت تفقد السيطرة على لسانها تخوض في الكلام عن عملية هروب كثير من زعماء حركة المجر وبعض تفاصيل عن حركة هروبهم.

تأكدت في هذه اللحظة أن المعلومات السابق حصولي عليها هي مجال الحديث من أسئلة الروس لهذه السيدة المخمورة والتي كانت على علم بعملية مساعدة الهاربين من المجر عبر يوجوسلافيا التي كانت تعمل بها قبل حضورها إلى تركيا. كما وضح أن الروس لم يكن لديهم في هذه اللحظة أكثر مما أعطيتهم. كما لاحظت أن هناك سيدة أخرى من عيون المخابرات الأمريكية كانت تراقب هذه اللحظة عن كثب لأني علمت في اليوم التالي أن الأوامر صدرت بنقل السيدة الأمريكية المستهترة من القنصلية العامة الأمريكية بأنقرة.

وثائق مكتب الاتصال الأمريكي بالحلف المركزي

فى يوم وأنا بمكتبى بأنقرة قرأت إعلانات في الصحافة التركية عن عرض بيع سيارة شيفروليه جديدة يملكها أمريكى ويشترط أن يكون المشترى من السلك السياسى (لأن البائع الأمريكى إذا باع عربته بالليرة التركية بمبلغ تركى كبير لأحد الدبلوماسيين الأجانب بتركيا يمكن تحويل هذا المبلغ الضخم بالسعر الرسمى للدولار الأمريكى ويحصل على مبلغ مجزجداً لعربته قد يفوق ثمنها الأصلى وهى جديدة بكثير) أحسست أن الصفقة بهذه الطريقة ستكون مجزية لى بشكل أو بآخر

وبدأت العمل فاتصلت بالبائع الذى حضر وهو يقود السيارة بنفسه وخلفه زوجته تقود عربة أخرى، وفهمت أنه على علاقة برئاسة الحلف المركزى.

أتمت الصفقة ووقعنا على العقود أملا فى كسب صداقته وخرج لينزع اللوحة المعدنية من العربة وأثناء انهماكه بفك اللوحات المعدنية ترك مظروفا ضخماً به أوراق على ظهر العربة . وانتابنى شعور بأنها أوراق مهمة أشرت إلى مساعدى سعد وفا ليقوم بإخفائها داخل ملابسه وعند انصراف الأمريكى مع زوجته دخلنا المكتب بسرعة ووجدنا أن محتويات المظروف كلها مكاتبات سرية للغاية وهى مكاتبات متبادلة بين مكتب الاتصال الأمريكى بالحلف المركزى بتركيا وبين سكرتارية الحلف المركزى فى تركيا مما أكدأن البائع الأمريكى نفسه يعمل بمكتب الاتصال الأمريكى. وتصرفنا بسرعة فى محتويات المظروف وبدأنا فى تصوير الأوراق، ولكن البائع الأمريكى عاد قبل الانتهاء من عملية التصوير، وأنكرنا معرفة أي شيء عن المظروف ونصحناه بالبحث في الطريق لعله تركه على ظهر عربة زوجته قبل أن يغادرنا وسقط منه أثناء الطريق.

وللمرة الثانية أخذنا نستكمل عملية التصوير ووضعت الأصل في مظروف أودعته في نفس الليلة مع بريد الحقيبة الدبلوماسية للسفارة ليرسل إلى رئاستي بالقاهرة. ومن الاطلاع الثاني على صورة الوثائق التي تم تصويرها ومن خطاب الشكر الذي وصلني من القاهرة عن هذه الصفقة الموفقة، علمت أن هذه الوثائق ذات نفع كبير جدا حيث كان بها معلومات سرية للغاية عن خفايا حلف بغداد وعن السيطرة الأمريكية على الدول المشتركة في هذا الحلف برغم أنها كانت مراقبا فقط في هذا الحلف. وبالوثائق مخطط كامل لضمان استمرار دول الشرق الأوسط حديثة الاستقلال تحت السيطرة الاستعمارية بأسلوب جديد هو أسلوب الاستعمار الجديد Neo - Colonialism وقد جاء بهذه الوثائق تقرير خاص عن سوريا واستلامها للأسلحة السوفيتية أخيرا وتوصيات مكتب الاتصال الأمريكي إزاء ذلك بتحريض دول الحلف المركزي لمواجهة هذا الخطر السوري بأسلوب إيجابي.

تحرش الحلف المركزي بسوريا

جاء بإحدى الوثائق التي حصلنا عليها بعد خطف مظروف ضابط الاتصال الأمريكي بالحلف المركزي تحريض واضح لدول الحلف المركزي للتحرش بسوريا كنتيجة لحصولها على صفقة أسلحة «شرقية» اعتقادا من أمريكا بأن سوريا حقل ممهد لانتشار الشيوعية. كانت هذه المعلومات عامة وليس لدينا أي معلومات أخرى تبين شكل وماهية هذا التحرش. وعقب ذلك مباشرة حضر جنرال تركي أسمر اللون لدرجة أنني اعتقدت لأول وهلة أنه من أصل إفريقي وتعجبت حينما وجدته لا يتكلم إلا التركية، وبعض كلمات عربية لأنه يحفظ بعض آيات القرآن الكريم.

هذا الزائر كان خال المترجم التركي الذي يعمل معي بالمكتب والذي حضر معي للمساعدة في أعمال الترجمة حيث إن والده كان تركيا يعمل بالحكومة المصرية مترجما أيضا ووالدته تركية من أم سودانية وهذا هو شقيقها الجنرال الذي يقيم بتركيا، وأثناء تقديم القهوة بحضور ابن شقيقته يلماز المترجم علمت أن خاله يشغل قيادة إحدى فرق الجيش في الجبهة الشرقية التركية المتاخمة للحدود السورية، وأن جميع وحداته في حالة طوارئ وأنه بالكاد أمكنه الحصول على إجازة عدة أيام ليرى أسرته في أنقرة ويعود بعدها للجبهة. وعلمت أنه عند وصوله لمنزله من الإجازة علم أن يلماز قد قام في الأيام السابقة وهو موجود بالجبهة بزيارة الأسرة وأعطاهم خطابا مرسلا له من شقيقته والدة يلماز لرد الزيارة وإعطائه خطابا لوالدته.

وتدرج الحديث حتى علمت أن السلطات التركية قامت أخيرا بإرسال تعزيزات ضخمة لوحدات الجنرال على الجبهة الشرقية على شكل حشود وأن كل الوحدات هناك في حالة طوارئ. جاء حديث هذا الجنرال الطيب مؤكدا أن هناك حشودا تركية غير عادية على حدود سوريا وأرسلت تقريرا عاجلا بذلك مشيرا إلى استكمال معلومات الوثيقة الأمريكية وكان هذا التقرير العاجل تأكيدا لمعلومات أخرى وصلت القاهرة من مصادر أخرى عن تزايد مثل هذه الحشود من جيش العراق على الحدود السورية العراقية. عقب ذلك قامت حملة سياسية إعلامية موجهة من مصر عن هذه الحشود بعد أن تأكدت الأخبار على أساس اعتقاد الغرب أن سوريا أصبحت أداة في يد الاتحاد السوفيتي في منطقة الشرق الأوسط.

وقد قامت روسيا بحملة سياسية دعائية في الوقت نفسه ، واتهمت تركيا بأنها تعمل على مساندة الولايات المتحدة في التدخل في شئون سوريا الداخلية . وأعلنت مصر بيانا يوم ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ أعربت فيه عن وقوفها بجانب سوريا ضد أي اعتداء يقع عليها . وقامت مصر في منتصف أكتوبر سنة ١٩٥٧ بتحريك بعض وحداتها العسكرية إلى سوريا عن طريق ميناء اللاذقية لتقف بجانب القوات السورية . وكان هذا التصرف من مصر بمثابة المشاركة مع سوريا في أزمتها كما أنه قد حرك مختلف العناصر السياسية السورية وعلى رأسها ضباط الجيش السوري للتعجيل بالوحدة مع مصر .

السوفييت ووحدة مصر وسوريا

في أول فبراير سنة ١٩٥٨ حضرت حفلا في السفارة الإيرانية وأثنا وجودي في حلقة من الحاضرين تجمع القائم بالأعمال السوفيتي (كان السفير في إجازة) ومستشار السفارة السوري والمستشار الصحفي العراقي وسكرتير من السفارة البريطانية ، اندفع مستشار السفارة الإيرانية لينضم للحلقة ، ويعلن أنه سمع لتوه أنباء إعلان الوحدة بين مصر وسوريا الذي صدر من القاهرة وفي الحال تعانقت مع مستشار السفارة السورية وتبادلنا التهاني . وأخذت التعليقات تتوالى من الحاضرين على هذا الخبر المثير .

وفجأة انفجر القائم بالأعمال السوفيتي مهاجما هذه الوحدة ، وتنبأ لها بكثير من المتاعب مع البلدين وأجبته بأن دولتي الوحدة لا يهمهما رأي أحد سواء بالتأييد أو الرفض وأنني كمصري أعرف جيدا رأي الاتحاد السوفيتي المعادي للقوميات ، ولكن هذا رأيهم ولنا أيضا رأينا الخاص المخالف . وجاء هذا الرد المنفعل من القائم بالأعمال السوفييتية بشكل متسرع ليفصح عن أن علاقة مصر وسوريا بالاتحاد السوفيتي سوف يطرأ عليها بعض التغيير خصوصا وأن التنظيمات الشيوعية في سوريا كانت تحت ظل النظام قبل الوحدة تعتبر من أقوى التنظيمات الشيوعية في العالم العربي ، وأن وحدة سوريا مع مصر سوف تضعف هذا التنظيم إن لم تكن ستقضي عليه وذلك من وجهة نظر الاتحاد السوفيتي .

وبالطبع أرسلت ملخصا لهذا الحديث إلى القاهرة مشفوعا بالاستنتاجات ومعلا بعد ذلك بمدة وأثناء الوحدة مع سوريا، انعكس عدم رضى الاتحاد السوميتي كدولة عن الوحدة مع مصر على الشيوعيين العرب بصفة عامة وعلى الشيوعيين مي سوريا بصفة خاصة، وأصبح لهم موقف شبه عدائي من الوحدة مما جعل الرئيس عبد الناصر يعاملهم بحزم أدى إلى متور العلاقات مع الاتحاد السوميتي لفترة ما.

استقبال لائق بأعضاء الحلف المركزي

قبل انعقاد اجتماعات إحدى دورات حلف بغداد مي تركيا كانت هناك استعدادات كبيرة حيث إن وزير خارجية أمريكا موستر دالاس كان سيحضرها. وجاءني قبل هذا الاجتماع أحد الشبان الأتراك المنتمين إلى إحدى الجمعيات الإسلامية التركية المتعاونة معنا، وطلب المعاونة مي الحصول على مواد نسف وأجهزة زمنية، وقال: إنه سوف يستخدمها ضد بعض منشآت دول حلف بغداد لأنه يعتبر هذا الحلف قائما لمحاربة المسلمين. ودبرت له مايطلبه. ويوم وصول ومود الدول الأعضاء إلى أنقرة وعلى رأسهم وزير خارجية أمريكا موستر دالاس. وأثناء وجودي مساء بالمنزل مع بعض الضيوف السوريين سمعنا صوت انفجار شديد مي سماء أنقرة. وبعد ساعة أخرى سمعنا انفجارا آخر بنفس الشدة وخرج الضيوف للشرمة وتعددت تخميناتهم عن ماهية هذه الانفجارات. وأثناء الليل حتى الصباح حدثت ثلاثة انفجارات أخرى بنفس الشدة.

صدرت الصحف التركية مي الصباح وبها وصف تفصيلي لهذه الانفجارات وأماكنها، وقد دمر أحدها وهو الأشد تأثيرا جراج السفارة الأمريكية تدميرا كاملا وعلى مقربة من مكان مبيت دالاس، وآخر بجوار مكتب الاستعلامات الأمريكي الذي دمر معظم غرمه ومحتوياتها، وثالث بجوار لوحة دعاية السفارة الإيرانية، ورابع بمكتب الاستعلامات البريطاني، وخامس داخل سور السفارة العراقية.

كانت الأخبار مصحوبة بالصور التي تبين مدى الخسائر وكلها كانت خسائر مي المنشآت مقط. بعد تلك الانفجارات اتخذت السلطات التركية ترتيبات أمن مشددة على مكان اجتماع الحلف وعلى منشآت وسفارات الدول أعضاء الحلف المركزي

والدول المؤيدة له. وعلقت الصحف التركية أيضا أن الشبهات تحوم حول المنظمات الشيوعية السرية التركية (مع أن هذه المنظمات كانت بريئة من هذا العمل)، وقامت السلطات التركية باعتقالات واسعة وعملية تفتيش على أوسع نطاق. وفشل اجتماع الحلف المركزي حيث عاد دالاس كما جاء وكانت هذه هي آخر حلقات هذا الحلف حيث إن إنقلابا قد حدث في العراق بعد ذلك بفترة وجيزة. وأطاح برموز الحكم في العراق كأسرة مالكة أو مسئولين متعاونين مع الأمريكان وعلى رأسهم رئيس الوزراء الخرافي نوري السعيد.

محاولة خطف الملك طلال

أثناء عملي بتركيا صدر إعلان في أول مارس سنة ١٩٥٨ عن قيام وحدة بين الدولتين العربيتين العراق والأردن، والمرتبطتين بشكل أو بآخر بالحلف المركزي، وهما ذات نظام ملكي.

كان هذا الإعلان في ظاهره تحقيق وحدة عربية وفي باطنه يحمل معنى المناوأة للوحدة العربية بين سوريا ومصر، ومع ذلك فقد اضطررنا إلى مباركة هذه الوحدة على أن أي اتحاد بين أي قطرين عربيين ما هو إلا وحدة في أي صورة، ولكن كان على مصر بالذات أن تكشف أهداف هذه الوحدة.

قادني تفكيري من هذا المنطلق لوضع خطة لاختطاف الملك طلال من معتقله بتركيا. على أن يعلن بعد ذلك على لسان هذا الملك الشرعي عدم موافقته على هذه الوحدة (الملك طلال هو والد الملك حسين ملك الأردن الذي ساعدته والدته الملكة زين وزوجة الملك طلال في عزل زوجها الملك طلال بحجة مرضه العصبي وأودعته مستشفيات أمراض النساء في إستامبول كمعتقل دائم له).

وكان الملك طلال داخل مستشفى الولادة موضوعا تحت حراسة أحد رجال الياوران الأردني الضابط صبحي طوقان وهو فلسطيني الأصل. أبلغت رئاستي ووافقت على خطتي وتعاونت مع الملحق العسكري زكريا العادلي لتنفيذها. أرسل الملحق العسكري أحد رجاله لمقابلة صبحي طوقان على أنه صحفي مصري وكان صبحي طوقان حاد الذكاء، وبسرعة غير متوقعة تجاوب معنا وأثناء حديثه مع

مندوبنا أفصح له عن كامل استعداده للمساهمة في عملية إخراج الملك طلال من تركيا وتسليمه لنا بأية وسيلة نراها، وفي أي مكان أو ميناء حيث إنه كثيرا ما يصحب الملك في نزهات خارج المستشفى تحت مسئوليته هو خصوصا بعد طول ملازمته إياه.

طلب صبحي طوقان الاجتماع مع المسئولين عن هذه العملية وفعلا اجتمعنا معه، واتفقنا على التفاصيل وأجلنا ميعاد التنفيذ بعض الوقت. وكان طلب صبحي طوقان الوحيد منا بعد نجاح هذه العملية هو أن يلجأ سياسيا إلي مصر. ولسوء الحظ في هذا التوقيت حضر الصحفي المصري الأستاذ جميل عارف (صحفي بالمصور) فحام حول المستشفى الموجود بها الملك طلال وأخذ كثيرا من الصور بآلة التقريب Telephotao من خارج المستشفى كما أحدث بعض النشاط الصحفي المريب حول المستشفى، ثم صدر عدد من مجلة المصور به ريبورتاج بصور تفصيلية عن حياة الملك طلال وحارسه والمحيطين به داخل المستشفى في صور واضحة، وكأن الصحفي والمصور كانا مقيمين معه داخل هذا المعتقل الصحي.

لم يكن للصحفي المصري أي هدف إلا تذكير الرأي العام بمأساة الملك طلال التي طال عليها الزمن، ولكن الملكة زين المدبرة الأولى لاعتقال الملك طلال انزعجت مما جاء بالمصور وتوقعت وجود مؤامرة. وأرادت التحقيق مع الحارس صبحي طوقان بعد الاشتباه في أن له يدا في وصول الصحفي المصري لزوجها داخل المستشفى. كنت في أنقرة وطلبني صبحي طوقان عن طريق القنصل المصري في إستامبول حيث إنه تم استدعاؤه للأردن وأنه لا يرغب في تنفيذ هذا الأمر ويخشى أن تستعدي الملكة زين الأمن التركي لاعتقاله وترحيلة إلى الأردن لمحاكمته.

سافرت إلى صبحي طوقان في إستامبول وقابلته بمبنى القنصلية المصرية وأفهمني أن الملكة زين حضرت بنفسها منذ ساعة وأرسلت في طلبه وأنه رتب هروب أسرته في عربة جارتهم الصديقة التركية وحضر هو بعربته الخاصة لاجئا إلى القنصلية المصرية في انتظاري. وتصرفت بسرعة وكان معي مساعدي سعد وفا. جعلت صبحي طوقان يتصل بزوجته وشقيقته ويأمرهما بالسفر بعربة الجارة الصديقة التركية إلى الحدود التركية اليونانية، وقمت أنا بعربتي ومعي صبحي طوقان وقاد

عربة صبحي طوقان سعد وفا وتوجهنا إلى أدرنة على الحدود التركية اليونانية حيث تم اللقاء مع أسرة صبحي طوقان، وكان معهم جميع أوراق السفر وتم خروج صبحي طوقان من تركيا عن طريق اليونان واتفقنا على أن نتقابل في مكان معين في أثينا وفي ميعاد معين، وعدت إلى إستامبول وقبل بدء العودة وجدت الأمن العام التركي منتشراً وخارجها حتى نقطة الحدود. ولكن سبق السيف العزل فقد خرج الطير من القفص. وسافرت فعلا بعد يومين إلى اليونان وقابلت صبحي طوقان وزودته بما يلزم من النقود وجميع ترتيبات السفر بعربته وأسرته إلى القاهرة ودخل لاجئا سياسيا في مصر وأقام طول حياته بعد ذلك في مدينة الإسكندرية، وفشلت خطتنا في مساعدة الملك الشرعي للأردن.

سفارة العراق تعترف بالثورة العراقية

في يوم ثورة عبد الكريم قاسم على النظام الملكي العراقي وعلى نوري السعيد، كنت أعلم تماما أن سفير العراق في تركيا من رجال نوري السعيد وكذلك كل طاقم السفارة العراقية ومن المتحمسين تماما لحلف بغداد. عندما أعلنت إذاعة بغداد نجاح الثورة قام الأمن التركي بعمل نطاق حراسة مشددة حول مبنى السفارة، ومنع الدخول والخروج إليها ومنها. ذهبت بنفسي بعد غروب اليوم نفسه لأعرف الأخبار من السفارة وبرغم تمتعي بالمزايا الدبلوماسية فقد منعت من الدخول. وفي أثناء عودتي لمكتبي فكرت في لعبة أقوم بها لصالح ثورة العراق فقد لاحظت عدم صدور أي بيان من السفارة بالتأييد وصممت على إيجاد وسيلة لإحراج السفارة وبخاصة السفير العراقي ودفعه إلى إعلان التأييد رغما عنه وحتى بدون موافقته.

ولعلمي أن المستشار الصحفي العراقي نشدت بك يتقن اللغة التركية. جعلت المترجم يلماز يطلب رئيس تحرير إحدى الصحف التركية الشهيرة تليفونيا ويكلمه على أنه نشدت بك المستشار الصحفي العراقي ويبلغه أن السفير العراقي سيعقد مؤتمرا صحفيا صباح اليوم التالي ليعلن تأييده لثورة العراق. انتهت المكالمة عند هذا الحد، وحاولنا الاتصال ببعض رؤساء تحرير باقي الصحف التركية ووجدنا الخطوط مقطوعة تماما ويبدو أن الخبر انتشر بغاية السرعة في الوسط الصحفي التركي الذي كان متعطشا لأي جديد حول أخبار ثورة العراق حليف تركيا في الحلف المركزي،

وتسرب الخبر إلى الأمن التركي وقام بقطع الاتصالات التليفونية لجميع دور الصحف التركية ووكالات الأنباء ولكن الخبر كان قد تسرب إلى إحدى وكالات الأنباء الأجنبية، التي أبرقت به وبعد ساعتين من بدء العملية استمعنا إلى صدى هذا الخبر في إذاعة بغداد بأن السفارة العراقية بأنقرة تؤيد الثورة العراقية.

في صباح اليوم التالي، وصلتني أخبار تجمعات كثيرة من مندوبي الصحافة المحلية والأجنبية ووكالات الأنباء حول مبنى السفارة العراقية، وخارج نطاق حراسة الأمن المركزي التركي انتظارا للمؤتمر الصحفي الذي لن ينعقد. وأرسلت تقريرا بكل ذلك إلى القاهرة ليبلغ إلى سفير الثورة العراقية بالقاهرة السيد فائق السمرائي حتى تقف حكومته على حقيقة موقف السفير العراقي في أنقرة.

الطريق إلى إسرائيل من تركيا

كان مطلوبا مني الحصول على صور تفصيلية لجميع أسلحة إسرائيل في العرض العسكري الذي يقام هناك في أعياد الاستقلال، ومن عدة زوايا، وتطلب ذلك البحث عن مندوب تركي من الوسط الصحفي، يتقن التصوير الصحفي. وعن طريق الجالية العربية المقيمة في إستانبول أمكنني تجنيد المصور الصحفي التركي «جويد بك» (الاسم الحركي) والذي سبق له زيارة إسرائيل بدعوة من وزارة الاستعلامات الإسرائيلية وكان صديقا لأحد السوريين المقيمين في إستانبول.

تم الاتفاق معه على الرحلة. وبمناقشته في الغرض من هذه الصور وهي الوقوف على الجديد في التسليح الإسرائيلي. وجدت أنه على درجة عالية من كفاءة التصوير لمثل هذه المعدات حيث كان يعمل في فترة ما مراسلا عسكريا في كوريا مرافقا للقوات التركية التي اشتركت مع الجيش الأمريكي في هذه الحرب. وكلفته في نفس المأمورية بتصوير دفاعات حيفا بعد اختباره لموقع مرتفع هناك يزوره بحجة السياحة. ويصور من هذا الموقع بانوراما كاملة لما حول حيفا ويحاول أن يسجل في الذاكرة أماكن المواقع العسكرية والدفاعية سواء أرضية أوضد الجو ليعيد تحديدها على هذه البانوراما بعد عودته. حضر «جودت بك» العرض العسكري الإسرائيلي وحصل على صور دقيقة من جميع الزوايا لجميع الأسلحة الإسرائيلية المشتركة في

العرض. كذلك أمكنه بعد حضوره، وبعد تحميض وطبع ما التقطه من صور عن مدينة حيفا من لصق وتوصيل صور متتابعة. على شكل بانوراما كاملة حدد عليها لنا جميع المواقع الدفاعية الإسرائيلية. وبعد ذلك كنا نكلف هذا المصور الصحفي بالذهاب إلى إسرائيل بصفة دورية سنويا في ميعاد العرض العسكري الإسرائيلي ليحصل على صور لما يستجد من تطور أو إضافة للسلاح الإسرائيلي. وكان من أهم المندوبين لدينا وكنت أبالغ في احتياطيات تأمين اتصالاته بنا.

العملية الرباعية

وصلتني تعليمات من القاهرة أن أقوم بالاتصال بمندوب أوربي يعمل في إسرائيل كخبير في تخصصه. وفي الوقت نفسه له مؤسسة ناجحة هناك (نظرا لأن هذا المندوب ما زال يعمل في إسرائيل في تخصصه الأصلي بنجاح فلن أفصح عن جنسيته الأصلية حفاظا على أمنه فقد أطلقنا عليه اسما كوديا Gite) هذا المندوب سبق له العمل في أجهزة المخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية. تقابل المندوب مع أحد رؤساء مكاتبنا الخارجية في الدولة الأوربية التي يعمل بها واتفق معه مبدئيا على العمل في طبيعة تخصصه بعمله في إسرائيل ليتاح له الوقوف على أسرار ومعلومات ذات قيمة عن فرع للإنتاج الإستراتيجي والحربي في إسرائيل.

وقد أجل الاتفاق النهائي معه إلى أن يعاد الاتصال به في اليونان في فترة محدودة (من يوم وتاريخ كذا في يوم كذا) في المنزل الآمن (Safe House) لنا هناك وليس في أحد الفنادق أو في أحد المحلات العامة.

وتم الاتفاق على أن الشخص الذي يتصل به من مصر حالما يصل إلى Safe House يسأل عن (Mr. Gite)، وفي هذا المنزل وبمجرد سماعهم هذا الاسم يتم ترتيب المقابلة باستدعائه تليفونيا من مكان إقامته بأثينا. كلفت بهذه المقابلة وقمت بالسفر أنا ومساعدي سعد وفا إلى أثينا ولما وصلنا إلى الـSafe House.

وبعد مضي أقل من ساعة كان هناك شخص ما يطرق باب الشقة، يصحب معه سيدة متوسطة العمر قال مقدما إياها لنا إنها زوجته وكانت سيدة ذات ملامح جامدة، عرفنا بنفسه إنه مستر جايت وأفهمنا أنه لا حرج من الكلام أمام

زوجته مسز جايت في أي موضوع لأنها تشاركه في كل أعماله. كانت المأمورية التي كلفت بها هي الاتفاق النهائي مع المندوب جايت عن وسيلة الاتصال معه، وهي إيجاد ما يسمى في علم المخابرات السرية الصندوق الميت Dead Letter Boxحتى يمكننا إسقاط تعليماتنا وأسئلتنا المطلوب منه الإجابة عليها (يطلق عليها في المخابرات احتياجات أوRequirements) وبالتالي تصلنا عن طريق هذا الصندوق الإجابة عن احتياجاتنا ويقوم شخص غير معروف لنا وله بتلقي رسائلنا ورسائله وتوصيلها لأي من الطرفين حسب العنوان. ثم بعد ذلك كان الاتفاق المادي معه بصفة أولية على مبلغ ثابت، يدفع له دوريا كل ثلاثة أشهر ويوضع في حساب خاص بأحد بنوك سويسرا وكذلك كان لدي احتياج (أسئلة عن أسرار من داخل الدولة المعادية، مطلوب الرد عليها كمعلومات) عن معلومات علمية على درجة عالية من الأهمية والسرية. وكان التكليف أيضا، الاتفاق معه على ثمن الرد على هذا الاحتياج الأول، وتحددت له مبلغ لا يتعدى رقما معينا. وكان دائما يستشير زوجته. أتممت المأمورية بالاتفاق معه على وسيلة التخاطب معنا بإرسال تقارير على شكل خطابات شخصية مكتوب بين سطورها الظاهرة المعلومات بالحبر السري وذلك على صندوق بريد ميت Dead Letter Box تابع لنا في اليونان أيضا وأن تكون الرسالة معنونة باسم مستر Mr. Giteجايت (ولدينا شخص في الـــ Safe House مسئول عن استلام مثل هذه الخطابات أو التقارير ويقوم المسئول بالمنزل الأمني بإرساله من اليونان داخل مظروف آخر خارجي إلى القاهرة رأسا بعنوان كان على صندوق بريد آخر ميت بالقاهرة كما أن رسائلنا إلي المندوب جايت تصل إليه منا بطريقة عكسية. أما الاسم الكودي المعطي له فهو اختصار لأول حرف من كل كلمة من الكلمات الأربعة التي تدل على البلاد التي يتم فيها الاتصال بيننا وبين المندوبGiet أي Turkey (T), Egypte (E), Israel (I), Greece (G).

وبعد ذلك استمرت العلاقة بين رئاسة المخابرات بالقاهرة وبين هذا المندوب الثمين مباشرة من داخل إسرائيل وجاءت ردوده المتتالية بنتائج مثمرة.

المصيدة

في يوم ذهب أحد الشبان الأتراك إلى مبنى السفارة المصرية في طلب تأشيرة دخول إلى مصر، وتقابل هناك مع يلماز المترجم الذي يعمل معي في المكتب

الصحفي وكان على معرفة به من القاهرة. كان هذا الشاب التركي ضابطا سابقا بالجيش التركي وأصيب في يده نتيجة انفجار قنبلة أثناء التدريب وبعد علاجه بالمستشفيات العسكرية في تركيا، ذهب لاستكمال علاجه بالقاهرة وتعرف هناك بوالد يلماز الذي كان يعمل بالترجمة في رئاسة مجلس الوزراء المصري وتوطدت العلاقة لطول مدة علاجه وكان يتلقي دروسا في اللغة العربية من والد يلماز، كان هو الوحيد بالسفارة الذي يتكلم التركية، فقد قام يلماز بتسهيل حصول الشاب التركي على تأشيرة الدخول إلى مصر. وكان قد أفهم يلماز أنه ترك الخدمة بالجيش نتيجة الإصابة وأنه يقوم ببعض الأعمال التجارية كما أفهمه أنه كان يشغل مركز ضابط مخابرات مع الجيش التركي الذي كان يحارب في كوريا. وتواعد مع يلماز على تبادل الزيارات. روي لي يلماز بعد عودته إلى المكتب هذه القصة ووجدتها فرصة للاستفادة من هذا الشاب وشجعت يلماز على مداومة الاتصال به.

وبعد عدة لقاءات بينهما وكان معظمها في النوادي الليلية بأنقرة حيث كان هذا الشاب أعزبا. أبلغني يلماز أن الشاب أبلغه أنه سبق له زيارة إسرائيل في عملية تجارية وعرض بنفسه أي خدمة لنا من إسرائيل بعد عودته من إتمام العلاج بمصر. وفعلا قام بالسفر إلى مصر للعلاج وعاد بعد شهر وجعلت يلماز يتفق معه على السفر إلى إسرائيل. وتم لقائي معه بعد تجهيز أوراق سفره ووجدته شابا ذكيا جدا وفيه كل مؤهلات رجل المخابرات، وأعطيته عدة أسئلة عن موضوعات واحتياجات كان مطلوب الرد عليها من إسرائيل وقام بمأموريته خير قيام، وقد أعطيته اسما كوديا (جودت بك).

وأظهر جودت بك حماسا كبيرا في التعاون معنا لحبه لمصر بعد تأثره من كرم المصريين وسماحتهم عندما اتصل بهم في زياراته لمصر. وبعد مدة وصلني من القاهرة عدة احتياجات للرد عليها من داخل إسرائيل، وسافر جودت بك وعاد بعد ثلاثة أسابيع وقد نجح نجاحا منقطع النظير في الحصول على نسبة كبيرة من المعلومات المكلف الحصول عليها مما جعلنا نعتبره من أهم المندوبين. وسافر عدة مرات متفاوتة إلى إسرائيل بعد أن وطد صداقته مع شخصيات إسرائيلية ذات أهمية في مجال هذا العمل. وكان دائما يعود ظافرا بكثير من المعلومات السرية المهمة ردا على الاحتياجات التي كانت تعطى منا له. وفي إحدى سفرياته بعد ذلك وبعد أن تم

تجهيزه للسفر مرة أخرى بحجة السياحة في إسرائيل، وكان من ضمن الاحتياجات المطلوبة هذه المرة الحصول على أطلس جيولجي يباع في إحدى المكتبات في تل أبيب بشارع كذا بالمبنى رقم كذا، حيث يعرض هناك للبيع لمن يطلبه، وبه معلومات تهمنا عن مناطق التعدين في إسرائيل والمواد المعدنية الإسرائيلية الإستراتيجية. وبإحساس خفي شعرت أن هذا الاحتياج بهذا الترتيب غير منطقي ولكني أعطيته له كما هو مع تحذيره في تعامله مع هذه المكتبة المحددة بالاحتياج.

وبعد أسبوع تقريبا من سفره وكان صديقه المترجم يلماز يراجع الصحف التركية التي نتعامل معها في المكتب الصحفي أشار إلى خبر في إحدى هذه الصحف يشير إلى قيام السلطات الإسرائيلية باعتقال الجاسوس التركي الذي يعمل لحساب المخابرات المصرية وذكروا اسمه. وأرسلت في الحال في طلب المندوب (فاوست) السابق سفره إلى إسرائيل وكلفته بتجهيز نفسه في أسرع وقت للسفر إلى هناك ونصحته بالسفر على إحدى البواخر وأيضا بحجة السياحة وأن يقوم بتمثيل دور السائح الأجنبي الشاب ويتجول في أنحاء إسرائيل على فيسبا أو موتوسيكل يستأجره من هناك طول مدة إقامته السياحية وهي تسهيلات منتشرة في إسرائيل، ثم يتوجه إلي هذه المكتبة في تل أبيب. ويطلب منهم خريطة سياحية عليها معالم الطريق بين تل أبيب وإيلات بحجة أنه ينوي زيارتها، ولخصت له الموقف بمنتهى الصراحة ليكون على أشد درجات الحذر وأعطيته فكرة عن الأطلس الجيولوجي المشئوم حتى لا يطلبه إطلاقا. أوصيته أيضا بعدم حمل أي أوراق مكتوب فيها أي شيء يدعو للشك وأن يقوم بآلة تصويره بتصوير الأماكن السياحية بعيدا عن أي أهداف تثير الشك. وقام المندوب (فاوست) بهذه الرحلة وحمدت الله كثيرا عندما عاد بعد عدة أيام وكان يحمل معه تفاصيل قصة مثيرة أكدت شكوكي حول ظروف اعتقال المندوب (جودت بك).

فقد قام بجولته السياحية كما خططت لها، ولكنه من بدء رحلته على الباخرة الإيطالية تعرف على أحد البحارة الإيطاليين اليهود من طاقم الباخرة ووطد علاقته به واحتفظ لنفسه بكابينة على الباخرة طول مدة جولته السياحية لأنه سيعود بنفس الباخرة حيث حجز رحلة العودة عليها وفي الوقت نفسه استأجر حجرة في فندق بتل أبيب.

وفي آخر رحلته، توجه إلى المكتبة. ووجد أنها كانت مكتبة تباع فيها بعض الخرائط السياحية فقط، وفوجئ عند لقائه بأول عامل بهذا المكتب وسؤاله عن شراء خريطة سياحية باهتمام زائد به وتوجه إليه تلقائيا شخصان آخران وسألاه بانفعال ماذا يريد. ورد بثبات إنه فقط يريد شراء خريطة سياحية لطرق إسرائيل البرية حيث ينوي السفر بالفسبا الموجودة خارج المبني إلي ميناء إيلات للسياحة. حضر بعد ذلك شخص آخر يبدو أنه مسئول كبير وأخذ يكرر عليه الأسئلة عن جنسيته وسبب زيارته لإسرائيل وأين يقيم ومعارفه في تركيا وغير ذلك من الأسئلة الكثيرة والغريبة. وأصر هو على أقواله.

تأكدوا من وجود الفسبا خارج المكتب وكذلك تأكدوا من إجاباته وأنه قام فعلا بزيارة كثير من الأماكن والبلدان السياحية في إسرائيل قبل حضوره إليهم مدعما ذلك بما التقطه من صور فوتوغرافية وقاموا بتفتيشه وتفتيش جيوبه فلم يجدوا أي شيء يريب كما أنهم أرسلوا في الاستفسار عن محل إقامته بالفندق وقاموا بتفتيش محتويات غرفته هناك تفتيشا دقيقا، ولما لم يجدوا ما يدينه، تركوه يغادر المكان وكان متأكدا أنهم سيراقبونه، وتوجه مباشرة إلى فندقه وجمع حاجياته التي وجدها مبعثرة نتيجة التفتيش وتوجه من هناك مباشرة إلي الباخرة الإيطالية التي حضر بها إلي إسرائيل ولم يغادرها حتى عادت به إلى إستانبول.

فاجأني عند هذا الحد من القصة المثيرة بأن أخرج لي من حقيبته مجلدا كبيرا مكتوبا عليه نفس اسم الأطلس الجيولوجي المطلوب الحصول عليه من إسرائيل. ومن هذه المكتبة المزيفة بالذات. عقدت المفاجأة لساني. فاستأنف كلامه في هدوء عن كيفية حصوله عليه، وقال: إنه بعد أن عاد إلى الباخرة ولجأ إلى كابينتة فيها لحين الإبحار كان الغضب من تصرفات الإسرائيليين معه بالمكتبة قد أثاره وكان حافزا له على الحصول على هذا الأطلس بالذات لأني كنت قد أبلغته عنه وكلف صديقه البحار الإيطالي اليهودي بالذهاب إلى هناك، وطلب هذا الأطلس بحجة أنه مكلف بشرائه لحساب أحد المهندسين الجيولوجيين الإيطاليين، وحذره من عدم ذكر أكثر من ذلك لهم. وفعلا قابله رجال المكتبة المزيفة بشبه زفة ولكن بعد تأكدهم من ديانته اليهودية سمحوا له بشراء الأطلس.

وللقضية بقية

بعد حصولي على المعلومات من المندوب (فاوست) كتبت تقريرا مفصلا مرفقا به الأطلس وسافرت إلى القاهرة. وعلمت من المخابرات العامة بعد السؤال أن هذا الاحتياج (احتياج الأطلس) طلبته المخابرات الحربية منهم. وطلب رئيس المخابرات العامة القيام بتحقيق شامل عن هذا الموضوع الخطير. كذلك أمر بعمل تحقيق في المخابرات الحربية وتمخض التحقيق عن الحقيقة التالية إن العملية بأكملها كانت مصيدة مدبرة من المخابرات الإسرائيلية. كان أحد المندوبين الذي يعمل مع الملحق العسكري المصري في باريس ويدعي أنه من عرب فلسطين وظهر بعد هذه القضية أنه إسرائيلي، مزيف الأوراق والهوية وقد زق (بمعنى أعطى المعلومات) معلومات إلى الملحق العسكري المصري في باريس عن هذا الأطلس وأفهمه أن به معلومات عن المواد الإستراتيجية التعدينية في إسرائيل ومناطق استخراجها. وكان هذا المندوب في بعض الأوقات يمد الملحق العسكري المصري ببعض المعلومات الحقيقية عن إسرائيل والتي ليست ذات قيمة مهمة أو عاجلة ليثق فيه.

وقد قامت المخابرات الحربية بمناولة المخابرات العامة بهذا الاحتياج الغريب عن الأطلس، ووصل لنا الاحتياج بهذه الصيغة التي تبدو بريئة في مظهرها.

الرد

بعد الانتهاء من التحقيق تولاني شعور بالغيظ، وصممت على ضرورة الانتقام واتفقت مع المسئول عن الخدمة السرية بالمخابرات العامة على خطة للرد على الفخ الإسرائيلي، ورسمت الخطة معهم، ونفذت كالآتي:

حيث إنه بعد التحقيق ثبت أن مندوب الملحق العسكري المصري في باريس المدعي «العروبة» ما هو إلا مندوب إسرائيلي، فقد قررنا ورسمنا خطة لاصطياده هو الآخر بأسلوب يعادل أسلوب المخابرات الإسرائيلية الذكي - طلبت معلومات تفصيلية عنه (اسمه ومكان إقامته في باريس - الأماكن التي يتردد عليها هناك - أماكن سهراته في باريس. . . إلخ)

كلفنا أحد مندوبينا الأكفاء الشاب (عصمت) بالسفر تحت هذا الاسم إلى

باريس، والتردد على الملهى الذي يقضي فيه المندوب الإسرائيلي سهراته (كان معروفا هناك باسم عمر) وتظاهر عصمت بميله للشرب والنساء. وبعد عدة سهرات سقط عليه عمر المزيف (فرض نفسه عليه) بعد أن تأكد أنه عربي ومتخيلا أن عصمت هذا يعتبر صيدا جديدا. وأخذ «عمر»المزيف يصرف بسخاء على ملذات عصمت عدة أيام مدعيا أنه عربي مثله إلى أن طلب في أحد الأمسيات من مندوبنا عصمت أن يعمل معه لحساب حلف الناتو حيث يمكنه الحصول منهم على مكافآت ومرتبات مجزية تكفيه للصرف على مثل هذه الليالي الحمراء، في نظير إعطائهم بعض المعلومات.

وكان عصمت قد أفهم المندوب الإسرائيلي (عمر) أنه طالب مصري يقضي إجازته في فرنسا، وأن له شقيقا ضابطا يعمل برئاسة هيئة العمليات بالجيش المصري وأعطاه أسمه (وهو اسم حقيقي لضابط مصري في هذا المركز، وله شقيق طالب فعلا، وأسمه عصمت، ولكنه ليس مندوبنا وذلك حسب الخطة المرسومة بالقاهرة) وأن شقيقه هذا كثيرا ما يحمل معه إلى المنزل أوراقا مهمة من عمله في رئاسة الجيش يشتغل فيها ليلا - وعرض عليه المندوب الإسرائيلي وسيلة سرية للاتصال وذلك عن طريق الكتابة بالحبر السري بين سطور خطابات بريئة - ورتب عمر اجتماعهما مع أحد الأفراد الأجانب علي أنه مندوب حلف الناتو - عاد عصمت إلى القاهرة بعد انقضاء إجازته (كما ادعى) وانتظر ورود خطابات المندوب الإسرائيلي عمر، ووصله أول خطاب وطلب منه التعجيل بإرسال ما يسقط عليه من معلومات من أوراق شقيقه الضابط بالعمليات. وأرسلت فعلا عن طريق عصمت هذه المعلومات المصاغة بمعرفة مسئولين في المخابرات الحربية والمخابرات العامة المصرية. وبالاستعانة بنفس ضابط هذه العمليات. بعض هذه المعلومات حقيقي وبعضها حقيقي وغير مهم مما جعل المندوب الإسرائيلي يطمئن للمندوب عصمت ويثق به ويثني عليه في الخطاب التالي واعتبره مندوبا جديدا وفي درجة عالية من الأهمية لإسرائيل (وكانت المخابرات الحربية تضحي ببعض المعلومات السرية المهمة ونرسلها عبر هذه الرسائل).

ابتلع المندوب الإسرائيلي الطعم، وبعد عدة رسائل بها وجبات شهية من المعلومات المزقوقة من المخابرات المصرية - اقترح المندوب الإسرائيلي على عصمت

أن يحاول تصوير هذه المستندات وإرسال صورها بدلا من تلخيصها ونقلها وأبدي استعداده لإرسال أحد المدربين إلى مصر لتدريبه على مثل هذا النوع من تصوير المستندات تحت الظروف العادية من إضاءة وغيره. وكذلك وعد بإمداده بهذه الأجهزة التي سيشتري له بعضها من القاهرة وسوف يدله هذا المندوب في القاهرة على عنوان خاص بالمخابرات الإسرائيلية في القاهرة Dead Letter Box يسلم فيه هذه الوثائق المصورة لترسل إليهم في إسرائيل بطريقة مأمونة. حضر المندوب وفوجئ عصمت عندما استقبله في مصر بأنه مندوب حلف الناتو المزيف وتم تسليم أجهزة التصوير إلى عصمت وتدريبه وتعريفه على العنوان الـ Dead Letter Box وقد كان الصيد مزدوجا ودسما حيث إن المندوب الذي حضر على أنه مندوب حلف الناتو كان ثمينا للغاية حيث تبين من التحقيق معه أنه ضابط عمليات مخابرات إسرائيلي، ويشغل مركز رئيس شبكة الجاسوسية الإسرائيلية بفرنسا، وكان يعتبر الرئيس المباشر للمندوب المزيف عمر الإسرائيلي. كما تم اعتقال الشخصية التي خلف الصندوق الميت (Dead Letter Box) في القاهرة وكانت سيدة أجنبية تعمل في إحدى المستشفيات بالقاهرة. كل ذلك كان انتقاما لاعتقال مندوبنا جودت بك.

جودت بك في سجون إسرائيل

حكم على جودت بك بخمس سنوات سجنا بالأشغال الشاقة بعد محاكمته على تهمة التجسس لأعداء إسرائيل ـ وكتب مذكراته بالسجن وأرسلها لنا بعد نشرها بإحدى الصحف التركية بعد الإفراج عنه، وجاء بهذه المذكرات أنه كان نزيل نفس السجن الذي كان به إيخمان. وقد شملت مذكرات جودت بك الأيام الأخيرة لإيخمان، وحديثه معه في السجن كما جاء بهذه المذكرات تفصيلات عن معاملة الإسرئيليين القاسية للمساجين والمعتقلين العرب الفلسطينيين في إسرائيل أما بالنسبة لجودت بك فقد نطق القاضي الإسرائيلي بالحكم عليه بخمس سنوات سجن قابلة للزيادة حتى تصبح المعلومات التي حصل عليها لصالح مصر غير ذات موضوع.

وفعلا عندما أعلنت المصادر العلمية الصحفية عن قدرة إسرائيل على صناعة

القنبلة الذرية، أفرجت إسرائيل عن جودت بك بعد قضاء ثلاث سنوات فقط. وبعد الإفراج عنه سافر له مندوب خاص من مصر وعوضناه بعض الشيء عما حدث له وكان قد خرج من السجن مريضا ومشوها من التعذيب أثناء التحقيق معه. وأمر الرئيس عبد الناصر بعلاجه على نفقة مصر في مستشفيات ألمانيا بعد أن تلقى منه خطابا شخصيا عن مرضه ورغبته في العلاج في خارج بلاده ـ وبعد شفائه عاد إلى تركيا ورشح نفسه في الانتخابات ونجح كعضو في البرلمان التركي.

الرد السريع

كان من عادتي أن أزور المكتبات من وقت لآخر لاختيار بعض الكتب التي قد تفيدني في عملي.

ويوما لفت نظري كتاب أمريكي عنوانه Information Please 1960 واشتريته. ووجدته عند تصفحي له كتابا دوريا أمريكيا يصدر كل سنة ويحتوي على أحدث المعلومات في شتى الموضوعات والأحداث. الاختراعات والمشروعات الكبرى والتطورات في العالم واحتفظت به في مكتبتي بعد أن راجعت الفهرس.

وبعد فترة وصلني من القاهرة احتياج (طلب معلومات) عن خط أنابيب بترول حيفا إيلات في إسرائيل وهل تم إنشاؤه أو ما زال تحت الإنشاء، وسعة قطرة ومساره وكفاءة تشغيله عند العمل إذا كان قد بدئ العمل فيه وبمجرد أن انتهيت من قراءة الاحتياج، تذكرت كتاب الـ Information Please 1960 وتصفحت الفهرست فوجدت أن الكتاب يحتوي فصلا كاملا عن جميع خطوط أنابيب البترول في العالم ونقلت الرد على الاحتياج من الكتاب بالكامل وأرسلته في اليوم نفسه إلى القاهرة ومعه نسخة هدية من الكتاب.

عـــودة إلـــى المخابـــرات

في أوائل عام ١٩٥٨ شملني الدور في الترقي. وعدت إلى العمل بالمخابرات بالقاهرة في وظيفة رئيسية وهي رئاسة مجموعة الصحف والإذاعات (المصادر العلنية). وكان عملها ببساطة شديدة هو الحصول من الأخبار المنشورة في المصادر العلنية من صحف ومجلات وإذاعات وبعض الكتب السياسية والاقتصادية على المعلومات التي تجيب على احتياجات أو على ردود فعل لسياستنا الداخلية والخارجية أو حفظ هذه المعلومات لحين الحاجة إليها، أو إصدارها في شكل تقارير معلومات حسب أهميتها. ولاقتناعي الكامل بأهمية هذه المجموعة كمصدر من مصادر المعلومات شبه المؤكدة أو المؤكدة إذا ما أحسن تنظيمها وتشغيلها، فقد عكفت على دراسة أقسام المجموعة المختلفة دراسة متأنية ووضعت تنظيما يطابق التنظيم الموضوع ولكن مع التحوير والتطوير الذي يحقق ما اقتنعت به.

وكان هذا التطوير يحتاج إلى مزيد من الأفراد الأكفاء وذوي المواصفات الخاصة وتعيين أو تشغيل مترجمين بعدد كبير في اللغات (الإنجليزية ـ الفرنسية ـ الألمانية ـ العبرية ـ اللغة الإفريقية السواحلية).

واشتركنا في أهم الصحف العالمية ومن ضمنها الصحف الإسرائيلية، وكانت تصل إلينا عن طريق دولة ثالثة. وكان هناك استماع كامل لمحطات إذاعة إسرائيل بالعبرية وبالإنجليزية والعربية ومعظم الإذاعات للدول الكبرى ـ علاوة على مجلات الاتحاد السوفيتي ونشراتها ومجلاتها الناطقة بالإنجليزية.

وعندما توليت رئاسة هذه المجموعة كان عدد المترجمين المعينين فيها لا يتعدى عدد أصابع اليد. وضعت مشروعا لتشغيل المترجمين ذوي المؤهلات العالية

كأساتذة الجامعات الذين تلقوا علومهم في البلاد الأجنبية ووضعت لهم مشروعا مرنا لتشغيلهم جزءا من الوقت في وقت فراغهم من عملهم وأصبح جهاز الترجمة بعد مدة هو المرجع الرئيسي للدولة في الترجمة، وكثيرا ما قام كثير من السادة المترجمين بمعاونة الدولة في المحاكم عن نظر قضايا الأجانب وفي مقابلات رئيس الجمهورية للأجانب أو بترجمة مراجع لجهات ومصالح حكومية كانت تطلبها منا.

وهذه أمثلة ثلاثة من الأعمال الكثيرة التي حققتها هذه المجموعة في علم المخابرات:

المثل الأول: عندما تأكد الرئيس عبد الناصر من عدم تجاوب الروس مع العلاقات المصرية خصوصا بعد اعتقاله للشيوعيين في سوريا ومصر وأنهم بدءوا في أحاديث مسئوليهم وفي صحافتهم في الهجوم على عبد الناصر ونظام الحكم في مصر وكان قمتها هجوم خروتشوف في منتصف مارس سنة ١٩٥٩ على سياسة عبد الناصر حيال العراق.

وكان ذلك كله يصل للرئيس عن طريق الصحافة الغربية وأراد أن يضع حدا لهذا الوضع. وأن يتناول في إحدى خطبه هذه العلاقة المتردية بسبب الهجوم السوفيتي الإعلامي عليه وعلى مصر وطلب من المجموعة تجميع كل ما جاء على لسان كبار المسئولين السوفييت في صحافتهم من بدء هذا الخط العدائي إلي وقت الخطبة وقامت المجموعة في أقل من ٢٤ ساعة بتجميع هذه المقالات والكلمات والتصريحات العدائية من واقع الأرشيف وما تجمع من مجلة الوقت السوفيتية وغيرها من المصادر، وجاء خطاب الرئيس في دمشق يوم الأحد ٢٢ مارس حافلا بالمعلومات، طبقا لما جمعته المجموعة وحمل عليهم محاولا كشف حقيقة موقفهم في كل المناسبات.

المثل الثاني: في جميع الانقلابات التي حصلت في جهات العالم وبخاصة في سوريا والعراق وبعض الدول العربية كنا بمجرد أن يعلن عن أسماء الشخصيات التي قامت بالانقلاب، نسرع من واقع أرشيف الشخصيات لدينا فنحلل كل ما هو مدون عن هذه الشخصيات الجديدة ثم يتم تحليلها بالاستنتاج والحكم القاطع على لون هذا الانقلاب في شكل نشرة سريعة توزع أولا بأول.

المثل الثالث: تأكدت معلومات عن المفاعلات الذرية الإسرائيلية من واقع ترجمة فقرة جاءت بإحدى المجلات البولندية وكانت تصلنا عن طريق سفارتنا في بولندا كان بها معلومات تنشر لأول مرة عن أبحاث إسرائيل الذرية وعن المفاعل الذري الإسرائيلي.

إدارة محطات الإذاعة السرية

كان من ضمن اختصاصات مجموعة المصادر العلنية التي أتولاها إدارة محطات الإذاعة السرية، وقبل أن أخوض في تجربتي عندما صدرت لي الأوامر بتشغيل محطة سرية ضد العراق في وقت ساءت فيه علاقات مصر مع رئيس العراق عبدالكريم قاسم عندما تمادي الشيوعيون العراقيون في الهجوم على الرئيس عبد الناصر، أذكر في عجالة أصول واستخدام مثل هذه الإذاعات.

أشكال الإذاعات السرية

تنقسم الإذاعات السرية إلى الأنواع التالية:

(١) محطات متحركة (Mobile) تحمل أجهزة توليد القوة والبث الإذاعي في عربات، ويمكن إخفاء مثل هذه المحطات في مناطق الثوار داخل الدولة (كمناطق الثوار الجزائريين مثلا) وكالمحطة المتحركة التي طلبها من مصر الزعيم العراقي حازم الطبقشلي قائد القوات العراقية في كركوك عندما كان يدبر انقلابا ضد عبد الكريم قاسم، وكالمحطة السرية التي أرسلتها مصر إلى القائد العراقي عبد الوهاب الشواف قائد لواء الموصل التي ثبت عدم فاعليتها لأن إذاعتها كانت غير مسموعة إلا لمسافات قصيرة لا تتعدى حدود الموصل.

(٢) محطة إذاعة متحركة (حقيقية) يمكن تشغيلها من خارج حدود الدولة حتى تنجح حركة الثوار في المناطق البعيدة عن العاصمة، ثم يتم تحريكها إلي داخل الحدود للإذاعة حتى يتم استيلاء الثوار على الحكم وذلك كمحطة الإذاعة المصرية التي أرسلت من سوريا لتكون بالقرب من الموصل بعد أن فشلت المحطة

الأولى التي أرسلت للشواف في مراحل الثورة الأولى لعدم قدرتها على الإرسال لمسافات طويلة.

(٣) محطة ثابتة قوية جدا داخل الدولة نفسها تعادل في قوتها محطات الإذاعة الكبيرة، ولكن لها استديوهات منفصلة تنشأ داخل مباني أجهزة المخابرات نفسها. كمحطة ألمانيا الحرة التي كانت تذيع من إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية، ومحطة إذاعة اليابان الحرة التي كانت تذيع من الولايات المتحدة الأمريكية ضد اليابان ومحطة إذاعة اليابان الشهيرة التي كانت تذيع باللهجة الأمريكية على أنها داخل الولايات المتحدة وكان كبير المذيعين يطلق عليها «زهرة اليابان». ومحطة الإذاعة السرية الألمانية التي كانت تذيع ضد الحلفاء تحت إشراف وزير الدعاية جوبليز.

التجربة المصرية

بعد نجاح ثورة العراق كان يمثل الجناح القومي نائب الرئيس عبد السلام عارف وبعد الثورة بأيام قابل الرئيس عبد الناصر في دمشق وكان التفاهم بينهما بأسرع ما يمكن خصوصا عندما جاء الحديث عن الوحدة وكان هذا هو الوضع الطبيعي لثورة العراق ـ وتصرف عبد السلام عارف مع الثورة وزعيمها عبد الكريم قاسم على هذا الأساس. (الدعوة للوحدة مع مصر) ولكن هذا الوضع لم يرض عبد الكريم قاسم الذي كان يريد أن ينفرد بالعراق، ولما اشتد ساعد القوميين المدعمين بعبد السلام عارف ضربهم عبد الكريم قاسم بالشيوعيين وكان قمة ذلك عزل عبد السلام عارف، ونقله إلى وزارة الخارجية ثم اعتقاله، والحكم عليه بالإعدام الذي خفف إلى السجن.

وبطبيعة الحال، أيد الاتحاد السوفيتي سياسة عبد الكريم المستعينة بالشيوعيين العراقيين. لضرب القومية العربية والوحدة إذ كان للاتحاد السوفيتي موقف علني ضد الوحدة العربية والقومية العربية. وهي المجال الرئيسي لسياسة عبد الناصر. وعندما أخذ عبد الناصر بضرب الشيوعيين في كل من سوريا ومصر لتأييدهما أعمال الشيوعيين الفوضوية في العراق، هاجم الاتحاد السوفيتي مصر وعبد الناصر

علنا ورد عبد الناصر على هذا الهجوم ولكن بأسلوب محسوب ومحدد لحاجته للروس الذين كانو قد بدءوا في تمويل مشروع السد والمشروعات الصناعية الأخرى في مصر وتحويل التسليح المصري إلى السلاح الروسي.

إزاء كل ذلك، كانت هناك محاولات من القوميين داخل العراق وجيش العراق للإطاحة بعبد الكريم قاسم. وقامت مصر بالاتصال بهم ومعاونتهم، وكانت هذه التدبيرات تتم بين عبد الناصر والعناصر القومية في جيش العراق مما استلزم مساعدات الجمهورية العربية لهم بالسلاح وجهاز لتعبئة الرأي العام في الجيش العراقي والشعب العراقي والقوميين العرب وجاءت تعبئة الرأي العام على شكل محطات إذاعة سرية متحركة إحداها تم تسليمها للشواف في الموصل والتي فشلت لقصر مداها، ووضع تحت تصرفهم محطة إذاعية سرية متحركة أخرى قوية وضعت في منطقة الغوطة بالقرب من دمشق وأخذت تبث إذاعتها أثناء ثورة الشواف بالموصل على أنها هي نفسها محطة إرسال الموصل التي ضربها عبد الكريم قاسم في أول الثورة وبعد فشل الثورة عادت إذاعة بغداد إلى شتائمها وهجومها على عبد الناصر وعلى سياسة الجمهورية العربية المتحدة. وكانت في الوقت نفسه أجهزة إعلام الاتحاد السوفيتي تشترك معها في نفس الخط.

وفي الوقت نفسه اشتركت في الحملة الهجومية إنجلترا ذات النفوذ القديم في عراق ما قبل الثورة. كما اشتركت الأردن في نفس الحملة الإعلامية الهجومية على الجمهورية العربية المتحدة بالإضافة إلى أجهزة إعلام لبنان، كل هذا المهرجان الإعلامي السوفيتي العراقي الأردني اللبناني جعل عبد الناصر يفكر بأسلوب عملي للتصدي لهذا المهرجان الإعلامي ولجأ إلى أسلوب الإعلام السري لتلافي الحرج خصوصا روسيا وذلك بتشغيل محطة سرية قوية جدا من القاهرة تحت إشراف المخابرات العامة ليبث من خلالها هجومه علي الإذاعات المعادية دون تحفظ بالإضافة إلى ما تبثه محطات القاهرة وصوت العرب الرسميتين من إذاعات محسوبة.

محطة إذاعة صوت الأمة العربية السرية

هذه المحطة كانت تحت إشرافي في مجموعة المصادر العلنية (مجموعة الصحف والإذاعة بالمخابرات العامة) وهي محطة قوية جدا مخفاه في مكان حصين بالقاهرة

ولها استوديوهات كاملة في مكان تابع للمخابرات العامة. وهذه المحطة كانت قد استعانت بها مصر بعد أن ضربت هوائيات إذاعة القاهرة في أبي زعبل أثناء العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ وتسبب في إسكات إذاعات القاهرة كلية ـ فقامت هذه المحطة في الحال بالعمل محل إذاعة القاهرة ونجحت نجاحا منقطع النظير إلى أن أعادت محطات إذاعة القاهرة إصلاح الهوائيات.

وقد كلفت بعد فشل ثورة الموصل بتشغيل محطة الإذاعة السرية، وبجانب الخطوط العامة لسياسة هذه المحطة وأهدافها والخط الإعلامي الذي أعطي لي والذي يجب أن تلتزم به الإذاعة، فقد عكفت في قسم الشئون العربية في مجموعتي مع الضابط المشرف على هذا القسم على الاطلاع على جميع ظروف موقفنا السياسي من ثورة العراق منذ نجاحها إلى أن انتهت بالموقف العدائي لعبد الكريم قاسم وانعكاس هذا الموقف على سياسة الاتحاد السوفيتي مع العالم العربي عامة والجمهورية العربية خاصة وموقف دول حلف بغداد ولبنان والأردن ونشاط بريطانيا في العراق.

بعد هذا الاطلاع الدقيق أمكنني التوسع في توضيح الخطوط العامة التي أمدتني بها رئاسة الجمهورية لألتزم بها.

بعد ذلك أطلق لي حرية التصرف في العمل فبدأت في اختيار الأسلوب الملائم وأطلقت علها اسم «صوت الأمة العربية» وبحيث أضفت إلى الإطار العام مهاجمة الاستعمار والتدخلات الأجنبية في جميع دول وإمارات وأراضي الأمة العربية سواء المناطق المستقلة أو المناطق التي لم تتحرر بعد ثم أنشأت قسم دعاية في المجموعة يجمع آخر أنباء دول وأراضي الأمة العربية من واقع نشرات الصحف والإذاعة اليومية ويصدر تقريرا يرسله إلى المحطة.

وقد قمت بالتعاون مع مكتب اللاجئين العرب برئاسة الجمهورية باختيار عدد كاف من اللاجئين الذين يصلحون ليذيعوا بلهجات بلادهم الأصلية ويكونوا على مستوى ثقافي يسمح لهم بالحكم على ما يصلح ليذاع، وكيف يصاغ، وخصصت للعراق بالذات طاقما مميزا بالمعرفة بشئون العراق. وخصصت لكل دولة عربية مذيعين من نفس الدولة وذلك للتمويه على موقع المحطة والجهة التي تذيع منها

وأذكر من هؤلاء اللاجئين المرحوم الراوي من العراق وناصر السعيد[1] اللاجئ السعودي ومجموعة من رابطة أبناء الجنوب وكثيرون غيرهم.

واستمر تشغيل هذه المحطة إلى أن سقط عبد الكريم قاسم في العراق.

اختبار مدى هذه المحطة السرية.

لأجل التأكد من وصول بث هذه المحطة السرية إلى معظم جهات العالم قمنا عن طريق وزارة الخارجية بتكليف معظم سفارتنا وقنصلياتنا في الخارج بمحاولة التقاط هذه الإذاعة وعمل تقرير عنها وعن مدى تأثيرها وخاصة في بلاد الأمة العربية على اعتبار أنها محطة تخص ثوار العراق ضد أسلوب حكم عبد الكريم قاسم.

---

(١) المناضل السعودي الشهير بـ«ناصر السعيد». تمكنت السلطات السعودية من خطفه ووضعوه أمام فوهة مدفع ونسفوه انتقاما منه.

مهــام خــارج الحــدود

رحــلة إلــى سوريــا

كان في إذاعة إسرائيل الناطقة بالعربية أيام وحدة سوريا ومصر برنامج إذاعي يطلق عليه «مضافة أبو محمود» تقليدا للبرنامج المصري «أبو زكي» الناطق بالعبرية. وجاء في أحد تقارير الرأي العام التي تصلني أن في اتجاهات الرأي العام السوري وبخاصة بين البدو في الريف السوري منه كثيرا من التبرم من الوحدة بسبب سياسة مصر هناك وأن كثيرا من السوريين يستمعون إلى البرنامج الإذاعي الإسرائيلي «مضافة أبو محمود».

استمعت بنفسي إلى هذا البرنامج لمدة ثلاثة أيام، وهو عبارة عن ديالوج يتم بين جيران وضيوف وأصدقاء الشخصية الخيالية أبو محمود يجتمعون معه يوميا للسمر في مضيفته (حجرة جلوس الضيوف). وتجري أحاديث ومناقشات باللهجة البدوية تتناول الأخبار المحلية المحيطة بالمضيفة. وآخر أخبار سوريا وعلاقتها بجيرانها وأخبار عن أخطاء المصريين الذين يعملون بسوريا، ويبالغ في إثارتها، وذلك كله في أسلوب بدوي مصاغ ببراعة فائقة فيه قليل من الحقائق ولكن مغلف بأكاذيب وتعليقات مسمومة (دعاية رمادية).

إزاء ما جاء بهذا التقرير وبعد سماعي لهذا البرنامج عدة أيام. وتقديري لمدى خطورته، فقد ذهبت بنفسي في رحلة استطلاعية إلى سوريا وهناك قابلني مندوب من المخابرات العامة، ولحسن حظي كان الصديق زميل الكفاح في عمليات القنال ضياء حسنين وهو شخصية محبوبة هناك في جميع الأوساط السورية.

تجولت معه في الريف وبين منازل وجماعة البدو، وبعض منازل أصدقائه السوريين في العاصمة. وكان الصديق ضياء حسنين هو الذي يستدرج من نزورهم

في الحديث عن هذا البرنامج، وكانت النتيجة إجماع آراء كل من قابلتهم عن اهتمامهم بالاستماع إلى هذا البرنامج الذي يختلف عن لهجة السباب الخارجة عن الأخلاق والذوق العربي وضربوا مثلا بذلك بهجوم إذاعات القاهرة، على الملك حسين ملك الأردن، وهو عربي قبل كل شيء بتسميته «حسين ابن زين» وهذا مخالف لأخلاق وسلوك وطباع العرب، وخاصة البدو أو ممن هم من أصل عربي وجعلتهم مثل هذه الصغائر ينصرفون عن إذاعات مصر إلى البرنامج الإسرائيلي الخالي من الشتائم والسب.

وقمت بتحليل هذه الآراء مع الصديق ضياء الدين حسنين، وعرض علي أن نزور جمعا من أصدقائه السوريين ذوي الميول الوحدوية الذين يثقون فيه وكلهم من الشخصيات البارزة من الساسيين لأقف بنفسي على مدى تبرمهم من الوحدة.

وبعد حديث طويل قام هو بإدارته علمت منهم في النهاية أنهم ينتظرون أحداثا خطيرة وشيكة الحدوث ضد الوحدة مع مصر.

عدت إلى القاهرة ووضعت تقريرا عن توقع أحداث في سوريا ضد الوحدة. وفي الوقت نفسه وضعت تقريرا آخر عن الرأي العام السوري وبرنامج إسرائيلي «مضافة أبو محمود». وطلبت مقابلة المسئول عن إذاعة صوت العرب ولخصت له نتيجة هذه الزيارة.

وفي الوقت نفسه تمت تقوية الشوشرة على إذاعة إسرائيل وبخاصة برنامج «مضافة أبو محمود». وقامت إذاعة صوت العرب بعمل برنامج مماثل له كبديل للمستمع العربي.

وبعد مدة وجيزة حدث الانفصال.

رحلة إلى غرب إفريقيا

أثناء عملي بمجموعة المصادر العلنية قمت برحلة إلى غرب إفريقيا وزرت أربعة من دولها واحدة كانت مستقلة من مدة طويلة وهي ليبيريا، ولكن كانت تسيطر على حكومتها شركة دانلوب الأمريكية لصناعة المطاط حيث إن ليبيريا من أغني بلاد

العالم في خام المطاط الطبيعي، وزرت ثلاث دول مستقلة حديثا هي غينيا وغانا والكامرون. والملحوظة العامة التي لفتت نظري عن هذه الدول الإفريقية حديثة الاستقلال أن بها إمكانات كبيرة للتواجد العربي برءوس أمواله البترولية للاستثمار بصفة عامة هناك ولتواجد مصري بطاقاته العلمية والبشرية بصفة خاصة.

كان يمكن تزواج رأس المال العربي مع الخبرة المصرية للمساهمة في التنمية الصناعية لمشاريع استثمارية تعود على الأطراف الثلاثة (الدول الإفريقية والرأسمال العربي ومصر) بالخير، على الأقل في مجال المنتجات الاستهلاكية والمثل الصارخ على هذا الخلل الاقتصادي كان واضحا بشكل بارز في ليبيريا Liberia حيث إن المحال التجارية هناك تعرض للبيع معظم السلع من مواد تموين إلى مفروشات وأثاث والضروري لجميع مطالب الحياة ولكن معظم خاماته من إفريقيا ولكنها مصنعة في أمريكا وتباع بأغلى الأسعار إلى المستهلكين هناك وكان المثل على ذلك وجود كراسي الجلوس هناك كلها مصنوعة في أمريكا من خشب المامبو المنتج والمستزرع في غرب إفريقيا وليبيريا نفسها، كانت شركة النصر المصرية للاستيراد والتصدير والتي كانت تعمل في غينيا مثلا ممتازا لهذا النجاح ولو أنها اعتمدت فقط على الاستثمار المصري.

● في طريق العودة من هذه الرحلة قمت بزيارة تونس والمغرب. وفي المغرب تصادف ميعاد زيارتي لها أن يكون عقب زيارة المرحوم الملك محمد الخامس لمصر، وعودته على طائرة حربية مصرية يرافقه وفد مصري صحفي من رؤساء تحرير الصحف وكبار الكتاب المصريين بدعوة من الملك. تقابلت في الفندق مع هذا الوفد وكنت أعرف بعض أعضائه ودعيت معهم إلي حفل عشاء في قصر الملك. أثناء الحفل جلس معنا رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية، وهو صحفي وأخذ يدعو الصحفيين المصريين لزيارة إحدى قواعد جيش جبهة التحرير الجزائرية في قاعدة له بالمغرب على الحدود الجزائرية. شعرت بعدم حماس معظم الصحفيين المصريين اللهم إلا المرحوم الأستاذ إسماعيل الحبروك رئيس تحرير جريدة الجمهورية فشجعته، وعرضت ذهابي معه.

لم يضع رئيس مكتب جبهة التحرير الجزائرية الوقت. وأبلغنا أن الرحلة ستبدأ

بعد نهاية حفل العشاء مباشرة. وبعد الحفل مر بنا مندوب الجزائر ونحن بعربته على الفندق حيث أخذ كل منا ما خف حمله من حاجيات المبيت لمدة يومين وتوجهنا في عربة مدنية قوية إلى القاعدة الجزائرية في داخل أراضي المغرب. واختلطنا هناك مع شباب الجزائر أثناء تدريباتهم ووقف المرحوم إسماعيل الحبروك خطيبا واشتركت أنا معهم في ضرب النار وجمعتنا بهم موائد الطعام في مواعيد المعسكر وأخذنا صورا معهم وانتظرنا إلى المساء، وأخذنا عربة إلى ما قبل الحدود المغربية الجزائرية وعلى تل في العراء وجدنا هناك أحد أفراد قوات المقاومة الجزائرية. حضر باتفاق يبدو أنه تم باللاسلكي من داخل الحدود ليقودنا كدليل في تسللنا إلى داخل الجزائر. وعلى الحدود جعلنا نزحف ـ خلال نفق محفور تحت سور الأسلاك الشائكة وعلمت فيما بعد أن مثل هذا النفق يجهز مسبقا عند ما تكون هناك عملية إدخال لقوات من الخارج. ويضطر بعد التسلل إزالته لإخفائه عن العدو الفرنسي.

كان يرافقنا عدد كبير لا يقل عن عشرين فردا ممن تم تدريبهم. وفي الداخل وجدنا مندوبا آخر كان يختبئ في الليل خلف تل وينتظر وصولنا. قادنا الفدائيون خلال دروب الصحراء مشيا على الأقدام لمدة ساعة ونصف وفجأة وجدنا أنوار قرية صغيرة. دخلنا القرية الجزائرية في حماية الفدائيين والمرافقين من أبطال تحرير الجزائر. في الصباح تناولنا مع عدد من كبار أهل القرية الإفطار. وأمضينا وقتا طيبا بينهم أطلعونا على أسباب استقلال هذه المنطقة عن السيطرة الفرنسية. وعلمنا منهم أن جميع التلال المحيطة بهذه القرية تنتشر فيها نقط حراسة حصينة من جيش التحرير. وكثيرا ما قدمت حملات من الجيش الفرنسي لاحتلال هذه القرية، وفشلت جميعها بعد تكبد الفرنسيين الخسائر الجسيمة.

مكثنا إلى وقت الليل في هذه القرية الصامدة الباسلة. وعدنا من نفس الطريق وبنفس الأسلوب في أثناء الليل وانتهت الرحلة داخل الجزائر ولكني مكثت في القاعدة الخارجية حسب طلبهم بعد أن علموا مني سابق خبرتي في حرب العصابات في القنال وكانت لقاءات مثمرة تناولنا فيها تبادل الخبرات واستمرت لمدة أسبوع تعايشت فيه مع هؤلاء المكافحين وقام المرحوم إسماعيل الحبروك عند عودته إلى القاهرة بعمل ريبورتاج بالصور في جريدة الجمهورية عن هذه الرحلة الفريدة.

في أواخر عام ١٩٦١ كلفني السيد صلاح نصر رئيس المخابرات العامة بمصاحبة وفد مصر للعلوم والتكنولوچيا في چينيف برئاسة وزير البحث العلمي صلاح هدايت (مستشار سياسي للوفد). أعطاني نسخة من دعوة وطبيعة المؤتمر وكان عنوانها «التطبيق العملي للعلم والتكنولوچيا لصالح الدول النامية» Aplication of Screvce and Tecnolg for The benefil of under Developing countries.

كان هذا المؤتمر أول مؤتمر يعقده المجلس الاقتصادي والاجتماعي بهيئة الأمم ECOSOC لهذا الموضوع. هذا المؤتمر كانت ستشترك فيه إسرائيل بوفد كبير وكذلك معظم دول العالم الثالث (الدول النامية). وقمت بتحضير دراسة عن النشاط العلمي الإسرائيلي من واقع المصادر العلنية المجمعة في البحث العلمي، ثم قمت بتوزيع هذه الدراسة قبل السفر على جميع أعضاء الوفد، وكان الوفد يضم نخبة كبيرة من علماء مصر بحيث كانوا يغطون معظم الفروع العلمية.

وتكونت لجان فرعية حضرت معظمها وكانت الدول الأعضاء في المؤتمر قد تقدمت بمشاريعها العلمية ومعظم الدول الصناعية الكبرى والسابق استعمارها لمعظم دول العالم الثالث. تقدمت مصر أيضا بكثير من الأبحاث لصالح هذه الدول في شتى الفروع. وما كان يهمني أنا بالفعل هو أبحاث إسرائيل وهي متاحة لمن يطلبها من إدارة المؤتمر بهيئة الأمم، وذهبت إلى هذه الإدارة وحصلت على جميع أبحاث إسرائيل المقدمة للمؤتمر وكذلك بعض أبحاث الدول الصناعية الكبرى. ومما لفت نظري هناك وجود طاقم كبير من الروس ومعهم صناديق ضخمة يجمعون فيها نسخا من جميع أوراق المؤتمر ليرسلوها إلى بلادهم.

هذه الظاهرة جعلتني أهتم بجمع أبحاث إسرائيل وجمع أوراقها التي تقدمها يوميا إلى المؤتمر حتى يمكنني عند العودة إلى مصر بواسطة جهاز الترجمة في مجموعتي «بالمخابرات» ترجمتها وإصدارها في كتاب خاص بجميع أبحاث إسرائيل التي قدمتها للمؤتمر وكانت كلها منصبة على الاستخدام العلمي بتطبيق التكنولوجيا في جميع الأفرع وبخاصة في الصناعة لدرجة أنهم قدموا بحثا كاملا عن استخدام الطاقة الشمسية بإنتاج مولد صغير للكهرباء من الطاقة الشمسية كان

مستعملا في إسرائيل في المناطق النائية وبثمن زهيد. بعد أن قدمت هذا الكشف لرئيس الوفد المصري كان تعليقي أن إسرائيل من واقع أوراقها التي قدمتها للمؤتمر كانت مهتمة جدا خصوصا في مجال الصناعة. والتقط هذا التعليق عن صناعة إسرائيل رئيس الوفد صلاح هدايت وركز أعمال الوفد يومها على استخدام العلوم والتكنولوجيا في التنمية الصناعية. لاحظنا أن أثناء هذه المناقشة المثمرة أن كشف الأسبقية المجهز من معظم الدول العظمى لم يجئ به أي شيء عن الصناعة إما تجنبا أو تجاهلا.

كما لفت نظر أعضاء الوفد المصري نتيجة المناقشات أن جميع المشكلات الاجتماعية والاقتصادية يوجد لها وكالة مخصصة في هيئة الأمم إلا وكالة عن الصناعة (Specialized agencies) ويومها قام وفد مصر ليلا بتحضير دراسة ومشروع اقتراح بإنشاء وكالة للصناعة بالمجلس الاقتصادي والاجتماعي حتى يمكنها القيام بدورها لصالح الدول النامية.

واتخذ المؤتمر قرارا بالنظر في تشكيل وكالة للصناعة مستقبلا حسب ما تسمح به ميزانية هيئة الأمم.

بريء في قفص الاتهام

في آخر أيام عملي بمجموعة المصادر العلنية بالمخابرات العامة، وقبل انتدابي للعمل بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي اتصل بي تليفونيا بمكتبي أحد الشبان الذين عملت معهم في أعمال المقاومة بالقنال أيام العدوان الثلاثي، وهو كمال عزمي وكان يقوم متطوعا بقيادة مجموعة من الشباب الوطنيين ولإعجابي بهذا الشاب ومعرفتي السابقة به حيث كان يشرف على تدريبي الصحفي في جريدة الجمهورية، فقد رشحته بعد العدوان للعمل بالمخابرات العامة. ونسيت الموضوع كله إلى هذا التاريخ. أفادني تليفونيا بأنه بناء على ترشيحي له عام ١٩٥٦ تم تعيينه بمكافأة مجزية للعمل بالمخابرات في الخدمة السرية وأثبت كفاءته في العمل. كما حصل أثناء عمله بالخدمة السرية في الخارج على الشهادات التي تؤهله للعمل كضابط مخابرات.

وبدأت المخابرات العامة في اتخاذ إجراءات التعيين وكان في إجازاته أو

مأمورياته في القاهرة يدخل ويخرج لمبنى المخابرات بتصريح. وفجأة عندما حضر آخر مرة. سحبوا منه تصريح الدخول وبلغ بأنه قد استبعد من العمل في المخابرات. حضر لمقابلتي وأبلغني أنه عندما رشحته المخابرات للعمل استقال من عمله الذي كان يحقق له دخلا مرتفعا في إحدى الشركات ولكن المخابرات العامة جعلته يستقيل من عمله الأصلي وعينته في وظيفة متواضعة بمرتب متواضع في هيئة تنمية الصادرات كغطاء لعمله السري الخارجي.

وبعد أن استغنت عنه أخيرا وبدون أسباب عاد إلي هيئة تنمية الصادرات بمرتب لا يكاد يكفيه، وهو لا يمكنه العودة للعمل بالشركة الأصلية بالمرتب المجزي حيث رفضوا إعادته بعد هذه السنين الطويلة.

اتصلت بمدير مكتب رئيس المخابرات العامة فأرسل لي ملفه. وبالاطلاع على الملف وجدت أن المخابرات العامة كانت جادة في إجراءات تعيينه والتي تقتضي التحري عنه من المباحث العامة ووجدت في تقرير التحري أن هذا الشاب يقطن في شقة بعمارة في مدينة المقطم وقد ثبت أن زوجته أثناء عمل زوجها في الخارج مدة طويلة كان يتردد علي منزلها أحد أثرياء العرب بعربته ويصعد إلى شقتها، ويقضي معها أوقات طويلة، وقد يقطن معها لعدة أيام. وهذا هو سبب استبعاده فجأة من العمل بالمخابرات وأصبت بصدمة. لأن الشاب كان في منتهى الرجولة والأخلاق وفي نفس الوقت لم أستطع مصارحته بهذه المعلومات.

اتصلت به وأفهمته أنني سأبحث بنفسي له عن عمل. ولحسن الحظ انتقلت بعد أيام للعمل منتدبا في الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي. ورشحته للعمل بمكافأة معي في نفس الأمانة لأني كنت أقدره ومعجبا به وكانت المكافأة التي اقترحتها مجزية جدا.

استمر يعمل معي منذ التحاقي بهذا العمل وكان في منتهى الكفاءة والأمانة والذكاء في جميع تصرفاته.

وبينما كنت أستعد للعودة، إلي عملي الأصلي بالمخابرات العامة بعد انتهاء خدمتي في الاتحاد الاشتراكي سألني المرحوم المهندس سمير حلمي وكان وقتئذ

رئيسا لكبرى شركات نقل الركاب عما إذا كان هناك موظف كفء ليعمل معه مديرا لمكتبه. فأشرت عليه بالموظف المذكور لشعوري بصلاحيته الفائقة ووطنيته الخالصة حيث إنه تطوع في حرب فلسطين ١٩٤٨ مع قوات البطل أحمد عبد العزيز كما شارك في أعمال المقاومة عام ١٩٥١.

وأثناء إتمام إجراءات التعيين أمكنه الاطلاع على ملفه المحفوظ في الأمانة ووجد فيه التحريات المحرجة القديمة. وحضر لي بعد عدة أيام ومعه ملفه ومعه رد على خطاب تمكن من أن يرسله للتحري من المرور عن صاحب رقم العربة ذات الأرقام الأجنبية (الكويتية) والتي قيل إنه الرجل العربي كان يحضر بها إلى منزل زوجته. وجاء رد إدارة مرور القاهرة بمفاجأة غير متوقعة لي أن هذه العربة تخص مواطنا مصريا وذكرت اسمه، ثم قدم لي الموظف في الوقت نفسه إعلاما شرعيا رسميا بأن هذا الشخص الذي قيل عنه إنه عربي تردد على زوجته هو شقيق زوجته المذكورة في الإعلام الشرعي وأنه يعمل بالبلاد العربية بالكويت ويحضر في إجازته للإقامة مع شقيقته في منزلها.

صعقت لهذه المعلومات التي صححت وضع الشاب الأمين وشعرت بكثير من الرهبة والخوف لخطورة المعلومات المضللة التي يقوم بالحصول عليها جهاز المباحث العامة والتي قد تتسبب في الضرر البالغ لأشخاص أبرياء. وقد ثبت بعد ذلك أن المخبر الذي كان مكلفا بالتحري عنه لجأ إلى أحد المكوجية فقال له المكوجي الجار هذه المعلومات الخاطئة والخطيرة والتي استنتجها من ظواهر الأمور.

فوجئت وأنا بمكتبي في المخابرات العامة بمكالمة تليفونية من الزميل كمال رفعت يبلغني أنه قد صدر قرار من الرئيس عبد الناصر بصفته رئيسا للاتحاد الاشتراكي يذاع في نفس اللحظة من دار الإذاعة وذلك بتشكيل أمانة عامة للاتحاد الاشتراكي العربي . وجاء في هذا التشكيل اختياري عضوا بالأمانة العامه ضمن أسماء آخرين من خيرة رجال مصر الوطنيين المتعاونين مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مدنيين وعسكريين . وبعد استماعي لنشرة الأخبار جمعت كل ما يمكن جمعه من مطبوعات ونشرات ومحاضر جلسات وخطب الرئيس عبد الناصر حول تشكيل وتنظيم الاتحاد الاشتراكي . وكان هذا الاتحاد الاشتراكي العربي سبق وتشكل بموجب قرار المؤتمر القومي للقوى الشعبية في ٤/ ٧/ ١٩٦٢ وبقرار رقم ١ من اللجنة التنفيذية العليا ١٩٦٢ . وذلك بإصدار القانون الأساسي للاتحاد الاشتراكي العربي وتعديلاته . ووجدت بعد الاطلاع أنه قد جاء بالميثاق(أن الحاجة ماسه إلى خلق جهاز سياسي جديدا «بديلا عن الاتحاد القومي» داخل إطار الاتحاد الاشتراكي العربي تتجمع في يده وحده السلطان السياسي على غرار النظام الحزبي .

وأن تنظيم الاتحاد القومي ، والذي برغم سابق قيامه بدور سياسي إيجابي إلى حد ما ، إلا أن العيب الأساسي فيه هو كان أن القيادة السياسية تركت الفرصة للانتهازية لتتسلل إليه وبالتالي سيطرت على المناصب الرئيسية (١) .

وبالتالي أصبحت الضرورة بأن يكون التنظيم الجديد شعبي وله سلطات فوق

(١) بيان تعليقات الرئيس عبد الناصر بجلسة المؤتمر القومي في ٢٦ مايو ١٩٦٢ ص ٥٧ وص٥٨ من تجميع الاستعلامات مجلد الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٦٤ .

السلطة التنفيذية وتستطيع أن تراقبها وتحاسبها وتناقشها وتقترح عليها اقتراحات، وبهذا تعطي للشعب فرصة المشاركة في الحياة الديمقراطية على أوسع نطاق.

وجاء في أقوال الرئيس عبد الناصر في المؤتمر أيضا «لابد أن تكون هناك جماعية في كل مرحلة من المراحل. . . . ففي أخذ القرار يجب أن يكون هناك تصويت وكل واحد يقول رأيه، والأقلية تلتزم بما تقره الأغلبية» وجاء أيضا «أن الاتحاد الاشتراكي يعتبر أكبر سلطة لأنه يمثل التنظيم الشعبي على أن تكون جميع المستويات بالانتخاب» (١).

وأثناء قراءاتي لهذه المصادر وغيرها أمكنني الاتصال بعدد من الأصدقاء الذين كانوا يعملون بتنظيم الاتحاد الاشتراكي وعلمت منهم أن النشاط السياسي الجاد والعمل الجماهيري لم يحدث فيهما تغيير عما كان عليه في ظل تنظيم الاتحاد القومي السابق وأن جميع المناصب لم يتم انتخابها وجاءت بالتعيين لكل ما جاء بقرارات المؤتمر القومي للقوى الشعبية والميثاق وقانون الاتحاد الاشتراكي وأن الانتهازيين ما زالوا موجودين في كثير من المراكز الحساسة بالاتحاد الاشتراكي.

وبعد فترة تأمل ومحاسبة للنفس وللأوضاع تأكد لي أن هذا التعيين يعتبر مفاجأة حقيقية لي:

أولا: لأن العمل الحزبي الجماهيري هو آخر ماكنت أفكر فيه حيث كان يتناقض تماما مع طبيعة عملي الذي ارتضيته. وإن الانتقال من العمل السري المنضبط في المخابرات العامة المصرية يتناقض تماما مع طبيعة العمل الحزبي السياسي وهو الذي يقضي بالضرورة بالعمل مع الجماهير مباشرة ومع الجماعات والتشكيلات والكيانات السياسية الأخرى التي كانت متواجدة داخل الساحة الحزبية. صحيح أن الاتحاد الاشتراكي كان هو التنظيم السياسي الشرعي الوحيد في البلاد بعد الثورة وبعد مرحلتين متشابهتين هما هيئة التحرير ثم الاتحاد القومي، غير أن جماعات سياسية أخرى كانت غير شرعية ولكنها كانت موجودة ولا يستطيع أحد أن ينكر وجودها حيث كانت أفكارها تجد جانبا كبيرا من الصدى عند كثير من الناس. فقد كان هناك الإخوان المسلمون

(١) نفس المصدر السابق ص ٤٢.

والتنظيمات الشيوعية السرية المختلفة غير المعترف بها قانونا. وكانت كلها تعمل تحت الأرض و يرفضون فكره حل تنظيماتهم الشيوعية والانضمام إلى تنظيمات الثورة، علما بأن جانبا من هذه التنظيمات أعلن حل نفسه بعد تشكيل الاتحاد الاشتراكي على أساس أن لائحة الاتحاد الاشتراكي جعلت هناك شرطًا لقبول أعضاء الجماعات الشيوعية داخل تنظيم الاتحاد الاشتراكي. ولقد كان هناك أيضا جماعات المصالح التي أضيرت مصالحها الذاتية مع مبادئ وخطوات التغيير الثوري للمجتمع المصري.

ثانيا: إن رد الفعل التلقائي لعدم ترحيبي الفوري لأكون ضمن تشكيل الأمانة العامة عقب إعلان اسمي ضمن أعضاء التشكيل هو أنني في قرارة نفسي لم أكن مقتنعا بأسلوب هذه التشكيلات منذ هيئة التحرير التي فقدت إجماع واقتناع الجماهير برغم أن الثورة إقامتها أساسا لتكون معبرة عن الجماهير.

مقابلة الأمين العام

في نفس ليلة إعلان القرار الجمهوري بتشكيل الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي اتصل بي تليفونيا الزميل عبد المجيد شديد ويقوم بأعمال السكرتارية للأمانة العامة وهو عضو أيضا في تشكيل الأمانة الجديدة وأبلغني بموعد تحدد لي للقاء سريع مع السيد حسين الشافعي أمين عام الاتحاد الاشتراكي، الذي أخذ يشرح لي في هذه المقابلة بالتفصيل كل شيء عن الاتحاد الاشتراكي وأخذت أبحث عن ثغرة في كلامه لأنفذ منها بطلبي الاعتذار عن العمل في الأمانة العامة بعدما تحقق لي أن التنظيم بأسره كان خامدا ولم يف بما وعد به الرئيس في المؤتمر القومي بإجراء انتخابات حرة في المستويات المختلفة بل جاء كل شيء بالتعيين وأنني أسجل أن أسلوب العمل في هذا الاتحاد الاشتراكي لا يخرج عن أسلوب العمل للقمصان السوداء لمصر الفتاة بقياة أحمد حسين من قبل الثورة وكذلك نظام القمصان الزرقاء بالنسبة لحزب الوفد. أقنعنى السيد حسين الشافعي بأن ما أقوله مطابق لرأي عبد الناصر وأن تشكيل الأمانة العامة بهذه الشخصيات القوية يقصد به العمل الجاد لتغيير مفهوم وأسلوب العمل إلى العمل الجماهيري الحقيقي.

وتم في اليوم التالي اجتماع الأمانة العامة مع الرئيس عبد الناصر وأذكر أن شخصيات قوية ومرموقة أعضاء في الأمانة حضرت الاجتماع على رأسهم المهندس أحمد عبده الشرباصي والدكتور نور الدين طراف والمهندس سيد مرعي والسيد خالد محيي الدين والسيد حسين ذو الفقار صبري. وتكررت الاجتماعات برئاسة السيد الرئيس عبد الناصر وأوضح أن هذا التنظيم السياسي بهدف بالمقام الأول إلى تحقيق تحالف قوي الشعب العاملة من عمال وفلاحين ورأسمالية وطنية ومثقفين، كما أنشئ لكل منها أمانة وأمانات متخصصة هي أمانه الدعوة والفكر وأمانة الشئون الخارجية وأمانة الشئون الصحفية وأمانة للشباب وأمانة المعهد الاشتراكي وأمانة الرقابة والنشر وشئون الأعضاء التي عينت أمينا لها وكذلك أمانة الوجه البحري وأمانة الوجه القبلي وتم تشكيل اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي

تنظيم أمانة الرقابة وشئون الأعضاء

بادرت بتنظيم الأمانة التي توليتها بتوجيه الرئيس عبد الناصر أنه لا قيد على الأمناء في التنظيم والعمل. وجمعت نخبة من المساعدين المتدربين النابهين وبدأت فورا في تحليل الصحافة اليومية وغيرها وكذلك تحليل برامج التلفزيون وتحليل برامج المعهد الاشتراكي. وكانت هذه التحاليل تتناول في موضوعية وأمانة المآخذ على كل ما ينشر في الصحف اليومية وبرامج التلفزيون وحقق ذلك إصلاحا جذريا في برامج التلفزيون التي أصبحت أكثر جدية والمذيعون أكثر دراية بموضوعاتهم المقدمة [١].

وبدأ النشاط الجدي في جميع الأمانات الأخرى بما يحقق رقابة الشعب على السلطات وكأمثلة على ذلك قيام أحد أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكي بالقرية بالتدخل مباشرة في مستشفى القرية وتهديد الأطباء بها دون وجه حق [٢]. وما أن بلغ الأمانة حتى حققت وفصلت هذا العضو. والواقعة التالية أن أحد الشبان

---

(١) بما نشرته جريدة الأهرام في الملحق الأسبوعي ٢٧/ ٣/ ١٩٦٦ عن النشرة التحليلية لأمانة الرقابة والنشر.

(٢) جريدة الأخبار يوم ٦/ ٤/ ١٩٦٥ في حديث لي مع الأستاذ وجدي قنديل.

الوطنيين تظلم من عدم إعطائه عضوية الاتحاد الاشتراكي لأنه كان من المعزولين حسب سجلات الأمن العام لأنه كان من المعتقلين في العهد الملكي ومنحت له العضوية بعد ما تبين أن اعتقاله أيام الملك لمعارضته الفساد.

وفي هذه الفترة كان صوت الصحافة المصرية وبرامج التلفزيون السياسية منها والاجتماعية، كان من أعلى الأصوات تعبيرا عن رأي جماهير الشعب الاشتراكية. وأجريت ندوات عن حرية الصحافة كان منها ما نشر في جريدة العمل العدد ٢٢ يناير ١٩٦٦ للمداولات التي نظمتها الجريدة عن «دور الصحافة في المجتمع الاشتراكي» وكان من مظاهر حرية التعبير هو تناول كل أخطاء الصحافة بما تذكرة من مواضع ومقالات بأسلوب يخالف تماما الأوضاع في المجتمع الاشتراكي وجاءت توصيات الندوة معبرة عن الحرية في المجتمع الجديد بأن الصحافة لم تستطع حتى ذلك الوقت مسايرة التغيرات الضخمة التي إحدثها التحول الاشتراكي، وطالبت التوصيات بضرورة تطوير الصحافة بحيث تصبح بالفعل معبرة عن الوجه الحقيقي للمجتمع الجديد وتشارك إيجابيا في التوعية بالمفاهيم الاشتراكية، وتعمل على تعميمها باعتبارها إحدى مؤسسات الاتحاد الاشتراكي العربي.

طلب المحاكمة التنظيمية

نتيجة للتحاليل التي تصدرها أمانة الرقابة لإحدى محاضرات المعهد الاشتراكي التي وزعت على رؤساء تحرير الصحف ضمن معدل التوزيع للنشرات، وكانت محاضرة المعهد الاشتراكي تحت عنوان «المطالبة باستقلال مصر» أن من أوائل المصريين الذين طالبوا باستقلال مصر هو الزعيم الوطني يعقوب حنا، حيث جاء بالمراجع الفرنسية عن الحملة أنه أثناء وجود الزعيم يعقوب حنا على إحدى البواخر البريطانية منسحبا مع جنود الاحتلال الفرنسي طالب يعقوب حنا الإنجليز وهو على الباخرة باستقلال مصر.

وجاء تحليل أمانة النشر بعد الرجوع إلى أهم مراجع تاريخ الحملة الفرنسية

للمؤرخ الجبرتي في الجزء ٣ ص ١١٤ و٤٢١ و٤٣٦ و٤٣٧ أن كل ما جاء في المحاضرة عن يعقوب حنا مخالف للحقيقة وأن يعقوب حنا هذا لا يصح اطلاقا أن يلقب بالزعيم الوطني لأنه عندما دخل نابليون مصر التحق المعلم يعقوب بخدمة الفرنسيين وكان أفاقا كما كان غيره من العملاء المسلمين.

وقد ألحقه الفرنسيون لخدمة الجنرال ديزيه القائد الفرنسي لحملة تأديب الصعيد وذلك ليطلعه عن مخبئات المصريين ومراكز مقاومتهم كما كان المعلم يعقوب أداة للفرنسيين في التنكيل بالصعايدة أقباط ومسلمين وكان أهل الصعيد يطلقون على فرقة ديزيه اسم «جيش المعلم يعقوب».

وقامت أمانة المعهد الاشتراكي بكتابة تقرير إلى أمين عام الاتحاد الاشتراكي وكان وقتها هو السيد على صبري وطالب التقرير بمحاكمة أمين الرقابة وشئون الأعضاء تنظيميا لمخالفته لأصول العمل وذلك لتوزيعه نشرات وتحاليل يوجه فيها النقد لأمانة المعهد الاشتراكي وذلك على رؤساء تحرير الصحف.

وفي أحد اجتماعات الرئيس عبد الناصر مع أعضاء الأمانة العامة طلب مني مباشرة توضيح وشرح ملابسات هذا النقد. أوضحت لسيادته ولأعضاء الأمانة العامة من واقع المراجع التاريخية ما ذكرته في التحليل واكتفى الرئيس بإعلان سلامة التحليل.

علاقة أمانة الرقابة والنشر بالصحفيين

إيمانا بأهمية دور الصحافة والصحفيين فقد كان من أهم أدوار أمانة الرقابة والنشر وشئون العضوية هو العمل على تحقيق حرية الصحافة إلى حد كبير وبالتالي تحقيق حرية الصحفيين أنفسهم، وكان من ضمن واجبات الأمانة هو قيد الصحفيين في نقابة الصحفيين وتشكلت لذلك لجنة ثلاثية وكان الزميل جمال الألفي ممثلا لشئون الأعضاء فيها وكذلك كان الدكتور فؤاد الدهان ممثلا لأمانة الصحافة والمرحوم الأستاذ أحمد بهاء الدين ممثلا لجموع الصحفيين. وخلال هذه الفترة أقسم بأنه لم يحرم صحفي واحد من الحصول على حقه الطبيعي، وقد تمكنت اللجنة من إعادة القيد في جدول الصحفيين لعدد كبير من الصحفيين، ومنهم المرموقين وكان بعضهم محروما من هذا الحق الطبيعي لأسباب واهية مثل شرط الحصول على شهادة جامعية أو لسابق عمله في فترة ما في بعض السفارات في دول المعسكر الشيوعي في القاهرة. وقد حصل كل هؤلاء الصحفيين على عضوية النقابة وكان هذا العمل مصدر سعادة وفخر لأعضاء اللجنة ولي.

توصيل رأي الجماهير للقيادة العليا

وبمضي الوقت في الممارسة أخذ العمل الجماهيري جانبا كبيرا من مجهودي السياسي فقمت بزيارات متعددة لأغلب محافظات الجمهورية وبرفقتي نخبة من الفنيين المتخصصين والصحفيين، وشملت هذه الزيارات كل موقع فيه بشر داخل مصر ابتداء من سيناء والبحر الأحمر وسيوه والسلوم ومرسى مطروح وقنا وأسوان وأسيوط والوادي الجديد.

وكانت هذه اللقاءات الجماهيرية تتم بالمواجهة بين المحافظين وأجهزة محافظاتهم وبين لجان الاتحاد الاشتراكي بصفة عامة وفي مواجهة الجماهير الحاشدة بصفة خاصة.

وكنا نترك الحرية الكاملة للجماهير للتعبير عن كل ما يعانونه في حياتهم اليومية من أجهزة الدولة أو حتى من أجهزة الاتحاد الاشتراكي نفسه. وفي أغلب الأحيان كانت هذه المطالب والشكاوى والمعاناة تجد لها حلا واستجابة من المحافظين. وما كان متعذرا حله على مستوى المحافظين كانت الأمانة ترفع بشأنه التقارير والتوصيات اللازمة للحكومة بالقاهرة. وفي الوقت نفسه ترسل صورة لرئيس الاتحاد الاشتراكي الرئيس جمال عبد الناصر. وأعتقد أن أغلب هذه المشاكل قد صار حله.

وعلى سبيل المثال كان من ضمن هذه المشكلات الحيوية:

في سيناء: كان من أبرز المشكلات هناك هي مشكلات عمال مناجم الفوسفات في سفاجة حيث وجد بمرور الزمن أن رئة عمال مناجم الفوسفات يحدث بها تحجر وأمراض صدرية أسوأ من مرض السل. وكانت الاقتراحات التي أوصلناها إلى الجهات العليا هو ضرورة ارتداء العاملين كمامات وملابس خاصة وهذه تحد من طاقتهم في العمل مما يزيد في التكلفة. ووصلت القضية وملابساتها إلى القيادة لأجل الحل.

مشكلات منجم فحم المغارة بسيناء

في زيارة لهذه المنطقة القاحلة في سيناء كانت هناك شكوى حقيقية لعمال هذه المناجم لقلة أجورهم بالنسبة لما يبذولونه من مجهود وللمصاعب المعيشية وكان الاجتماع الجماهيري هناك يحضره أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكي واللجنة النقابية ورئيس المؤسسة المصرية للتعدين ومدير المشروع ومدير المنجم، وثبت لنا فعلا أن أجور العمال منخفضة جدا ولا تفي حاجاتهم ولكن نظرا لتدهور إنتاج المنجم فإن ما يحققه من دخل لا يسمح بأي حال لرفع هذه الأجور، وعلم أن الإنتاج الحالي لم يصل إلى ما هو مقدر له بإنتاج ٣٠٠٠٠٠ طن في السنة وإلا لا يتحقق منه أي

أرباح. ومن أسباب تدهور سعره ارتفاع التكلفة لأنه ينقل بالسيارات وقد صدرت القرارات التالية:

١ ـ إلزام العاملين بتحسين الإنتاج ليصل إلى ٣٠٠٠٠٠ طن في السنة.

٢ ـ يستمر النقل بالسيارات إلى أن يرتفع معدل الإنتاج لتسيير خط سكة حديد.

٣ ـ النظر مستقبلا في إمكان توليد الطاقة من هذا الفحم مباشرة بإشعاله داخل المغارات وهي عملية فنية لتوليد الكهرباء.

٤ ـ زيادة أجور العمال وتحسين حالتهم المعيشية في هذه المنطقة القاحلة والكشف عليهم طبيا بصفة دورية وإمدادهم بالأدوات الواقية والملابس المناسبة.

زيارة لمنطقة مصنع الفيرومنجنيز (أبو زنيمة في سيناء أوائل سنة ١٩٦٧)

كانت المعلومات لدى أمانة شئون الأعضاء قبل الزيارة أن فكرة هذا المشروع بدأت ١٩٥٩ وبدئ التنفيذ ١٩٦٢، وهو مصنع أقيم على أساس تصنيع المنجنيز المستخرج من المناجم هناك. وكان من أحدث مصانع العالم قام بتنفيذه شركة (إلكتروكيميك) النرويجية وجدير بالذكر أن هذا المصنع لا يقل أهمية عن مصنع الحديد والصلب لأنه جزء متمم له بإنتاج الفيرومنجنيز اللازم لصناعة الصلب. وهذا المصنع مصمم على إنتاج ٩٠٠٠ طن منجنيز في السنة وبجانب الفيرومنجنيز ينتج ٢٤ ألف طن حديد زهر ومن منشآته محطة كهرباء من ثلاثة توربينات طاقة كل منها ٧٠٠٠ كيلو وات ساعة بالإضافة إلى محطة تقطير مياه البحر تنتج يوميا ٢٢٠٠ طن ماء عذب للشرب والزراعة المحدودة ويقوم بتنفيذها شركة «براوين بوفيري» السويسرية وأقامة رصيف للشحن وأقامة مساكن ومرافق للعاملين ويخدم المصنع خط أنابيب ينقل الغاز الطبيعي من آبار البترول في بلاعيم إلى محطة توليد كهرباء لإدارة المصنع بعد أن كان هذا الغاز يترك سدى ليحترق في الهواء.

حالة المشروع وقت الزيارة ١٩٦٧ (أبريل ١٩٦٧)

بعد إتمام إنشاء ما لا يقل عن ٩٠٪ من المصنع توقف العمل كلية لإجراء تحقيقات مع بعض المسئولين، كان من أهم أسباب التوقف:

١ ـ أنه في المراحل النهائية عند تشغيل خط أنابيب الغاز حدثت ثقوب كثيرة في هذا الخط عند مروره تحت ضغط الماء العالي نتيجة أنها مواسير صنعت محليا وملحومة. وكان المشروع برمته قد تكلف حتى هذا الوقت ٨ ملايين جنيه.

٢ ـ أرادت وزارة الصناعة وقتها أن تقوم إحدى الشركات المصرية بصنع خط المواسير حيث كانت تكلفة المصنوع محليا ١٥٠ ألف جنيه ذلك بدلا من مواسير صلب أوصى باستخدامها رئيس مجلس الإدارة وكانت ستستورد من تشيكوسلوفاكيا أو ألمانيا أو اليابان بتكلفة ٦٠٠ ألف جنيه ولكنها غير قابلة للتلف. (غير ملحومة).

٣ ـ تعطل هذا المشروع بشكل خطير حيث تأخر عن ميعاد الانتهاء منه الذي كان مقدرا له ١٩٦٤ مما جعل المصنع وأهم الخامات المستورده له تتعرض لعوامل التعرية والتلف علاوة علي أجور العمال الباهظة التي تصرف لهم دون عمل.

توصيات أمانة شئون الأعضاء حول الموضوع بعد دراسة على الطبيعة

١ ـ الإفراج عن رئيس مجلس الإدارة وعودته للعمل خصوصا وأنه كان بريئا وكان سبق وأفصح بشجاعة من خطورة استخدام المواسير المحلية.

٢ ـ تكليف وزارة الصناعة بالعمل فورا على استيراد خط الأنابيب غير الملحوم من الخارج بأي تكلفة كانت .

مشكلة آبار البترول في سدر (شركة مصرية إيطالية مشتركة)

بوصولي إلى موقع الشركة عقد اجتماع بين العاملين والفنيين وحضرة مندوب الشركة الإيطالية. وفهمت أن الإنتاج في هذه الشركة يسبب خسارة حيث يتدخل العمال ونقابتهم ولجنة الاتحاد الاشتراكي في أعمال المهندسين والفنيين، ولاحظت طغيان العمال على الفنيين باعتبار تواجدهم أعضاء في الاتحاد الاشتراكي وأبلغت عن ذلك وتم التحقيق معهم وأعطي كل ذي حق حقه وتم تصفية الشرذمة المشاغبة وسار العمل بنجاح.

محافظة مرسى مطروح ١٩٦٦/٤/٢٥

في لقاء مرسى مطروح الجماهيري بدأنا بوحدة سيدي حنيش وفي هذا الاجتماع تفجرت مشكلات نقص المياه برغم مساعدات الحكومة بإقامة طواحين الهواء التي تستخدم في الوقت نفسه لتوليد الكهرباء لأن معظمها معطل لعدم الصيانة. كذلك تبين أن الأعراب الأهالي دأبوا على ثقب مواسير نقل المياه لسقاية الماشية والشرب برغم وجود حنفيات في مناطق محددة. وقد تم اكتشاف ٢٧ ثقبا في يوم واحد وأمكن حل هذه المشكلات على الطبيعة بوعود من جانب المحافظة لعمل حراسة على خط مواسير المياه وإجراء الإصلاحات اللازمة في طواحين الهواء. وكانت هناك مشكلة أخرى وهي تدهور محصول التين والزيتون وتم إقرار تعيين مرشدين زراعيين. كما تفجرت مشكلة تهريب الأغنام إلى ليبيا حيث تباع هناك بأغلى الأسعار مما أثر على كمية اللحوم اللازمة لطعام الأهالي، برغم أنه قد ثبت أن الإنتاج ضخم ويقدر ٤٥١ ألف رأس، وكانت التوصية بالتزام المنتجين لإعطاء الأهالي نسبة ٢٠٪ من الإنتاج. ومن التوصيات الأخرى الاهتمام بالثروة السمكية المتوفرة على الساحل الشمالي.

وكان الاجتماع التالي في واحة سيوه

تبين لنا أثناء الرحلة من مطروح إلى سيوه أن الطريق عبارة عن مدقات تضيع معالمها في مسافات كبيرة متقطعة مما يتسبب كثيرا في التوهان.

أما أثناء اللقاءات الجماهيرية المطالبة بتمهيد الطريق لتنشيط نقل المنتجات التي لا تجد لها تسويقا لصعوبة المواصلات وعدم وجود طرق حديثة لوسائل حفظها وتعبئتها وهي الزيتون والبلح. ووضعت الحلول الفورية مع المحافظة ومؤسسة تعمير الصحاري.

ومن ضمن المشكلات هناك هو تطبيل الأرض نتيجة كثرة تدفق المياه مع عدم وجود مشاريع صرف. وكان من أهم التوصيات هو الإسراع في تنفيذ مشروعات الصرف المتعثرة وخاصة مشروع بارسونز الأمريكي التي صرفت عليه مؤسسة تعمير الصحاري ٨٠ ألف جنيه لمدة ثلاث سنوات ثم توقف. وثانيا

إعادة توزيع الأرض الزراعية من شيخ العرب على حيدة وبخاصة على الذين أسهموا في إصلاحها (١).

إقامة مصانع الكرينا التي تستخدم في التنجيد من سعف النخيل وكذا إقامة مصانع لتخليل وحفظ الزيتون وتعليبه.

استغلال ما يتوفر في سيوه في جبل الدكرور من مواد الكبريت ومواد الصباغة والأسمنت الأبيض بالملاحتين الشرقية والغربية. وكذلك زيادة رحلة نقل الركاب أسبوعيا والتوصية بالبدء فورا في رصف الطريق من مرسى مطروح إلى واحة سيوه.

زيارة الوادي الجديد

قبل منتصف مارس ١٩٦٦ قررت القيادة السياسية القيام بمشروع تعمير صحراء الوادي الجديد بناء على أبحاث العلماء من مصر وأمريكا والاتحاد السوفيتي وذلك أسوة بمشروع السد العالي.

وبدأت مؤسسة تعمير الصحاري منذ سنة ١٩٦٠ وكان الهدف النهائي هو استصلاح مليون فدان. ومنذ ١٩٦٠ حتى أوائل ١٩٦٦ لم يتم استصلاح إلا ٤٣ ألف فدان.

وكان هناك خلاف حاد بين المحافظة ولجنة الاتحاد الاشتراكي من جانب وبين مؤسسة تعمير الصحاري من جانب آخر، وأثناء الزيارة وضحت الصورة كالآتي: برغم مضي أكثر من ٥ سنوات من بداية مشروع التعمير جف جانب كبير من آبار مياه الأهالي البدائية التي حفر بعضها الرومان والبعض الآخر تم حفره منذ مئات السنين وكانت المياه تخرج منها مندفعة دون أي طلمبات رافعة وبديلا عن مواسير المياه كان الأهالي يستخدمون جذوع النخيل المفرغة، وعلى هذه المياه كانت تقوم

(١) كان جاسوسا مزدوجا يعمل مع الإنجليز وفي الوقت نفسه مع الألمان أعدائهم وثبت أنه هو المرشد الذي أرشد الجاسوس الألماني أدلر الذي انتقل عبر الصحراء إلى الوادي. والجاسوس أدلر هو موضوع قضية أنور السادات في العوامة.

زراعة النخيل وقدرت قبل وجود مؤسسة تعمير الصحاري بسبعة آلاف فدان يقتات عليها ٧٠ ألفا من الناس. ووقت الزيارة كانت آبار الأهالي المتبقية بعد الجفاف قد بطل تدفق المياه منها وأصبحت تحتاج إلى عمليات رفع. ويرجع ذلك إلى سحب المياه الجوفية بمعدل كبير حيث قامت مؤسسة تعمير الصحاري بحفر ٢١٤ بئرا جديدا بالأسلوب الحديث وبالقرب من الآبار القديمة. ومن المهازل أن مؤسسة تعمير الصحاري أنشأت عند بدء وجودها مصنعا حديثا لتجفيف البلح وعند الزيارة كان المصنع متوقفا تقريبا لاضطرار المؤسسة من شراء بلح من خارج المحافظة لتجفيفه في هذا المصنع لأجل تشغيل الأيدي العاملة. وقد كانت مساحة الأرض المفروض أن تقوم مؤسسة تعمير الصحاري في الخطة الخمسية الأولى هي استصلاح ٩٦٠٠٠ فدان ولكنها لم تستصلح إلا ٤٣٠٠٠ فدان فقط وصرفت على ذلك مبلغ ١٧ مليون جنيه استهلك جانب كبير منه في إنشاء الطرق (٢مليون) وإنشاء مطارين في الداخلة والخارجة وإنشاء كثير من المرافق والاستراحات الضخمة لا تتناسب مع حجم الإنتاج.

في أحد اللقاءات الثنائية هناك بيني وبين أحد المهندسين المصريين وهو خبير حفر آبار يعمل في مؤسسة تعمير الصحاري ذكر لي أن مثل هذه المشاريع يجب القيام بها بعد الدراسات والأبحاث المستفيضة وأن الخبرة الأمريكية لم تصل إلى تعمير الصحراء معتمدة فقط على المياه الجوفية إلا بعد أبحاث تعرضت فيها للفشل واستمرت ٢٣ عاما، وكان على مصر أن تبدأ من حيث انتهى غيرها، ولكن مؤسسة التعمير بدأت بالتنفيذ والدراسة في وقت واحد، وركز المهندس أنه كان الأولى بمصر أن تفكر في ري الصحراء الغربية بالمشروع البديل المضمون وهو عن طريق استغلال الانحدار الجغرافي الطبيعي للأراضي المصرية غرب النيل بدأ من مفيض توشكي إذا أمكن توفير مياه النيل لتمر منه وبخاصة أنه يوجد في الشمال منخفض القطارة، ويكون ذلك مكملا لاستكمال مشروعي السد العالي ومنخفض القطارة وتاريخيا ذكر أن هذا المسار (خط الواحات) كان هو مجرى النيل القديم بدليل طبقة طينية خصبة في معظم خط الواحات مدفونة تحت الرمال. وقد قام هذا المهندس بحضورنا ومعه أحد العمال بحفر كمية بسيطة من الرمال فظهرت تربة طينية على بعد ما بين قدم وقدمين.

نظرا لضخامة الميزانية المرصودة لأعمال مؤسسة تعمير الصحاري هناك فإنها كانت تعتبر أغنى من المحافظة ولديها القدرة على تنفيذ المشروعات وكان هذا هو السبب الرئيسي للخلافات. وبعد الزيارة قامت مؤسسة تعمير الصحاري بحفر ٢٢ بئرا جديدا لصالح الأهالي.

وفي مواجهة الاتحاد الاشتراكي لتصرفات مؤسسة تعمير الصحاري المظهرية أفصح أحد أعضاء لجنة الاتحاد الاشتراكي بأنه لأجل الترحيب بنا كزوار قامت الهيئة بسحب كميات كبيرة جدا من المياه لتملأ بها بركة يعوم فيها البط لتثبت أن المياه متوفرة للجميع علما بأن هذا السحب تسبب في عدم وصول حتى مياه الشرب للأهالي. وقمنا بزيارات مماثلة لجميع الواحات وكانت الشكاوى متشابهة وكانت كلها ضد مؤسسة تعمير الصحاري. وجمعنا كل ما أمكن الحصول عليه من مطبوعات ونشرات حول هذا المشروع من مؤسسة تعمير الصحاري وإحصائيات ونشرات حول هذا المشروع من مؤسسة تعمير الصحاري وإحصائيات من المحافظة وشكاوى الأهالي ووضعت تحت يد الفنيين المتخصصين في المياه الجوفية والاستصلاح والاستزراع وكانت النتيجة المفزعة كالآتي:

١ ـ من الاستحالة الاستمرار بالصرف على هذا المشروع إلى أن يتم عمل دراسات جادة وتحديد حجم المياه الجوفية بعمل مجسات حول حقل المياه الجوفية وتحديد حجمها بالضبط حتى لايصير الصرف على استصلاح أرض إلا في حدود إمكانيات هذه المياه.

٢ ـ ثبت علميا أن المياه الجوفية تحت أرض الوادي الجديد عبارة عن مياه متسربة في طبقة إسفنجية على أعماق ونابعة من منطقة بحر الغزال والمنطقة الاستوائية لحوض مجرى النيل بتسرب بمعدل متر واحد كل ثمان سنوات وعلى مرور الزمن تجمع هذا الحقل الجوفي الذي كانت متدفقة في البداية بمعدل السحب المتواضع وعندما زاد السحب بالمبالغة في عدد الآبار الجديدة ومعدل السحب العالي بالطلمبات لم تعد البحيرة قادرة على التعويض مما دعى مؤسسة تعمير

الصحاري أن تلجأ إلى شراء طلمبات أعماق عائمة تتحرك مع المنسوب ويحصل عليها بمبالغ طائلة وأجور عمالة فنية وصيانة مكلفة بحيث تجعل المشروع برمته غير اقتصادي .

٣ ـ على القيادة السياسية بالقاهرة توحيد السلطة السيادية في محافظة الوادي الجديد فأصبح المحافظ هو أيضا المشرف على أعمال ميزانية مؤسسة تعمير الصحاري .

٤ ـ أصدر الرئيس عبد الناصر أمرا بوقف جميع الأعمال في هذا المشروع إلى أن يتم عمل دراسة كاملة للوقوف على الحجم الحقيقي للمياه وقام بذلك بالتعاون مع خبراء فرنسيين .

تقرير أمانة شئون الأعضاء عن رد فعل الأحكام العسكرية

١ - في يوم ٢٥ فبراير ١٩٦٨ صدر تقرير من أمانة شئون الأعضاء تحليلا للهتافات التي رددها المتظاهرون من الطلبة والعمال والأهالي ساخطين كرد فعل للأحكام التي صدرت على قادة الطيران والجيش مخففة بما لا يتلاءم مع حجم الهزيمة ومسئولياتهم عنها.

٢ - صدرت الأحكام يوم ٢٠ فبراير ١٩٦٨ وصدرت الصحف بشكل مستفز للرأي العام. وكان النشر يصاحبه صورا للمتهمين وأمام كل منهم العقوبة التي صدرت عليه، فكانت صورة للفريق أول صدقي محمود محكوم عليه ١٥ سنة وبجوارها صورة ملازم ثان محكوم عليه بالإعدام، وصورة الفريق جمال عفيفي قائد الدفاع الجوي ومحكوم عليه بالبراءة وبجواره صورة ضابط ملازم محكوم عليه ١٥ سنة أشغال شاقة. والمعنى المقصود من النشر بهذا الأسلوب يوحي أنه كان هناك محاباة لكبار الضباط القادة وهم قمة المسئولية عن الهزيمة وأقسى الأحكام على الرتب الصغيرة والجنود.

٣ - لم يقتنع الرأي العام بهذه الأحكام وبدأت المظاهرات يوم ٢١ فبراير ١٩٦٨ من العمال في حلوان وأخذت تتصاعد في الجامعات وجامعة الإسكندرية وانضم للطلبة أفراد الشعب، وبلغت الذروة يوم ٢٤ فبراير وتوجهت المظاهرات الصاخبة إلى مجلس الأمة، وتكلم فيهم رئيس مجلس الأمة ولكن بأسلوب غير مقنع، واتسعت المظاهرات متوجهة إلى وسط القاهرة فاضطر البوليس إلى تفريقها بعد أن تعدت الإثارة.

٤ ـ الهتافات

أصدرت أمانة شئون الأعضاء تقريرها عما تدل عليه مجموعة هذه الهتافات. وكانت هذه الهتافات التي أطلقت في المظاهرات كالآتي:

عـــــملتــــوا أيه فــــينا — واليـــــهــــود في ســــينا
تقـــــتلونا تقـــــتلونا — واليـــــهـــود جـــوى ســـينا
مـــحكمـــة إيه العـــسكرية — اللي خلت الدم مـــيـــه
عـــاملين لي مـــجلس أمـــه — وهم ســـبب الغـــمـــه
يا ســـادات يا ســـادات — أين قـــانون الحـــريات
يا شـــعـــراوي يا جـــبـــان — أين الطلبـــة المعـــتـــقلين
يـــــوم ٩ أيـــــدنـــــاك — ويوم الحكم عـــــارضناك
بص شـــوف أفـــلام الجنس — أصحى وشوف أفلام الجنس
لا صـــدقي ولا الغـــول[(١)] — هـو المســـــــئــــول

بالدم بالدم يا عـــبـــد الناصـــر
دم عـــــــــــــودة لـــن يـــزول[(٢)]
عـــايزين مـــحكمـــة شـــعـــبـــيـــة
يســـقط كل مـــصـــري جـــبـــان
يســـــقـــط الحكم الفـــــاشي
يســـــــقـــط العـــميل الإمـــبرياللي[(٣)]

وكان اللواء صدقي الغول قائد الفرقة الرابعة المدرعة وكانت مفخرة لمصر، صدرت له الأوامر بالانسحاب من المعابر في سيناء، ثم صدرت له الأوامر مرة أخرى بالعودة ولكن تحت سيطرة الطيران الإسرائيلي على هذه المعابر وأبيدت هذه الفرقة عن آخرها. ولو أنه غير مسئول فقد حكم عليه ١٥ سنة أشغال شاقة.

---

(١) الغول رئيس الفرقة الرابعة المدرعة التي أبيدت.
(٢) من أحكام إعدام عمال كفر الدوار في أول الثورة.
(٣) أمام جريدة الأهرام.

٥ ـ تحليل الأمانة للموقف ودلائل الهتافات

ـ أصيب الرأي العام بسخط من كذب الدعاية التي روجت لها الصحف والإذاعة قبل الهزيمة عن عظم قوة الجيش المصري .

ـ الدور المظهري لمجلس الشعب الذي كان من الواجب عليه أن ينبه إلى أي قصور في الحكم .

ـ المبالغة في مظهرية الدولة والصرف السفيه على الاحتفالات والمهرجانات ومظاهر العظمه لذوي المراكز العليا .

ـ صدور الأحكام بشكل متناقض تسبب في استفزاز الشعب .

ـ تعمد الصحافة في طريقة النشر عن الأحكام بأسلوب استفزازي .

ـ وعود الرئيس جمال عبد الناصر في خطبه منذ النكسة حتى وقت صدور الأحكام وخاصة في وجوب التغيير في كل شيء ولكن لم يتم أي شيء أو إصلاح أو علاج يتلاءم مع الظروف العصيبة للبلاد :

- التوسع في المقاومة الشعبية ثم إهمالها بعد ذلك .
- التعثر بالنسبة لقانون من أين لك هذا والكسب غير المشروع .
- استمرار معظم قادة الجيش في عملهم وهم المسئولون فعلا عن الهزيمة والاكتفاء فقط بتغيير الرموز .
- لم تؤخذ قرارات المؤتمر التي عقدت للإصلاح والتغيير كضرورة تطبيق اقتصاديات الحرب وحل مشكلات الريف .
- عدم تشكيل اللجنة المركزية وأعادة تنظيم الاتحاد الاشتراكي .

ـ وخرجت الأمانة بالاستنتاجات الآتية:

أ ـ أن هناك بعض الزعزعة بالثقة في القيادة .

ب ـ أن هناك بعض الزعزعة في نظامنا الاشتراكي .

وكانت التوصية:

١ ـ القيام بدراسة سريعة ومستفيضة للموقف ومواجهته حسب ظروف كل فروعه على أن يصدر بذلك تعليمات صريحة .

٢ ـ اتخاذ إجراءات سريعة بتغييرات جذرية بما يشعر به الشعب وبخاصة التخلص من مراكز القوى .

٣ ـ إصدار بيان مفصل عن ملابسات وحيثيات محاكمة قادة الطيران والجيش والنظر في إمكانية إعادة محاكمتهم .

٤ ـ إعطاء عطلة قصيرة جدا للجامعات حتى تهدأ النفوس وفي أثنائها يتم الإفراج عن الطلبة المعتقلين وتستأنف بعدها الدراسة في اطمئنان .

٥ ـ وقد أخذ الرئيس عبد الناصر مجتمعا مع مجلس الوزراء بإصدار قرارات بناء على هذه التوصيات .

لجنة تصفية الإقطاع ومقتل المرحوم صلاح حسين

أثناء عملي بأمانة شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكي العربي كانت تصلنا شكاوى ضد أعضاء لجان الاتحاد الاشتراكي . وتحقق فيها المباحث العامة فضلا عن ندب أحد المساعدين بالأمانة لإجراء هذا التحقيق وذلك قبل اتخاذ أي قرار تنظيمي ضد المشكو في حقه .

وصلتنا عدة شكاوى ضد صلاح حسين وكلها تتهمه بالتحرش بكبار الملاك في قريته كمشيش ، بعضها يقول إنه شيوعي والآخر يقول إنه من الإخوان المسلمين . وقام أحد المساعدين بالأمانة بالذهاب إلى كمشيش وسؤال جميع الأطراف ، وعرض علي تقريره وجاء فيه أن الأقوال متضاربة هناك بين مؤيد صلاح حسين وأن نشاطه لا يتعدى الخطب في المساجد أو اجتماعات الاتحاد الاشتراكي يهاجم أعمال عائلة الفقي ومخالفتهم لقانون الإصلاح الزراعي ، وجاء عكس ذلك تماما في أقوال ملاك الأراضي ، ولكن صلاح حسين نفسه أشار إلى المحقق أن الفيصل في الأمر هو الرجوع إلى تقرير قامت بإعداده الرقابة الإدارية بناء على شكاوى صلاح حسين إلى الاتحاد الاشتراكي ورئيس الجمهورية .

وجاءني تقرير الرقابة الإدارية بصفة رسمية وكان هو الحد الفاصل بين الآراء المختلفة ، وجاء في التقرير أن صلاح حسين منذ سنة ١٩٥٧ وهو دائم إرسال

التقارير ضد أسرة الفقي في كمشيش وأنه أثار هذا الموضوع في أحد مؤتمرات الاتحاد الاشتراكي في محافظة المنوفية، وبعد التحقيق ثبت أن أسرة الفقي فعلا متهربة من حوالي ٣١٥ فدانا زيادة عما يسمح به قانون الإصلاح الزراعي، وشرح التقرير أسلوب التهرب واستخدام أسرة الفقي للرشاوي للمسئولين في الاصلاح الزراعي والشهر العقاري وغيرها، وأشار أيضا إلى لجنة كانت مشكلة بعد سنة ١٩٦١ من مجلس الدولة وقضايا الحكومة أثبتت النتيجة التي تتفق مع ما يقوله صلاح حسين وهو تهرب أسرة الفقي من قانون الإصلاح الزراعي.

وبمراجعتي لملف صلاح حسين حتى ذلك التاريخ وجدت به كثيرا من الخطابات والتقارير التي كان يرسلها إلى رئاسة الجمهورية والاتحاد الاشتراكي، يفضح فيها تآمر الإقطاع مع أهداف الاستعمار والتهرب من القوانين وأساليبهم في استغلال الفلاحين. ووجدت في ملف صلاح حسين أيضا خطابا من المباحث العامة ردا على طلب تحريات منا أن صلاح حسين شيوعي وفي خطاب آخر أنه من جماعة الإخوان.. تضارب في معلومات أجهزة الأمن؛ إزاء ما جاء في تقرير الرقابة الإدارية من حقائق وكان متضمنا رأي جهتي تحقيق أخرى بأن جميع ما جاء بتقارير وتبليغات وشكاوى صلاح حسين حقيقي. أعجبت بهذا الشاب وأرسلت في طلبه وجدته شابا يمتلئ حماسة ووطنية وسبق له التطوع في حرب فلسطين. واستمر بعد ذلك في إرسال خطابات وتقارير، وكانت كلها تتوقع معركة جديدة مع الاستعمار وأن الرجعية في مصر تتعاون مع الاستعمار في أهدافه. وفي مساء أحد أيام إبريل سنة ١٩٦٦ وأنا بمكتبي وصلتني برقية من أهالي وفلاحي قرية كمشيش يبلغون عن قتل المرحوم صلاح حسين واتهموا عائلة الفقي بالتآمر، وطالبوا بالتدخل لتأخذ العدالة مجراها نحو القاتل.

طلبت ملف صلاح حسين ووجدت خطابا قبل أيام قليلة كان أرسله لي وجاء به أنه يتوقع متاعب من الإقطاع وكأنه يحس بمصيره وخطابا آخر لرئيس الجمهورية قبل قتله بشهر تقريبا. يحذر من الإقطاع وأنه يتعاون مع الاستعمار وقد أخذ في المدة الأخيرة يتحرك بحرية في البلاد.

قمت ومعي بعض المساعدين والصحفي جلال كشك، وكان موجودا بالمكتب

وأراد أن يرافقنا وذهبنا إلى كمشيش ثم إلى مقر محافظة المنوفية. قابلنا في كمشيش أرملة المرحوم صلاح حسين وكانت النيابة تتولي التحقيق، وذهبت إلى المحافظة وقابلت هناك السيد إبراهيم بغدادي المحافظ والسيد مصطفى علواني مدير الأمن بالمحافظة وأجمعا علي خطورة الحادث وأنه قد ألقى القبض على المتهم والنيابة تجري التحقيق، ولكن القضية في تقريرهما أبعد من أن تكون قضية قتل ولكنها قضية سياسية موجهة إلى الدولة. ضد قوانينها وبالذات قانون الإصلاح الزراعي.

وصلت قبل الفجر إلى مكتبي. وشرعت في كتابة تقرير سياسي عن الحادث وقبل أن أختتمه اطلعت على ملف الإقطاع بالأمانة فوجدت أن أمانة شئون الأعضاء قامت بتحقيق ١٢ مخالفة لقانون الإصلاح الزراعي في قرى مختلفة متفرقة في أنحاء الجمهورية ولحدوثها في فترة زمنية قصيرة، اعتبرتها ظاهرة خطيرة، كان قمتها مقتل صلاح حسين بتدبير من الإقطاعيين المخالفين لقانون الإصلاح الزراعي في بلدة كمشيش.

كتبت تقريرا فيه كل نتائج الحادث وظروفه السياسية والجنائية وسلم إلى الرئيس عبد الناصر في اليوم نفسه في الإسكندرية حيث كان هناك مع ضيفه تيتو.

وعقب هذا، أصدر الرئيس عبد الناصر قرارا بتشكيل لجنة تصفية الإقطاع.

وبعد حرب سنة ١٩٦٧ تكونت لجنة التظلمات من لجنة تصفية الإقطاع وثبت من تحقيقات هذه اللجنة أن نسبة كبيرة من القضايا التي قدمت إلى لجنة تصفية الإقطاع وصدر قرار اللجنة فيها كانت تمثل خطورة على المجتمع وتحديا حقيقيا لقانون الإصلاح الزراعي.

وبنفس القدر من نقص الحقيقة أثبتت لجنة التظلمات أن بعض أجهزة لجنة تصفية الإقطاع تجاوزت أصول المعاملة الإنسانية الكريمة. مع بعض أفراد الأسر بصورة قبيحة. ثم قدم المتهم صلاح الفقي والخفراء الذين ارتكبوا الجريمة للمحاكمة أمام محكمة عسكرية برئاسة المستشار الأستاذ الصادق المهدي.

وطلبتني المحكمة للإدلاء بشهادتي: وهذا هو نص الشهادة:

مضمون شهادة محمد عبد الفتاح أبو الفضل

عضو الأمانة العامة وأمين شئون الأعضاء بالاتحاد الاشتراكي العربي أمام هيئة المحكمة العسكرية المكلفة بنظر قضية اغتيال المرحوم صلاح حسين في قرية كمشيش برئاسة السيد المستشار الأستاذ الصادق المهدي.

مضمـون الشهـادة

شهادتي اليوم وفي هذه القضية شهادة سياسية فقط، وليس لي أي شأن في قضية القتل. فأمامكم متهم بالقتل في قفص الاتهام، وكان هناك مقتول في قرية كمشيش ولديكم تحقيق الإدارة وتحقيق النيابة، وليس لي أي دخل بكل ذلك. شهادتي اليوم تنصب في إثبات أن هذا المتهم وأسرته هل كانوا يخالفون القانون، قانون الإصلاح الزراعي من عدمه؟ وهل التصدي لمخالفة القانون بالأسلوب القانوني بتبليغ السلطات وتنويرها يبيح للقاتل أن يقتل؟ شهادتي اليوم بصفتي ممثلا للتنظيم السياسي الذي لجأ إليه المقتول ليبلغه ويثبت له تهرب أسرة الفقي من القوانين، وتحايلها عليها، وأي قوانين؟ قوانين الإصلاح الزراعي. المرحوم صلاح حسين تصدى للقاتل وأسرته دفاعا عن قانون الإصلاح الزراعي وكان نصيبه القتل.

أما الجريمة الأخرى وهي التعدي على قانون الإصلاح الزراعي فإني أدعم أقوال المرحوم صلاح حسين بشهادتي هذه بالوثائق لأثبت أن المرحوم صلاح حسين لم يكن متجنيا أو مفتعلا صراعه ضد أسرة الفقي؛ لذلك أكتفى في شهادتي بأن أقدم مستند إدانة لكم. وهو تقرير الرقابة الإدارية والمتضمن تحقيق لجنة قضائية من مجلس الدولة وقضايا الحكومة سنة ١٩٦١ تثبت أن صلاح الفقي وأسرته قاموا بتهريب ٣١٥ فدانا عما يستحقونه بما يسمح به قانون الإصلاح الزراعي منذ تنفيذه سنة١٩٥٧، المقتول المرحوم صلاح حسين رمز لنضال الفلاحيين ضد أصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة المستغلين والمتحايلين وإذا ثبت لكم من التقرير والمستند الرسمي المقدم لهيئة المحكمة هذا التحايل والتهرب تنتهي بذلك شهادتي عند الجانب السياسي في هذه القضية. أما جناية القتل فهي جناية لها شهودها ولست أنا منهم.

ثـــم جـــاءت النكســـة

اتسمت الفترة الممتدة بين عدوان سنة ١٩٥٦ وهزيمة سنة ١٩٦٧ بمنجزات كثيرة وعديدة. كتب عنها الكثير، وكذلك اتسمت نفس الفترة بنكسات عديدة كتب عنها الكثير أيضا إلا أن النكسة الحقيقية كانت في البعد الشاسع بين الأهداف القومية الحاسمة التي تبنتها قيادة مصر وبين المفروض أن يقدم العمل الجاد المنظم من أجل تحقيق تلك الأهداف. فإسرائيل والاستعمار كانا الخطر الحقيقي على مستقبل أمتنا وقد فرض علينا مواجهتهما، وكذلك تحرير فلسطين كان هدفا قوميا تبنته الثورة كشرط أساسي لتحقيق رخاء واستقرار العالم العربي. ولتحقيق الهدف كان لابد من العمل الجاد المنظم في ظل سيادة الحرية والعدل، فسبيلنا الوحيد لتحقيق النصر هو تفوق المجتمع العربي على مجتمع المستعمرين في فلسطين المحتلة.

وشتان الفارق بين العمل الجاد المنظم الذي واجهنا به القاعدة البريطانية في قناة السويس لتحقيق معاهدة الجلاء في سنة ١٩٥٤. وكذلك العمل الجاد المنظم الذي واجهنا به احتلال بور سعيد عام ١٩٥٦ وبين الإهمال والفوضى التي واجهنا بها إسرائيل عسكريا وحضاريا عام ١٩٦٧.

فتحت ظل القيادات العسكرية نفسها التي تسببت في الهزيمة العسكرية عام ١٩٥٦ كررت إسرائيل الضربة نفسها والأسلوب نفسه فلم يتعلموا شيئا من دروس الماضي القريب. وفي الأيام الأولى لهذه الهزيمة القاسية التي راح ضحيتها شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة والضفة الغربية وهضبة الجولان ومعها ضاعت ثقة الأمة العربية في قدرتها على مواجهة إسرائيل وتحقيق الاستقلال ومع ذلك ظهرت معادن بعض المصريين الذين رفضوا الاستسلام للهزيمة ووقف ومعهم الشعب وقاوموا

ليثبتوا أن أصحاب الهمم والعزائم هم فقط الذين يمكنهم حماية بلادهم وشعوبهم أما أصحاب المصالح الذين يتمسكون بالسلطة والصولجان ليقهروا بها شعوبهم فإنهم يتضاءلون أمام الخطر.

● في مساء ٢١ مايو سنة ١٩٦٧ حضرت أنا ومن معي مؤتمرا شعبيا كبيرا بالعريش وكان المحافظ قد جمع فيه عددا كبيرا من عرب وأهالي سيناء ورؤساء قبائلها بملابسهم العربية التقليدية. وكنت آخر المتحدثين ولما جاء دور الشاعر محمود حسن إسماعيل ألقى قصيدة طويلة استهلها بالقول وهو يشير بيده في حماس في وجوه الحاضرين وكان طبعا يقصد مخاطبة الإسرائيليين.

«مـــشـــردون أبدا تائهـــون أبدا

مـــشـــردون أبدا تائهـــون أبدا»

ووجدت نفسي لا شعوريا أنزلق نحو التشاؤم لأني تصورت هذا الشعب الذي يجلس أمامنا ويستمع في صمت، هو نفس الشعب (شعب العريش وسيناء) الذي ذاق مرارة التيه والتشرد في حربين سابقتين لنا مع العدو الإسرائيلي سنة ١٩٤٨، سنة ١٩٥٦ كان هذا الشعب دائما هو الضحية، ودائما كان يتوه ويتشرد.

● وفي ٢٢ مايو سنة ١٩٦٧ في طريق عودتنا من سيناء توقفنا عند القنطرة شرق بسبب عبور قافلة بواخر عبر القنال في وقت وصولنا نفسه. في أثناء الانتظار الطويل حضر رئيس مدينة القنطرة شرق وأكد لنا أخبار وصول قطع مختلفة من السلاح البحري المصري وقوات عسكرية إلى شرم الشيخ وخليج العقبة لتحل محل قوات الطوارئ الدولية التي انسحبت منها، وأن أوثانت سيصل إلى القاهرة يوم ٢٤/ ٥/ ٦٧ ليقابل الرئيس عبد الناصر بخصوص الموقف المتأزم.

ألح رئيس المدينة علينا أن نذهب معه إلى محطة سكة حديد القنطرة شرق لإلقاء خطب وكلمات مشجعة في قوات الاحتياط المنتظرة في المحطة في طريقها إلى الجبهة في سيناء. فوجئت في المحطة بحالة من الفوضى لقوات الاحتياط يعجز الإنسان عن وصفها، والمفروض أنها على وشك الاشتراك في القتال في الجبهة. كان الكل في ملابس مدنية ومعظمهم بجلابيبهم الريفية ويحملون بنادقهم وليس

هناك أي زي عسكري، جمعوا من قراهم على عجل ودون أي ترتيبات إدارية. وتسلموا أسلحتهم فقط وهم بجلابيبهم المدنية وشحنوا في السكة الحديد كالدواب دون أي تجهيز أو ترتيب إداري من مأكل أو مشرب أو راحة. كانوا يتدافعون لشراء طعامهم من الباعة الجائلين بالمحطة في فوضى شاملة لا يتعدى مظهرهم خفر الريف إن لم يكونوا أقل مستوى من ذلك. حشد هائل من الشباب والرجال الضائعين نتيجة إهمال واستهتار سلطات القوات المسلحة بآدميتهم وإنسانيتهم. انعكس الشعور بالضياع عليّ كرجل عسكري ومقاتل سابق وسألت نفسي: «هل هذه هي حالة قواتنا التي سنواجه بها جنود عدوتنا إسرائيل؟ وفي المقابل ـ هل عدوتنا إسرائيل عندما أعلنت التعبئة عاملت شبابها بهذا الأسلوب غير الآدمي؟».

اعتذرت عن إلقاء أي كلمات وغادرت المحطة حزينا متشائما من هذه المأساة الإنسانية كل ذلك جعلني عندما عدت إلى مكتبي بالقاهرة أبادر بكتابة مقال في نشرة الاشتراكي ظهر في العدد ٦٢ بتاريخ ٢٧/ ٥/ ١٩٦٧ عن المواجهة المنتظرة مع إسرائيل جاء فيه: «إن المواجهة بيننا وبين إسرائيل هي تحد حضاري، أي صدام كامل بين مجتمعين وليس مجرد جيش، أي إن الجندي العربي يجب أن يتفوق على الجندي الإسرائيلي. وكذلك الحال مع الطالب العربي والعامل العربي والموظف العربي، والقيم والسلوك والأخلاق؛ لأن المجتمع الأقوى في جميع جوانبه هو الذي سينتصر؛ ولأن المواطن القوي الواعي بأهداف المعركة وأبعادها شرط ضروري للنصر الشامل Victory». وأرسلت خطابا بنفس المعنى إلى رئاسة الجيش.

كان الحماس الشعبي في جميع أنحاء مصر في القمة وانعقدت الاجتماعات والمؤتمرات التلقائية في مختلف التجمعات الشعبية المصرية وأعربت عن استعدادها للتطوع والجهاد بالأموال والمجهود والأنفس متجاوبة مع القرار السياسي، وللأسف لم يجد هذا العطاء الشعبي أي استجابة من أي جهة حكومية بدليل أنه عندما زارني بمكتبي بالاتحاد الاشتراكي وفد من الطلبة المصريين بالجامعة الأمريكية ووضعوا أنفسهم بحماس كبير تحت تصرف الدولة أخذت أتصل وأبحث عن أي جهة حكومية مسئولة يمكن أن تلبي مثل هذا التطوع الشعبي فلم أجد وبعد حيرة وجدتني مضطرا أن أصرفهم بوعد أن أتصل بهم عندما تحتاج البلاد إليهم.

وفي صباح يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ عقد أول اجتماع للمجلس الأعلى للمقاومة الشعبية بجميع أعضائه برئاسة السيد زكريا محي الدين وكنت أحد أعضائه وحضر الاجتماع كبار قادة الجيش وبعد توزيع الواجبات، أسند إلي قيادة تنظيم المقاومة الشعبية في منطقة القنال. ولما سألت عن الترتيبات المتاحة لأجل تجنيد وتدريب وتنظيم وإمداد من سأقودهم من شعب القنال تبين لي أن الحرس الوطني سيوضع تحت تصرفي هناك في وقت اللزوم وسيكون جاهزا لأي عمليات دون الحاجة إلى تشكيل مقاومة شعبية كما حدث في ١٩٥٦ . وجاء دور قائد الحرس الوطني الضابط يوسف حسن محمد وسبق لي الخدمة معه في الجيش وقال: إنه استكمالا لتقوية قواته فإنه في حاجة إلى تشكيل ثلاثة لواءات جديدة.

سألت قائد الحرس الوطني عن الزمن الكافي لتشكيل هذه اللواءات الثلاثة فأجاب بأنه يمكن تشكيلها في وقت من أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع. أثارني هذا الرد غير المنطقي وانفعلت قائلا: «إن ثلاثة لواءات معناها عدديا لا يقل عن ثمانية آلاف جندي. وإن أي قائد عسكري لو أعطي هذا العدد من قطع الشطرنج لفشل في رصها وتشكيلها في مثل هذه المدة ناهيك عن التشكيل والتدريب والإعاشة». والتسليح لهذا العدد الهائل من الرجال». وقبل نهاية الاجتماع طلبني السيد زكريا محيي الدين لمقابلته في مكتبه. وسألته وأنا في غاية القلق عما إذا لم تكن القيادة السياسية في الدولة وعلى أعلى مستوى قد اجتمعت وناقشت تقدير موقف عن حالة الحرب المنتظرة للوقوف على مدى قدرة مصر على الصمود والمواجهة إزاء أي عدوان محتمل قد تشارك أو تساهم فيه أي من الدول الكبرى مع إسرائيل، على الأقل من ناحية التموين والوقود وخلاف ذلك من الاحتياجات الإستراتيجية المهمة.

كان الرد أن الرئيس عبد الناصر اكتفى بوعد أخذه من المشير عامر بأن الجيش المصري إذا دخل المعركة مع إسرائيل فسوف ينتصر على طول الخط. واستفسرت عن ضرورة الاعتماد على تسليح الشعب وإشراكه في المقاومة خصوصا في منطقة القنال فقال لي إنه في الوقت الحاضر فإن الحرس الوطني فيه الكفاية في هذه المناطق.

في صباح ٥ يونيو، وقبل توجهي لمكتبي بالاتحاد الاشتراكي على كورنيش النيل سمعت من منزلي وعلى بعد أصوات قنابل مكتومة، ثم أصوات ضرب المدفعية المضادة للطائرات وبكثافة. وتأكدت أن العدوان قد بدأ وأسرعت إلى مكتبي. واستمعت وأنا بالمكتب إلى إذاعة القاهرة التي أفادت بأن إسرائيل قامت بالإغارة على مطارات مصر وتقوم بضربها جميعا وتوالت الأخبار بعد ذلك بذكر عدد الطائرات الإسرائيلية التي يسقطها دفاعنا الجوي. توجهت إلى مكتب الأمين العام السيد علي صبري ووجدت بمكتبه بعض الزملاء أعضاء الأمانة والكل صامتون، يستمعون إلى الإذاعات.

وكانت إذاعة إسرائيل تذيع أنها دمرت عددا كبيرا من طائرتنا وهي على أرض المطارات كما حدث تماما في عدوان سنة ١٩٥٦. كعضو في المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية، توجهت فورا إلى مكتب السيد زكريا محيي الدين قائد المقاومة في القيادة المشتركة بمصر الجديدة، وكان في غاية الانهماك ودائم الاتصال تليفونيا بمساعدي المشير عبد الحكيم عامر بقيادة الجيش وظهر من اتصالاته التليفونية أنه هو الذي كان يتولى القيادة العسكرية؛ لأنه كان يصدر الأوامر ويومئ بإجراءات عسكرية وما إلى ذلك. ثم التفت إلي وفي مرارة علمت منه أن قواتنا المسلحة في أسوأ حال من ناحية الطيران فقد تم تدمير معظم الطائرات علاوة على تخريب المطارات والممرات وحتى المطارات المدنية وأن هناك بعض الأمل الضعيف في وصول طائرات من الجزائر ويوغسلافيا ولكنها سوف لا تكون ذات فعالية إلا بعد مدة من وصولها. وأن الجيش إذا اشتبك فسيكون بغير غطاء جوي. ولم يفاتحني أو أفاتحه في عملية المقاومة الشعبية لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن لها أي وجود أو ترتيب. وبعد ظهر هذا اليوم علمت بوجود جميع زملائي أعضاء الأمانة العامة بمكتب الزميل عباس رضوان ووجدتهم جميعا لا يعملون أي شيء سوى الاستماع إلى الإذاعات.

واستمعت إلى قرار مجلس الأمن بإيقاف القتال وبضرورة عودة قوات كلا الطرفين المتحاربين إلى خطوط ما قبل ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ ولم توافق مصر على إيقاف القتال.

وفي فجر ٦ يونيو كان هناك إنذار بغارة على القاهرة، توجهت بعدها مباشرة في الصباح المبكر إلى مبنى المخابرات العامة. وقابلت رئيس المخابرات العامة. وأشار علي بالمشاركة في اجتماع مع رؤساء هيئات المخابرات لوضع تقدير موقف بناء على آخر المعلومات عن قواتنا وقوات العدو والمؤتمرات الخارجية. وأثناء وجودي في هذا الاجتماع اتصل بي زكريا محيي الدين بصفته رئيس المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية وطلبني لمقابلته في الحال لأمور تخص المقاومة الشعبية. وفي مكتبه وجدت كلا من كمال رفعت وإسماعيل فريد ولطفي واكد وطلب منا التوجه في أقرب فرصة إلى منطقة القنال ليتولى كل منا قيادة المقاومة الشعبية في إحدى مدن القنال الأربعة السويس والإسماعيلية والقنطرة وبور سعيد. وأوصانا عند وصولنا إلى مدينة الإسماعيلية أن نذهب إلى قيادة الجيش هناك حتى يمكنها مدنا بما تطلبه من معدات وأسلحة وذخائر للمقاومة وبعد خروجنا من مكتبه اختار كل منا المدينة التي سيذهب إليها.

وكان إسماعيل فريد للسويس وكمال رفعت للإسماعيلية ولطفي واكد للقنطرة وأنا لبور سعيد. اجتمعنا بعد الظهر وبعد تجهيز أنفسنا للسفر إلى الإسماعيلية في مكتب عباس رضوان بالأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي، وكان كثير من الزملاء منهم أمين الشباب الدكتور حسين كامل بهاء الدين وأشرت عليه بكل الصدق وحسن النية بالمشاركة في المقاومة بمجموعات منظمات الشباب التي يشرف عليها حيث إننا في سبيل الذهاب إلى منطقة القنال وطلبت منه، إما الذهاب معنا لتولي قيادة شباب المنظمة هناك، أو إمدادنا بقادة وأعضاء وأفراد منظمات الشباب سواء من أنحاء الجمهورية بعامة أو من منطقة القنال بصفة خاصة؛ لأن هذا الوقت كان هو وقتهم . لم أحظ منه بأي تعليق ويحتمل أنه كان محرجا لعدم صدور أوامر له بذلك من الأمين علي صبري.

على الطريق إلى منطقة القنال

توجهنا نحن الأربعة في عربة واحدة يقودها كمال رفعت إلى الإسماعيلية بعد العصر بقليل، ووصلنا نقطة مرور العباسة في منتصف الطريق فيما قبل الغروب.

هناك استلفت نظرنا وجود فلول من جنود الجيش بملابس الميدان ومعهم أسلحتهم الخفيفة يسيرون في اتجاه القاهرة، وليس في اتجاه الجبهة وسيرا على الأقدام، وبشكل غير منظم، وفي غاية الإجهاد. توجهت إليهم مترجلا وسألتهم عن معداتهم ورؤسائهم وعلمت منهم أنهم من وحدات الجيش المصري المختلفة بسيناء والعريش وأنهم حضروا منسحبين. من الجبهة (وطبعا دون نظام).

عدت إلى زملائي بالعربة وأخذنا نحصي عدد الساعات التي مرت من وقت بدء العدوان صباح يوم ٥ يونيو إلى هذا الوقت وكان الخامسة مساء يوم ٦ يونيو حوالي ٣٣ ساعة ثم حصرنا المسافة بين العريش إلى موقعنا في نقطة العباسة وكان حوالي ٤٨٠ كم وعلى أساس أن العسكري المشاة يقطع مسافة ٣ كم في الساعة وبحسبة بسيطة وجدنا أن هؤلاء الجنود المنسحبين سيرا على الأقدام بحساب المسافة وسرعة العسكري المشاة أنهم بدءوا انسحابهم من يوم ٣ أو ٤ يونيو أي قبل بداية العدوان بيوم على الأقل.

ولم يكن أمامنا أي تفسير لقدرتهم الخارقة حتى أمكنهم الوصول في هذا الزمن القصير إلا أنهم كانوا ينسحبون مستعينين بشتى أنواع وسائل الركوب المنسحبة هي الأخرى على الطريق وانتهى بهم الحال إلى السير على الأقدام وقت أن ألتقينا بهم.

استأنفنا السير وتولانا جميعا فجأة حالة صمت وإحباط كلها مرارة وكآبة وتشاؤم من الموقف عامة بعد هذا الاستنتاج، وانفجر الزميل إسماعيل فريد محاولا التخفيف عنا وقال: علام الوجوم والصمت والكآبة وليس أمامنا إلا التصميم على المقاومة حتى الشهادة لأنه سبقنا زملاء لنا من ضباط الجيش منذ سنة ١٩٤٨ وسنة ١٩٥٦ واستشهدوا وشبعوا موتا ونحن لا زلنا ننعم بالحياة، وليس أمامنا الآن إلا التفكير في مشاركة الشعب في مناطقنا بروح التفاؤل والتصميم على الجهاد حتى الشهادة.

وكان لكلمته وقع طيب حيث ابتسمنا وأخذنا نتجاذب الحديث حول الموقف والمستقبل حتى وصلنا إلى قيادة الجيش في الإسماعيلية.

وفي غرفة القيادة بالإسماعيلية كان القائد اللواء الموجود صديقا للزميل إسماعيل فريد وكان مجتمعا وقت دخولنا مع جميع قادة قوات سيناء ومنهم

دفعتي اللواء عبد المنعم خليل. اعتذر لنا القائد، وطلب منا أن نمكث معهم في غرفة القيادة حتى يفرغ من إصدار أمر العمليات الذي استدعى القادة من أجله.

بدأ يقرأ أمر عمليات الانسحاب وأخذ القادة يدونون الملحوظات حسب واجباتهم الملقاة على كل منهم، وطال الوقت حوالي ساعة. ومن استماعي ومتابعتي لأمر عمليات الانسحاب الكامل دخل في روعي أن الجيش المصري بسيناء ما زال سليم التشكيل والتكوين وقادرا على إجراء عملية الانسحاب بأمان وهذا يتناقض مع ما رأيناه على الطريق من فلول الجيش المصري التي انسحبت من الجبهة في العريش قبل إصدار هذا الأمر بأربع وعشرين ساعة على الأقل وبغير نظام، وشاهدناهم بأعيننا قبل ساعتين عند نقطة مرور العباسة. . وقبل نهاية أمر العمليات سأل القائد قادة الوحدات بجملة تقليدية «أي أسئلة؟» ولم يوجه أي من قادة الوحدات بسيناء أي سؤال، وقبل أن ينصرف القادة توجهت إلى صديقي وزميلي اللواء عبد المنعم خليل، وقبل أن يغادر غرفة القائد، وسألته عن حقيقة أمر العمليات الذي سمعناه معهم لتونا من قائد القوات، وهل كل هذه القوات التي ستنسحب والتي ذكرها موجودة فعلا تحت السيطرة والقيادة وسليمة ولم تتحول بعد إلى فلول كالتي شاهدناها عند نقطة مرور العباسة قبل حضورنا بساعة ونصف. ضحك اللواء عبد المنعم في مرارة وقال: إن كل ما سمعناه معهم هو تمثيل في تمثيل، وإن ستار مسرحية الجيش المصري قد أسدلت منذ بدء العدوان صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧. قال أيضا إن الجيش المصري في هذه اللحظة في حالة بالغة من الفوضى. وعدم السيطرة وقام فعلا بالانسحاب تلقائيا وقبل صدور هذه الأوامر الرسمية وليس هناك أي مظهر للتماسك غير هؤلاء القادة المتلقين لهذه الأوامر المزيفة.

وسألته لما لم يوجه أحد منهم أسئلة للقائد يستوضح فيها حقيقة الأوضاع كما يعلمها كل منكم، ورد القائد عبد المنعم خليل في أسف: إنه أثناء فترة القهر الطويلة لضباط الجيش بين عامي ١٩٥٦, ١٩٦٧ تعودوا على السكوت وعدم توجيه الأسئلة التي قد تكون محرجة للقيادة. وأضاف في مرارة: إن كل ما استمعنا إليه في أمر العمليات عن توفير الوقاية الجوية والأرضية للقوات المنسحبة غير متوفرة في هذه اللحظة في القوات المسلحة، وأنه يتوقع مذبحة جوية على القوات المنسحبة في

الصباح، خصوصا في مناطق عبور القنال وعلى طول طريق الانسحاب المفتوحة.

انصرف قادة وحدات سيناء من غرفة العمليات ولم نجد ما نقوله لهذا القائد سوى أننا تمنينا له التوفيق الذي لا نتوقعه إطلاقا. أفهمناه مأموريتنا وأننا نرجئ طلباتنا من المعدات والأسلحة للمقاومة إلى ما بعد إتمام عملية الانسحاب. ونصحنا هو بعدم التوجه في هذه الليلة إلى مدن القنال الأخرى وأن نبيت في الإسماعيلية حتى الصباح؛ حيث إن الطرق ستكون مشغولة تماما بالقوات المنسحبة والتي ستكون معرضة لضرب الطيران الإسرائيلي.

وعند خروجي من غرفة القائد وجدت عددا كبيرا من الشباب الذين يعملون معي في الاتحاد الاشتراكي وبعض الأصدقاء ينتظرونني وقد لحقوا بي من القاهرة ووضعوا أنفسهم كمتطوعين في المقاومة الشعبية وتحت تصرفي منهم سعد جلال وعواد حسن ووكيل النيابة مصطفى سحيم والمهندس عاطف زيد والصحفي جلال كشك وغيرهم ممن تربطني بهم علاقات عمل ومودة وكفاح من مدد طويلة.

وفي الصباح المبكر يوم ٧ يونيو سنة ١٩٦٧ توجهت مع زملائي وأصدقائي المتطوعين في اتجاه بور سعيد ووصلنا بصعوبة كبيرة إلى القنطرة حيث كانت الطائرات المعادية تغير بقسوة على القوات المنسحبة والمكدسة على الطريق.

وفي القنطرة علمنا من ضباط القوات المسلحة المنسحبة عند المعدية وكانوا في غاية السخط على القيادة العامة للجيش علمنا أن أوامر القيادة بعد أن كانت بالانسحاب الكامل من سيناء في مساء اليوم السابق وبعد عبور معظمها إلى البر الغربي عادت الأوامر وصدرت لهم مرة أخرى صباح اليوم (٧/ ٦/ ١٩٦٧) بالعودة مرة أخرى إلى سيناء لاحتلال مواقع تحددت لهم هناك.

أحدث ذلك ارتباكا شديدا في التحركات مما تسبب عنه مضاعفة الخسائر من طيران العدو. ودعت الزميل لطفي وأكد قائد المقاومة في القنطرة وأنا أرثي لحال القنطرة غرب والتي ليس بها قوات حرس وطني إطلاقا وأنه سوف لا يجد بالقنطرة عددا كافيا من الشباب أو الرجال للمقاومة. بل كانت شبه خالية حتى من السكان والأهالي.

وفي بور سعيد توجهت رأسا إلى المحافظة وكان المحافظ الزميل فريد طولان وهناك التقيت بقائد الحرس الوطني في بور سعيد العقيد جمال السيد إبراهيم في معسكره وقد سبق أن خدمت معه بالكتيبة التاسعة بالجيش.

عجبت حيث وجدت العقيد جمال السيد في روح معنوية عالية هو ورجاله. وهناك علمت سر ارتفاع روحه المعنوية حيث وجدت لفيفا من الشباب البورسعيدي وعددا كبيرا جدا من الطلبة تركوا معاهدهم ودراستهم للمساهمة في الكفاح، كذلك وجدت كثيرا من الرجال والشيوخ وكبار الموظفين ورؤساء المصالح متطوعين في الحرس الوطني منهمكين في أعمالهم وتدريبهم في همة انعكست عليهم روح قائدهم وروح معنوية مرتفعة وقد أنساهم دورهم الوطني قسوة الهزيمة وفي عيونهم تصميم على الجهاد حتى آخر رمق.

كذلك من المشاهد التي قوت من عزيمتي وجود عدد كبير من الشباب اليوناني المقيم في بور سعيد والذين أصروا على المشاركة في الجهاد وكانو يلتفون حول قائدهم جمال السيد في فخر واعتزاز بمدينتهم الباسلة بور سعيد.

وبعد مقابلة كل هؤلاء بالإضافة إلى عدد كبير جدا ممن سبق واشتركوا معي في الكفاح المسلح أثناء العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ انتقلت المعنويات المرتفعة لي أنا شخصيا وشعرت بسكينة غريبة، وارتفعت معنوياتي إلى القمة وأنا بين هذه القلوب العامرة بالوطنية والتصميم وانعكست هذه الثقة في نفسي وفيمن كانوا معي من الزملاء المتطوعين المرافقين لي. وفي الحال انتخبت مع العقيد جمال السيد عددا من شباب الحرس الوطني البورسعيدي للعمليات الخاصة وتولى تنظيمهم والتخطيط لهم المهندس عاطف زيد.

● ومساء يوم ٧/ ٦/ ١٩٦٧ أذاعت صوت أمريكا أن إسرائيل قد تمكنت من الاستيلاء على بلدة رمانة بسيناء وهي قرية صغيرة شرق القنطرة بها بعض آبار مياه على بعد ٣٢ كيلو متر فقط من القنطرة وبور فؤاد وبذلك أصبحت بور فؤاد (البر الشرقي لبور سعيد) والقنطرة شرق مهددتين تهديدا مباشرا.

● وفي يوم ٨/ ٦/ ١٩٧٦، كان أهم واجب أمامي هو الدفاع عن بور فؤاد (البر الشرقي لبور سعيد) بعد أن تأكد خبر استيلاء إسرائيل على رمانة. ذهبت مع قائد

الحرس الوطني والمهندس عاطف زيد قائد الوحدات الخاصة وقمنا بجولة استكشافية حول وداخل بور فؤاد وفي الترسانة البحرية هناك. ثم مداخل بور فؤاد من البر ومن بحيرة البردويل (امتداد شاطئها مع شواطئ سيناء) ثم قمنا باستكشاف الطريق الموازي للقنال وهو مدخل بور فؤاد من القنطرة شرق.

وكان توقعنا في حالة أي نية للعدو احتلال مدينة بور فؤاد أن يكون طريق شاطئ القنال من القنطرة هو طريق التقدم الوحيد المحتمل حيث إن طريق الساحل عن طريق بحيرة البردويل مقطوع بمجرى مائي عميق بين البحر الأبيض وبحيرة البردويل ويصعب لأي قوات ميكانيكية أو مشاة للعدو عبور هذا القطع المائي إلا بمعدات عبور ثقيلة واستبعدنا إلى حد ما قيام إسرائيل بالتقدم نحو بور فؤاد على هذا الطريق الساحلي، وركزنا خطة دفاعنا الأساسية عند موقع يعتبر عنق زجاجة على طريق القنطرة بور فؤاد على امتداد القنال، وفي موقع أمام نقطة رأس العش تقريبا (على البر الغربي). انتخبنا موقعا دفاعيا في هذه المنطقة المقابلة لرأس العش، وكان يحد هذا الموقع القناة في الغرب وأرض رخوة في الشرق وكانت الأرض الرخوة في مساحة شاسعة وملقى فيها كثير من المواسير والقضبان الحديدية، ومبعثرة فيها بأعداد كبيرة. وأضاف المهندس عاطف زيد إلى خطة الدفاع خطة فنية بكهربة هذه المواسير والقضبان المعدنية بعد توصيلها ببعضها بالأسلاك الكهربائية من مولد كهربائي ضخم وجدناه بالترسانة البحرية التابعة لهيئة قنال السويس في بور فؤاد وعمل ترتيب تشغيله وقت الحاجة إذا ما تمكن العدو من الاستيلاء على الموقع الدفاعي الأمامي من عنق الزجاجة أمام رأس العش وبذلك تصبح الأرض الرخوة بما فيها من مواسير وقضبان مكهربة مانعا يصعب على العدو اجتيازه قبل أن يصطدم بخط دفاعي خلفي على مداخل مدينة بور فؤاد.

وقد تم احتلال الموقع الأمامي المقابل لرأس العش بعدد من أفراد الحرس الوطني حوالي خمسين فردا بأسلحتهم الخفيفة والمضادة للدبابات وقام باحتلال الموقع الخلفي المانع الكهربائي ١٥٠ فردا من الحرس الوطني ولم يكن في هذا الوقت أي قوات من الجيش في بور فؤاد سوى قاعدة للصواريخ المضادة للطائرات وعليها حراسة من جنودها.

أثناء انهماكي في عملية الدفاع عن بور فؤاد وصلتني إشارة لإيفاد مندوب لاستلام أسلحة وذخائر للمقاومة الشعبية من مخازن الجيش بالإسماعيلية وأن الجيش سيوفر العربات لنقلها. ذهب المندوب وعاد ومعه كمية من الأسلحة بدون ذخيرتها، وتكرر الطلب في اليوم التالي وذهب المندوب وعاد ومعه ذخيرة لا تتناسب مع عيار الأسلحة التي تسلمناها.

وتكرر ذهاب المندوب في اليوم التالي وأرسلوا لنا أسلحة مختلفة في العيار عن الأسلحة التي تسلمناها، وكذلك مخالفة لعيار الذخيرة. ودخلنا في حلقة مفرغة من الفوضى التي انعكست في جميع المجالات وتأخر بذلك تشكيل قوات مقاومة جديدة من شعب بور سعيد لنكون قادرين على الدفاع عن بور سعيد وبور فؤاد بشكل جدي بالاعتماد الكامل على الشعب وليس على عدد من رجال الحرس الوطني. كما أن شعب بور سعيد كان يتدفق على معسكرات الحرس الوطني يطلب المشاركة في الدفاع ليحارب بجانب قوات الحرس الوطني.

في اليوم نفسه وافقت مصر على اقتراح مجلس الأمن بإيقاف القتال.

● وفي مساء اليوم نفسه (٨/ ٦/ ١٩٧٦) كنت مع المحافظ في منزله، واتصل به السيد زكريا محيي الدين وكلفنا بإخلاء بور فؤاد من جميع السكان، وكذلك من القوات المسلحة الموجودة هناك وسأل عني وكلمته وكرر علي عملية إخلاء بور فؤاد بالكامل وحتى من قوات المقاومة وعارضت فكرة إخلاء قوات المقاومة. وشرحت له سلامة موقفنا الدفاعي وأن قوات الحرس الوطني الموجودة كفيلة بمقاومة أي هجوم عليها من الأعداء وأن الثبات في بور فؤاد بقوات الحرس الوطني أشرف لنا من هذا الانسحاب خصوصا وأن معدات الترسانة البحرية في بور فؤاد تقدر بمئات الملايين من الجبهات وفي النهاية وافقني على بقاء قوات المقاومة الشعبية في بور فؤاد.

تركت المحافظ يذهب إلى مكتبه ليشرف على ترتيبات إخلاء مدينة بور فؤاد قبل الغروب. وتوجهت بنفسي إلى بور فؤاد مع بعض الزملاء المتطوعين، وكان معي الصحفي جلال كشك عندما وصلت إلى بور فؤاد.

كانت أخبار إخلاء المدينة قد وصلت إلى الأهالي هناك قبل أن أصل وأن الأهالي

يتجمعون عند المعدية الوحيدة حيث كانت هناك معدية أخرى جديدة صالحة للعمل ولكن بدون عمالها. وعملت على إحضارهم بالاتصال بالمحافظة، وقام عدد كبير من أصحاب اللنشات الراسية بالميناء بتشغيل لنشاتهم للمساهمة في عملية الإخلاء. ومع مرور الوقت تكاثرت حشود الأهالي، وتجمعت بدون نظام وبأعداد كبيرة حول المعدية واللنشات. وتصرفنا بأسرع ما يمكن لوضع نظام للإخلاء حتى لا تحدث حوادث نتيجة التكاثر والزحام. وكان هناك أحد ضباط البوليس ومعه مدفعه الرشاش وميكرفون وأخذ في التعاون معنا في تنظيم عملية إخلاء الأهالي. وفجأة سمعنا صوت انفجار شديد بالقرب من موقع المعدية وأخذ الأهالي يصرخون خوفا، ظنا منهم أن العدو الإسرائيلي قد وصل إلى بور فؤاد ويقوم بالاعتداء على المدينة.

وتسبب هذا الفزع في إسراع باقي الأهالي الذين كانوا لا زالوا بمنازلهم في الخروج والجري في الشوارع في حالة فزع شديد وقت الغروب. وكان منظرهم جديرا بالشفقة، الأطفال والأمهات يولولون والآباء ينادون على أطفالهم الشاردين والأبناء الصغار يصرخون من الخوف. ومهما أوتيت من مقدرة على الوصف والتعبير فإنه لا يمكن التعبير الصادق عن مدى قسوة حالة الهجرة الفجائية للسكان في ظروف الخوف والفزع كما شاهدتها في تلك اللحظة الحرجة. وكان الرجال ينوءون بحمل ما أمكنهم حمله من أمتعة ومقتنيات ضرورية لأسرهم، وبعض النساء يحملن طيورهن الحية والطيور هي الأخرى تشارك الأهالي في الفزع والصياح ولم يطل الوقت لفترة الفزع نتيجة الانفجار حتى حضر أحد رجال الحرس الوطني وأبلغنا أن هذا الانفجار كان نتيجة تدمير رجال قاعدة الصواريخ لمعداتهم قبل انسحابهم كما صدرت إليهم الأوامر بذلك. ومن خلال الميكروفون أخذنا نادي على المهجرين من الأهالي بالتزام الهدوء حيث إن الانفجار لم يكن بفعل الجيش الإسرائيلي بل من فعل رجال قاعدة الصواريخ المصرية. وعاد الهدوء إلى عملية الإخلاء وأخذت تنتظم خصوصا بعد أن تم تشغيل المعدية الثانية وكان الإخلاء يتم حسب أسبقية النساء أولا بأطفالهن ثم كبار السن من الرجال وآخر من أخلى كان رجال القوات المسلحة ورجال قاعدة الصواريخ.

ومما عجل بعملية الإخلاء عبر القناة تواجد العدد الكبير من اللنشات الخاصة التي تطوع أصحابها بتشغيلها للمشاركة في هذا العمل الإنساني. عدت مع آخر

فوج من المنسحبين مع الزملاء الذين شاركوا في هذا العمل وتركنا وراءنا مدينة بور فؤاد خاوية وموحشة ساكنة خالية من الحياة ولكن كانت هناك قوات المقاومة الشعبية من رجال الحرس الوطني تملأ الفراغ وتقوم بواجبها الوطني في الدفاع عن منطقة غالية من أرض الوطن هي بور فؤاد.

تهديد بورسعيد من البحر

بعد إتمام عملية إخلاء الأهالي من مدينة بور فؤاد، وبمجرد وصولي إلى البر الغربي في بور سعيد علمت أن بعض الطائرات المجهولة قد قامت بإغراق سفينة التجسس الأمريكية ليبرتي بالقرب من شواطئ إسرائيل، وقد رفع ذلك من روحنا المعنوية، وتوجهت إلى رئاستي الخلفية في مبنى الاتحاد الاشتراكي وكان هناك أمين الاتحاد الاشتراكي في بور سعيد الأستاذ محمد رشدي.

اتصل بي المحافظ من مكتبه، وأبلغني أن رادار غرفة عمليات مدفعية السواحل في بور سعيد التقط ما يفيد أن هناك تحركات لقطع بحرية متقدمة من البحر الأبيض في اتجاه بور سعيد، وأنها على بعد حوالي ٤٠ كم، وكان التخمين أن الأسطول الأمريكي هو الذي يتحرك، وكان الوقت قبل منتصف الليل بقليل. وبعد أن علمت القيادة السياسية بالقاهرة بهذا الخطر القريب أمرته بالتعاون مع مدير البنك الأهلي هناك، لترحيل رصيد العملة الصعبة فورا إلى القاهرة وترك العملة المصرية كما هي. ثم قال إنه سوف يلحق بي في مبنى الاتحاد الاشتراكي لينضم إلينا حتى يزول هذا الخطر.

حضر المحافظ وكان دائم الاتصال بغرفة العمليات، وبعد منتصف الليل بقليل بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أصبحت على بعد ٣٠ كم. وكنت قد اتصلت بقائد الحرس الوطني قبل ذلك لتوزيع الباقي من قواته على طول الشاطئ بأسلحتهم الصغيرة وبعض أسلحة خفيفة مضادة للدبابات لمواجهة هذا الخطر المرتقب. وقمت بالمرور عليهم ووجدت حشدا كبيرا من الأهالي قام القائد جمال السيد إبراهيم بتسليحهم بالبنادق والسناكي وجميعهم منتشرون، أما رجال الحرس الوطني فكان معهم ذخيرتهم. وقبل الفجر علمنا أن التحركات البحرية وصلت إلى مسافة ١٥ كم. وتوترت أعصابنا ولكن الحمد لله توقفت التحركات عند هذه المسافة.

وعندما بدأ بزوغ ضوء الصباح كانت الأخبار لاتزال تفيد بتوقف التقدم البحري على البعد نفسه. عندئذ شعرت بكثير من الراحة خصوصا وأن هذه القطع البحرية توقفت لمدة لا تقل عن ساعة دون تقدم. وكان ذلك دليلا على أنها عدلت عن الاعتداء على بور سعيد. وبعد ظهور ضوء الشمس بلغنا أن التحركات البحرية المعادية أخذت تبتعد عن شواطئ بور سعيد فزال التهديد والخطر. وكان المحافظ يبلغ القاهرة عن هذه التحركات أولا بأول.

وكان استنتاجنا أن القيام بمثل هذه التحركات بهذا الأسلوب من التقدم ثم التوقف ثم الابتعاد، يدل على أن القوات الأمريكية بعد ضرب سفينتها ليبرتي لم تكن متأكدة من هوية الطائرات التي اعتدت عليها وكانت تظنها مصرية وأرادت الانتقام من ضرب هذه السفينة بتقدم أسطولها في اتجاه بور سعيد أو الشواطئ المصرية لضربها ولكن بعد فترة تأكدت أن الطائرات إسرائيلية ولذلك تراجعت.

بعد أن اطمأنت خواطرنا عند زوال هذا التهديد البحري انصرف المحافظ ليعود إلى مكتبه، وبدأت أنا بالمرور على قوات الحرس الوطني والمتطوعين في مواقعهم التي احتلوها أثناء الليل الطويل الشاق. ووقفت معهم أشكرهم على هذا الموقف الوطني بتحملهم مسئولية الدفاع عن أرضهم ومدينتهم وكان من بينهم كثيرون من كبار السن من رؤساء المصالح الحكومية والموظفين يحملون أسلحتهم في رجولة ومع كل منهم كمية من الذخيرة المسلمة له يحملها داخل منديل لعدم وجود مهمات عسكرية كافية لحمل وحفظ هذه الذخيرة وكل منهم يربط هذا المنديل في سلاحه زيادة في الحرص. منظر يهز المشاعر حيث لم يتقاعس عن الدفاع عن بور سعيد أي مصري حتى كبار السن غير مبالين بمشقة العملية وقسوة رطوبة الجو ليلا وهم يبيتون في العراء.

الدفاع عن بور سعيد

منذ وصولي إلى بور سعيد كانت خطة الدفاع عنها تعتمد فقط على قوات الحرس الوطني القليلة العدد، وبعد أن توجه حوالي ٢٠٠ فرد منها للدفاع عن بور فؤاد أصبح الباقي لا يكفي إطلاقا للدفاع عن بور سعيد فشرعت في إعداد وتجهيز

عدد كبير من الأهالي للاشتراك بصفة رئيسية في المقاومة الشعبية كما حدث في عام ١٩٥٦ . وأرسلت عدة مرات في طلب السلاح والذخيرة ولكن في البداية وصلنا السلاح بدون ذخيرة . ثم حصلنا على ذخيرة لا تطابق عيار السلاح وتكرار ذلك أخرنا كثيرا في تسليح الأهالي ومع ذلك وضعت خطة للدفاع عن بور سعيد من واقع تجربتي أثناء عدوان سنة ١٩٥٦ ولم تنفذ هذه الخطة إلا بعد مدة طويلة عندما انتظم وصول السلاح والذخيرة اللازمين .

وقد كانت الخطة بسيطة ولكنها محكمة وتحقق تأمين الشعب أثناء المقاومة فقد ركزنا على حفر مواقع دفاعاتنا في المناطق السابق النزول فيها عام ١٩٥٦ بواسطة رجال المظلات وقوارب الإنزال وكانت تنحصر في مناطق المناخ والجميل والجبانات والرسوة ووابور المياه وبطول الشريط الساحلي ومدخل الميناء . وقام الأهالي متطوعين بجهودهم الذاتية وبأدواتهم بحفر خنادق وخنادق مواصلات بين المدافعين تربطهم بأطراف المدينة على أن تستخدم كملاجئ من الغارات الجوية وضرب الأسطول ، لجميع أهالي المدينة ، وذلك لتفادي هدم المنازل عليهم . كما وفرنا تجهيز نقط مراقبة مجهزة بتليفونات في جميع الأماكن السابق ذكرها لمراقبة أي نزول أو غزو والتبليغ عنه أولا بأول بأجهزة تليفونية وأجهزة لاسلكي خفيفة الحمل (وكانت نقط المراقبة حول المدينة عبارة عن خنادق محفورة بطول قامة الرجل مستخدمين بعض المواسير الضخمة ومغطاة من أعلا بغطاء يسهل سحبه ورفعه كما كان متبعا في المقاومة الشعبية في فيتنام) وذلك حتى لا نفاجأ بإنزال أو هبوط للعدو في أي منطقة دون الاستعداد لها بالمقاومة وبذلك أصبح حول بور سعيد حزام دفاعي شعبي متكامل يمكنه أن يحدث أكثر الخسائر لأي عدو يفكر في الغزو .

● وفي يوم الجمعة ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ أعلن في الإذاعة منذ الصباح ولعدة مرات أن الرئيس جمال عبد الناصر سيلقي خطابا في السابعة والنصف مساء على الشعب وطول هذا اليوم كنت منهمكا في إعداد خطة الدفاع عن بور سعيد نفسها . وكنت في منزل المحافظ وقت إلقاء خطاب عبد الناصر أتناول غدائي وجاء فيه تنحيه عن رئاسة الجمهورية وقرار تعيين زكريا محي الدين رئيسا للجمهورية . توجهت لمكتب المحافظ وكان قد سبقني إلى هناك بعد الخطاب مباشرة ووجدت جموعا غفيرة من شعب بور سعيد حول مبنى المحافظة تهتف في انفعال وعصبية مطالبة

باستمرار عبد الناصر في موقعه وكنت في مكتب مجاور لمكتب المحافظ مع جمع من موظفي المحافظة وقيادات الاتحاد الاشتراكي، وكان من بين الحاضرين الفدائي غريب محمد خضيري (الشهير بغريب تومي) وهو من زملاء الكفاح بالإسماعيلية ولكنه قال بانفعال إنه ما دامت إسرائيل عدوتنا هي التي تدبر وترغب في التخلص من عبد الناصر فإننا كشعب له مقوماته وكرامته علينا أن نتمسك بعبد الناصر حتى ولو لم يكن حبا فيه ولكن كرها في إسرائيل.

وبعد العاشرة مساء أخذ المذيع يكرر أنه سيذيع بيانا من زكريا محيي الدين ثم فجأة أذاع بيانا من جمال عبد الناصر ألقاه المذيع جاء فيه أن جمال عبد الناصر إزاء مشاعر الشعب ومجلس الأمة المطالبة بعودته فإنه سيذهب صباح اليوم التالي إلى مجلس الأمة لمناقشة موضوع تنحيته.

التعزيز

منذ يوم ١٢/ ٦/ ١٩٦٧ بدأت عملية إمدادنا بالسلاح والذخيرة تنتظم ووصلتنا شحنات كثيرة منها وبدأنا فتح مراكز تدريب شعبية على السلاح قبل توزيعه على الأهالي. ووصلت قوة من المتطوعين المدربين من رجال الرقابة الإدارية بقيادة محمد عبد المجيد محي الدين ومعه عدد كبير من الضباط السابقين بالجيش منهم عبد القادر عبد العظيم ووجيه الدجوي. ثم وصلت قوة من صف وجنود الكلية الحربية يقودهم الضابط جميل القليوبي، وانضمت للاشتراك في الدفاع عن بور فؤاد مع قوات الحرس الوطني هناك ووصلت وحدات من الجيش معظمها من المدفعية وقوات الصاعقة ومعها عدد من الدبابات، واستمر العبء الأكبر على عاتق المقاومة الشعبية للدفاع عن بور سعيد لمدة طويلة.

إخلاء الضباط والجنود والجرحى من داخل سيناء

منذ إيقاف القتال في سيناء توالى وصول أفراد من رجال القوات المسلحة من سيناء إلى بور سعيد ذاتيا عبر ساحل البحر الأبيض وكان يتم التقاطهم دون أي تنظيم بواسطة لنشات شركة الرباط ببور سعيد وفي يوم ١٢/ ٦/ ١٩٦٧ حضر

الزميل سلامة عثمان ومعه ثلاثة أطباء هم محمود فهمي وعثمان صبري وفاروق الخولي متطوعين فانضموا إلى المقاومة الشعبية وقام الثالث بالذهاب إلى سيناء عبر بحيرة البردويل وعادوا ووضعوا خطة كاملة لتنظيم هذه العملية وعاونهم في ذلك بمجهود يشكر عليه كمال أبو ذكري الذي يملك قرية الصيادين ببحيرة البردويل ووضع جميع لنشاته وقوارب الصيد في خدمة العملية وكذلك الشيخ عبد العزيز أبو مرزوقة عمدة بير العبد وشيخ قبيلة البياضية والشيخ عطية مرسي صباح وكلهم من سيناء. ثم تعاون معهم ضابط الصاعقة رفعت وزميله عبد الحميد.

وقام هذا التنظيم بإخلاء آلاف من الضباط والجنود الشاردين في سيناء وعدة مئات من الجرحى. وفي مرحلة متقدمة أقام الجيش مركز إيواء في بور سعيد ونظم عملية إخلائهم من بور سعيد إلى القاهرة. وفي بورسعيد قابلت أحد الضباط الكبار الذين حضروا شاردين من سيناء ولما سألته عن السبب في عدم التحامهم مع الجيش الإسرائيلي وكان من الواجب بعد أن فقدنا السيطرة الجوية كان مفروضا أن يقوم الجيش المصري بالالتحام مع الجيش الإسرائيلي بحيث يصعب على الطيران الإسرائيلي في هذه الحالة أن يتدخل وكان هذا هو الأمر الطبيعي للخروج من مأزق السيطرة الجوية الإسرائيلية. جاء رده ليعكس شعور وحالة ضباط الجيش تجاه قيادتهم وقال: «لم يكن لدينا كضباط الدافع لبذل أي مجهود لأننا لو انتصرنا كنا سننتصر لأجل أن يصل شمس بدران فتى القيادة المدلل لأعلى المناصب. وأضاف أن كل من كان وقد أوقعه الحظ السيئ من كبار قادة الجيش أو الضباط ليواجه شمس بدران بأي معارضة أو خلاف في الرأي كان مصيره التعذيب والاضطهاد والإذلال بما هو فوق طاقة البشر. فهل كنت تريدنا أن ننتصر لأجل أن يصل الانتهازيون إلى أعلى المراكز؟».

وبعد أن انصرف هذا الضابط علق الدكتور محمود فهمي الذي كان حاضرا هذه المناقشة بأن: «هذه هي الخيانة الكامنة في أوضح صورها».

وظهر بعد ذلك أن ما توقعه الضابط كان صحيحا حيث علم بعد ذلك أن شمس بدران كان فعلا بعد الهزيمة من أول المرشحين لرئاسة الجمهورية وحتى قبل أن يتم التفكير في زكريا محيي الدين.

● وفي أحد الأيام قام فريق من سيدات الهلال الأحمر ببور سعيد بزيارة لقوات الدفاع عن بور فؤاد لتوزيع بعض الهدايا ودعوني لمرافقتهن. اصطف جنود الجيش من قوة الكلية الحربية بقيادة ضابطهم جميل القليوبي، وبعض أفراد من الحرس الوطني. وكانت منازل وشوارع بور فؤاد خالية تماما ويسود المدينة كآبة موحشة كالمقابر وليس هناك أي مظهر للحياة سوى هؤلاء الجنود. وقامت السيدات بتوزيع الهدايا والحلوى على الجنود. ثم وقفت سيدة فاضلة كبيرة السن وأخذت تتحدث إلى الجنود وتقول لهم إنها وزميلاتها أمهات للجنود وأولادهن الذين يدافعون عنهن وأنهن يدعون لهم من أعماق قلوبهن ويشددن من أزرهم ويفخرن بهم فكان لكلماتها وقع مؤثر عظيم؛ فتأثر أحد الجنود الواقفين وأخذ يبكي بانفعال شديد حتى انهار وسقط مغشيا عليه وتأثر زملاؤه وأخذت دموع بعضهم تسيل متأثرين بكلمة هذه الأم الحنون.

تركت كلمة هذه السيدة الفاضلة أثرا كبيرا في نفوس الحاضرين وبخاصة الجنود ورجال المقاومة. وصاح أحد الجنود بالهتاف: «تحيا مصر تحيا مصر» فأعلن بهذا النداء أن الهزيمة العسكرية المريرة ليست سوى بداية للصمود والمواجهة.

حوار في وقته

وفي يوم الخميس ٢٢ يونيو دعاني القائد العسكري لمنطقة بور سعيد اللواء المقدم كقائد للمقاومة الشعبية للقاء المارشال زخاروف رئيس هيئة أركان حرب القوات السوفيتية بعد مروره مع قادة الجيش المصري الجدد على وحدات الجيش المصري والمقاومة الشعبية في بور سعيد وبور فؤاد.

وأثناء انتظار ميعاد الغداء ونحن جالسون دارت مناقشة بيني وبين الفريق محمدفوزي وزير الحربية، وكنت أتساءل عن مدى خطورة استطلاع الأقمار الصناعية على خطوطنا الدفاعية لأني كنت قبلها قد لاحظت ليلا مرور هذه الأقمار الصناعية فوق سماء المنطقة ولفت نظري إليها أحد أفراد المقاومة أثناء مروري عليهم في مواقعهم. وكان رد الفريق فوزي أنه لا خطورة إطلاقا من هذه الأقمار لأنه نظرا لارتفاعها الشاهق فإن أجهزتها لا يمكنها أن تميز بين العربة الجيب وجهاز الرادار.

وأجبته بأن هذا مخالف للحقيقة لأن الطائرة الـ U2 الأمريكية التي سبق أن تمكن السوفيت من إسقاطها سليمة، وبعد فحص أجهزة التصوير التي كانت بها وجد أن أجهزتها قادرة على تصوير رأس المسمار الشيشة من ارتفاع ١٢ ألف قدم وتصوير مانشيت الجريدة على ارتفاع ٢٢ ألف قدم وقد نشر كل ذلك في أحد أعداد مجلة لايف الأمريكية الذي تصادف لي الاطلاع عليها ضمن موضوع شامل عن التصوير وذلك قبل العدوان.

فوجئ الحاضرون بالمارشال زخاروف يخبط بيده على الطاولة بشدة ويوجه الكلام بالإنجليزية إلى الفريق فوزي الذي كان بجانبه ويشير قائلا: «المقاومة الشعبية على حق»؛ ويكمل حديثه: «لأننا في الاتحاد السوفيتي لدينا جداول زمنية بمواعيد مرور الأقمار الأمريكية وأثناء مرورها في سمائنا نغطي ونموه جميع دفاعاتنا».

وكان بجانب زخاروف أحد المترجمين الروس قام بترجمة الحديث بيني وبين الفريق فوزي له. لا عيب في ألا يتمكن أي قائد من الاطلاع بنفسه على كل ما يجيء بالمجلات ولكن يجب أن يكون لديه مكاتب متخصصة ومخابرات تمده بكل ما يمس عمله. عموما لم يكن هذا غريبا عليه أو على من حوله من قادة الجيش الجدد؛ لأنهم جميعا كانوا مسئولين بشكل أو بآخر عن الهزيمة. فيهم من كانوا يشغلون مراكز قيادية عليا في الجيش ولكن الذي تغير فقط بعد الهزيمة هو المشير عامر وهيئة مكتبه ولم يحدث التغيير الجذري في الجيش، الشيء نفسه حدث في القيادات السياسية العليا والتي كان يجب أن تهتز هي الأخرى.

هل حدث تغيير؟

صدر قرار تعيين عبد المحسن أبو النور قائدا للمقاومة الشعبية يوم ٢١/ ٦/ ١٩٦٧ بدلا من زكريا محيي الدين الذي دخل التشكيل الوزاري واستدعيت مع باقي قيادات المقاومة بمدن القنال لطفي واكد وإسماعيل فريد لحضور مؤتمر بالقيادة العامة برئاسة محسن أبو النور لبحث موضوع تدعيم وتدريب المقاومة الشعبية في منطقة القنال. غادرنا مناطقنا واتفقنا على اللقاء صباح يوم انعقاد المؤتمر والذهاب معا وللأسف وصلنا متأخرين عن موعد بدء الاجتماع وكان المجتمعون قد فرغوا من مناقشة موضوع توفير عدد من المدربين من رجال الجيش لتدريب أفراد المقاومة في مدن بور سعيد والقنطرة والسويس والإسماعيلية. وكان الاجتماع يضم

جميع قادة أسلحة الجيش المصري ورئيس هيئة العمليات اللواء أحمد إسماعيل علي. وأشار عبد المحسن أبو النور على اللواء أحمد إسماعيل بإعادة مضمون ما تم بحثه والاتفاق عليه قبل حضورنا.

وأخذ اللواء أحمد إسماعيل يذكر مواد التدريب اللازمة لرجل المقاومة من تدريب على جميع أنواع الأسلحة الصغيرة والمدفع الرشاش الثقيل والخفيف وأسلحة المشاة المضادة للدبابات والقنابل اليدوية والتدريب العملي على ضرب النار على كل هذه الأسلحة ثم القتال في المدن وذكر في نهاية حديثه أنه جعل مدة التدريب على كل هذا البرنامج ثلاثة أسابيع، وهنا وبدون استئذان للكلام وجدت نفسي أنفجر بسخط على هذا الأسلوب المظهري في معالجة الموضوعات الجادة وبهذا الاستهتار فيه معنى الاستهانة بعقلية الموجودين؛ حيث إننا نعلم جيدا أن مصر تعتمد في هذا المرحلة اعتمادا أساسيا في الدفاع عن هذه المناطق على المقاومة الشعبية لانهماك الجيش في إعادة تنظيم صفوفه، وإعادة تسليحة لفترة قد تطول.

ولا يصح أن تتعامل القيادات مع المقاومة في أهم أمورها في مثل هذه الظروف وهو إعدادها للقتال الجدي بهذا الإسلوب المظهري الذي دأبنا عليه حتى تسبب في الهزيمة؛ لأن مثل هذا البرنامج التدريبي المطلوب لا يكفيه بأي حال من الأحوال الأسابيع الثلاثة وقد تكون كافية للتدريب على مادة واحدة وهي القتال في المدن فقط. قام السيد عبد المحسن أبو النور بتهدئة الجو واقترح أن تكون المدة خمسة أسابيع أو شهرا. وفي الحقيقة أني لم أكن أعلم أن المتكلم هو اللواء أحمد إسماعيل لأنني كنت بآخر طاولة الاجتماع على الجانب نفسه وهو في أولها ولكنني وجدته بعد الانصراف يتجه إلي ويحدثني في طيبة. ولكنها قد تكون غير مطلوبة في مثل هذه الأمور ويأخذ على أنني أحرجته أمام المجتمعين خصوصا قادة الجيش الموجودين كلهم تحت قيادته.

معركة رأس العش

بعد ظهر أحد الأيام كنت مع لطفي واكد في القنطرة غرب مركز رئاسته في غرفة بأعلى المبنى تكشف نافذتها البر الشرقي من القناة. وأبلغنا الحارس بأعلى المبنى أنه يرى قوات إسرائيلية متحركة في البر الشرقي في اتجاه الشمال. وشاهدنا من

النافذة طابورا إسرائيليا عبارة عن ست دبابات في المقدمة يتبعها عشر عربات مصفحة ثم عشرة لواري محملة بالجنود متجهة إلى الشمال وهذا يعني أن هناك احتمال تحضير لهجوم إسرائيلي على بور فؤاد. واتصلت تليفونيا بقائد الحرس الوطني في بور سعيد جمال السيد وأبلغته بتفاصيل ما شاهدته وأشرت عليه بتبليغ هذه التفاصيل إلى قيادة الجيش في بور سعيد اللواء المقدم للاستعداد لمواجهة هذا الهجوم المنتظر وكلفته بتبليغ المهندس عاطف زيد المسئول عن العمليات الخاصة بالمقاومة بالاستعداد في بورفؤاد لتجهيز عملية كهربة المانع الموجود أمام قوات المقاومة الخلفية على طريق تقدم القوات الإسرائيلية، وبإرسال جميع قوات الحرس الوطني الموجودة في بور سعيد بالإضافة إلى متطوعي الرقابة الإدارية بقيادة محمد محيي الدين إلى بور فؤاد لتعزيز قوة الدفاع الشعبية هناك على أن يقوم بتوزيعها بنفسه وأنني قادم في الحال.

وأنا على الطريق إلى بور سعيد شاهدت الطابور الإسرائيلي على البر الشرقي يواصل سيره في اتجاه بور فؤاد ببطء يتناسب مع سرعة الدبابات، وعند وصولي إلى بور سعيد علمت أن قيادة الجيش هنا أرسلت فصيلة من الصاعقة ومعها ست دبابات إلى الموقع الأمامي على طريق تقدم الطابور الإسرائيلي واحتلوا مواقع دفاعية على أجناب الطريق مع قوة الحرس الوطني هناك. علمت أيضا أن قائد الصاعقة استلم من قيادة المقاومة عددا كافيا من أجهزة الاتصال اللاسلكي Talky Walhy الخفيفة كنا استلمناها من الجمرك وذلك لتستخدمها القوات المصرية في المعركة المنتظرة.

ذهبت إلى بور فؤاد ومررت على قوات المقاومة الأمامية والخلفية ووجدت أن الإسرائيليين احتلوا مواقع في مواجهة قواتنا استعدادا للهجوم ثم طمأنني المهندس عاطف زيد وكان يعاونه وكيل النيابة المتطوع مصطفى سحيم على المانع الكهربائي السابق تجهيزه وأن المانع سوف تسري فيه الكهرباء من المولد الموجود بالترسانة عند إعطاء الإشارة إذا ما تمكنت القوات الإسرائيلية من الاستيلاء على الموقع الأمامي. وعند الغروب تقريبا وأنا في بور فؤاد بدأت المدفعية المصرية من مواقعها في بور سعيد توجه نيرانا شديدة ومكثفة على مواقع الجيش الإسرائيلي أمام بور فؤاد وأخذت المدفعية الإسرائيلية ترد هي الأخرى بضرب بور سعيد ردا على ضرب المدفعية المصرية.

وعدت مع مصطفى سحيم إلى رئاستي في بور سعيد وعندي ثقة كبيرة من جميع تجهيزات المقاومة في بور فؤاد . وأخذت أحد أجهزة اللاسلكي الخفيفة وقمت بفتحه على تردد قائد الصاعقة نفسه في بور فؤاد. وكانت كلها إشارات تدل على التأكد من حالة الاتصال فقط وواليت الاستماع إلى ما يذاع ولم يكن فيه إفصاح عن أي خطة أو أوامر وكان ذلك ضروريا لسرية خطة المعركة المقبلة. استمر تبادل ضرب المدفعية طوال الليل .

وقبل منتصف الليل طلبني المحافظ وطلب مني تجهيز مندوب من عندي يذهب مع حملة من عربات سلاح المهندسين إلى مخازن مواد النسف الموجودة عند المقاومة ليسلمهم أي كمية يطلبونها؛ لأن قيادة الجيش في بور سعيد مصممة على نسف الترسانة البحرية في بور فؤاد قبل أن يستولي عليها الجيش الإسرائيلي. وقبل أن يصل مندوب سلاح المهندسين اتصلت بغرفة عمليات الجيش وأبلغته أنني سأسلم له ما يريد من مواد النسف ولكني أقنعته بأن الموقف في بورفؤاد مطمئن وأن قواتنا هناك قادرة على إيقاف التقدم الإسرائيلي لأنني كنت معهم قبل الغروب. ولكن زيادة في الحرص طلبت إليه أن يقوم بالتجهيز للنسف فقط وعدم البدء فيه إلا بعد التأكد من سقوط موقعنا الأمامي، وأن لدى جهازا لاسلكيا يمكن التأكد عن طريقه ولم يكن هناك فعلا أي اتصال بين رئاسة القوات في بور سعيد وبين قوات الجيش في بور فؤاد.

وتم استلام سلاح المهندسين لمواد النسف وأرسلت أحد الأجهزة اللاسلكي إلى قيادة القوات وقبل أن تعبر عربات الجيش المحملة بمواد النسف وبعد منتصف الليل بقليل سمعنا صوت تبادل نيران معركة رأس العش بين قواتنا والقوات الإسرائيلية وبالاستماع إلى جهاز اللاسلكي علمت أن قواتنا المتمركزة على أجناب الطريق تمكنت من تدمير دبابتين إسرائيليتين أماميتين مما تسبب في سد الطريق أمام تقدم باقي القوات الإسرائيلية وبعدها بقليل علمت عن طريق الجهاز أيضا أن دبابتين إسرائيليتين في مؤخرة القوات الإسرائيلية تم تدميرهما وأن قواتنا على الأجناب تمكنت من إحداث خسائر كبيرة جدا في القوات الإسرائيلية التي وقعت داخل مصيدة يستحيل عليها التقدم ولو شبرا آخر وأن قواتنا مسيطرة على الموقف تماما.

تأكدت عندئذ من النصر فاتصلت بغرفة عمليات الجيش وهنأتهم على هذه النتيجة وطلبوا مني موافاتهم هناك. عند وصولي إلى غرفة العمليات وجدت زميلي في الكلية الحربية اللواء عبد المنعم خليل حاضرا لتوه من بور فؤاد حيث كان يشرف على العملية من هناك. وأبلغني أنه تولى هذه القيادة بعد الغروب فقط وكان حاضرا بالصدفة للمرور على قيادة بور سعيد وأثنى على كفاءة وتعاون المدفعية التي سهلت مأمورية المقاتلين كما أبلغني أن معظم مصفحات وعربات الجيش الإسرائيلي قد تحطمت وأنهم قاموا بالانسحاب غير المنظم أثناء الليل. كذلك علمت أن مواد النسف لم تستخدم ولكن الجيش احتفظ بها في الترسانة لاستخدامها عند اللزوم.

انتقل خبر هذا النصر إلى شعب بور سعيد منذ الفجر بعد أن بات ساهرا ومترقبا النتيجة على أصوات الاشتباكات. وفي الصباح خرجت المدينة عن بكرة أبيها تستقبل أخبار المعركة بفرحة تدمع العيون وكان موكبا شعبيا أعاد ثقة الشعب في مقاتليه، حتى أن السيدات قمن بغسل الدبابات التي اشتركت في المعركة بالمياه زيادة في التكريم وقدم الشعب وجبة الإفطار إلى إخوانه جنود وضباط الصاعقة. ومهما أوتيت من بلاغة لا يمكنني وصف هذا الاستقبال الشعبي الرائع وكان فيه أبلغ المعاني لتجاوب الشعب مع جيشه إذا ما أدى الأمانة في الذود عن الوطن وأن النصر ليس ببعيد إذا صدقت النية والعزيمة والعمل.

انسحب الجيش الإسرائيلي من مشارف بور فؤاد ولم يفكر ثانية في العودة إلى مثل هذه المعركة؛ لأنه واجه جدية وفدائية ومقاومة من الجيش والشعب.

وقام الصحفي جلال كشك بكتابة مقال لجريدة الجمهورية عن أبعاد ونتائج هذه المعركة أنهاها بثلاث كلمات صادقة: «وقفنا وقاتلنا فانتصرنا» ولكن الرقابة حذفت الكلمات الثلاث!

العودة للعمل بالاتحاد الاشتراكي

بعد معركة رأس العش عدت إلى القاهرة لعملي بالاتحاد الاشتراكي لفترة قصيرة حتى صدور بيان ٣٠ مارس والذي كان يراد به إعادة التنظيم والمراجعة الشاملة.

وفعلا تتابعت الأحداث السياسية الداخلية والخارجية مما جعلني أقضي كثيرا من الوقت خلال الأحداث في مراجعة النفس وتأمل الأسباب التي أوصلتنا إلى هذه الدرجة من الفشل والضياع .

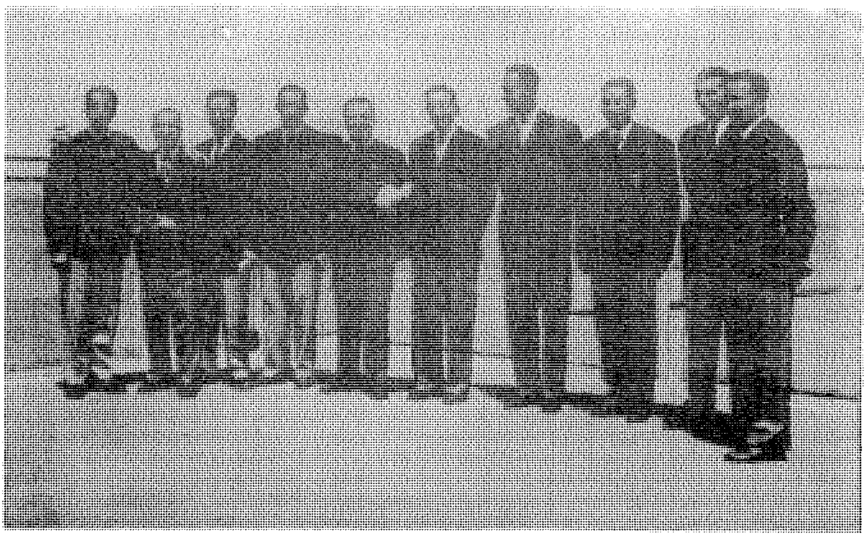
وقد تكون فترة التأمل والمراجعة هذه مجال بحث أو دراسة أو مذكرات أخرى ، وسألت الله أن يهبني العمر والمقدرة للقيام بتسجيل هذه التأملات والحمد لله فقد استجاب الله لسؤالي وأمكنني إصدار سلسلة من التأملات في ثورات مصر :

١ ـ مقاومة الحملة الفرنسية . ٢ ـ الثورة العرابية .

٣ ـ ثورة سنة ١٩١٩ . ٤ ـ ثورة ٢٣ يوليو (جزأين) .

٥ ـ الصحوة المصرية في عهد محمد علي .

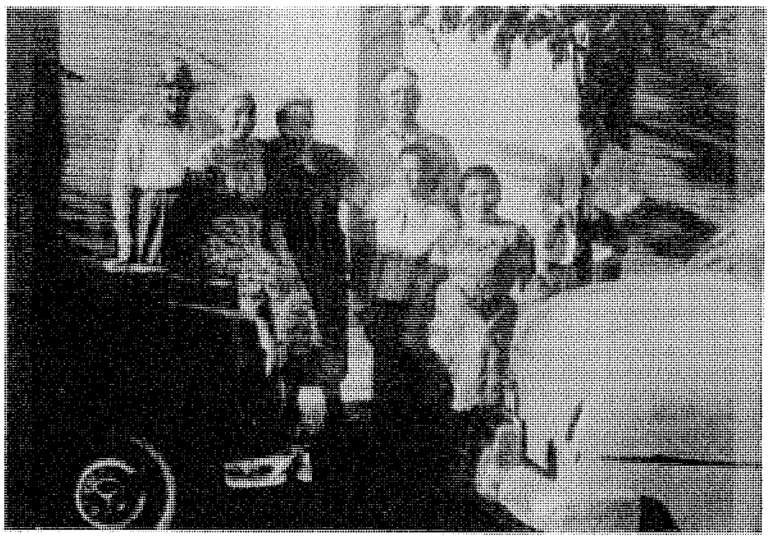
عنـــدما تتكلـــم الصـــورة



على الطريق إلى البطولة الدولية في أستوكهلم



المبارزة حتى آخر العمر
١٧/ ١٠/ ١٩٧١



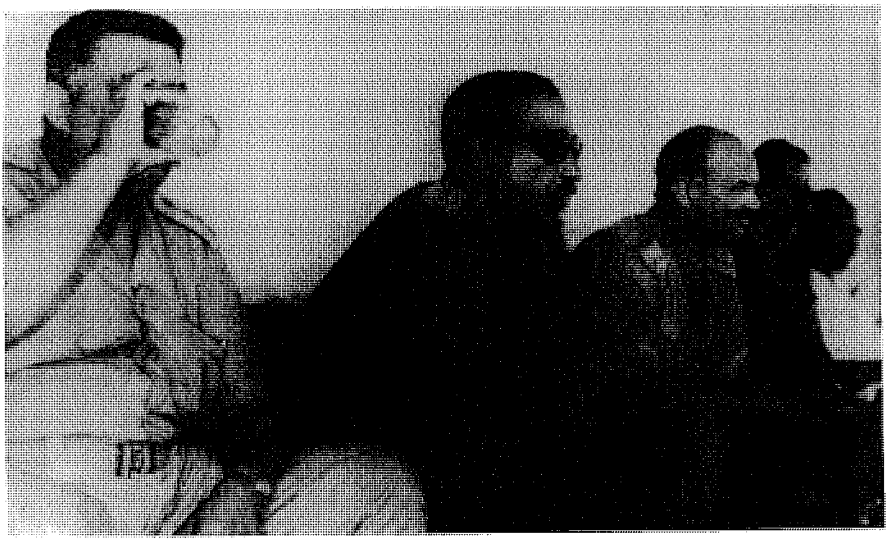
حارس الملك طلال وأسرته أثناء ترحيلها عن طريق اليونان
بعد فشل محاولة خطف الملك من قصره بإستامبول



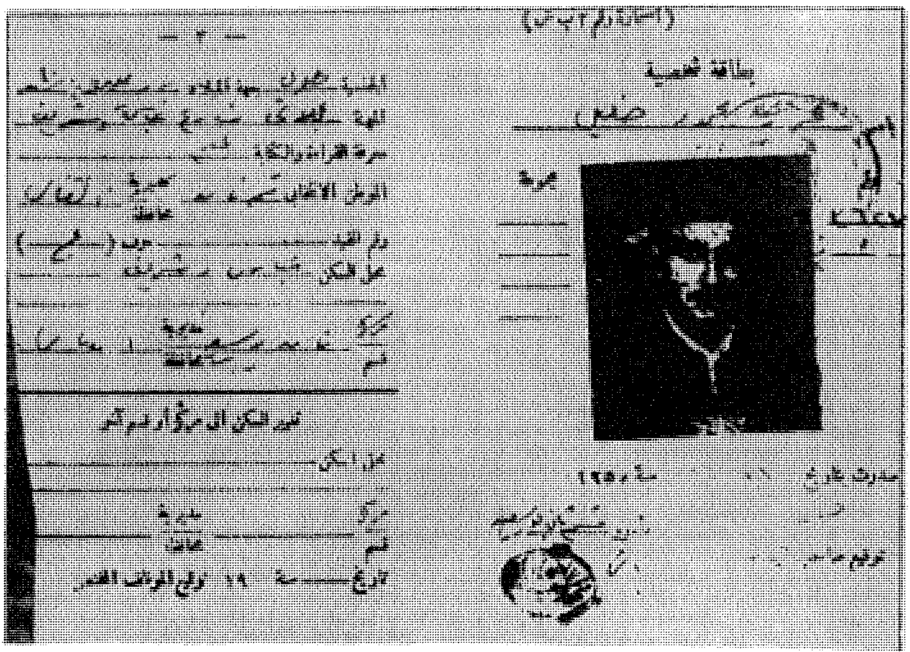
مع طاقم جميع ضباط مقاومة الجيش البريطاني برئاسة زكريا محيي الدين
عند تكريمهم بنشان النجمة العسكرية بعد إبرام اتفاقية الجلاء



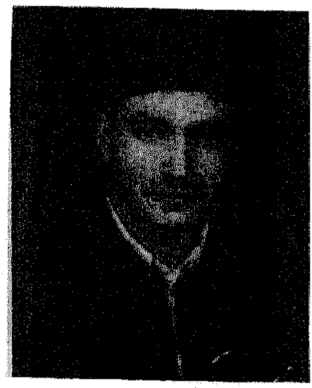
فترة المراجعة والتأمل بعد الهزيمة العسكرية حتى عدت للعمل بالاتحاد الاشتراكي



في رحلة إلى اليمن في أثناء لقاء مع المحاربين المصريين هناك بدعوة من العلاقات العامة للجيش ويظهر في الصورة رئيس العلاقات العامة حسن عبد المجيد واللواء الماحي وزميل رحلة الاتحاد الاشتراكي عبد الرزاق حسن


بطاقة شخصية

صورة لبطاقتي المزيفة بالشخصية الجديدة أثناء المقاومة السرية في بورسعيد
(العدوان الثلاثي)



صورتي وأنا في زي
العجلاتي غريب محمود غريب



نموذج آخر من المنشورات



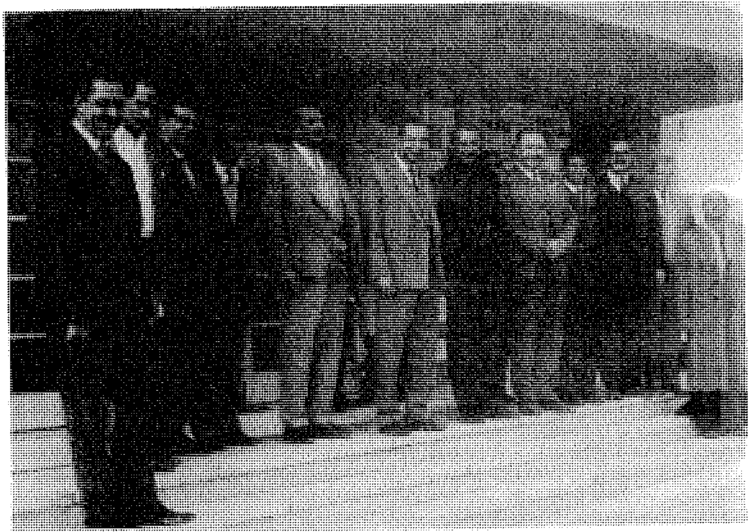
في الطريق إلى العريش قبيل عدوان عام ١٩٦٧



نموذج من المنشورات التي كانت توزع داخل القاعدة البريطانية بالقناة



مع لقاء الاتحاد الاشتراكي في البحر الأحمر ويظهر في الصورة
المرحوم الأستاذ لطفي الخولي



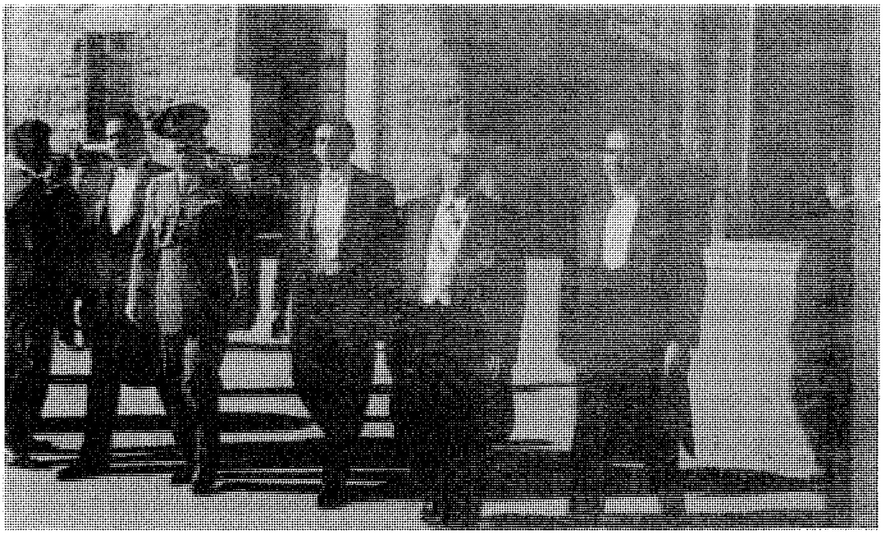
مع اللقاء في البحيرة مع لجنة الاتحاد الاشتراكي والمحافظ وجيه أباظة



أثناء العمل الجماهيري في الاتحاد الاشتراكي



في إحدى لقاءات الاتحاد الاشتراكي مع أمين سوهاج وجلال كشك وجمال الألفي



أثناء العمل في تركيا عند تقديم السفير المصري أوراق اعتماده مع الملحق العسكري
زكريا العادلي والمستشار جهاد ضاحي السوري (أثناء الوحدة)



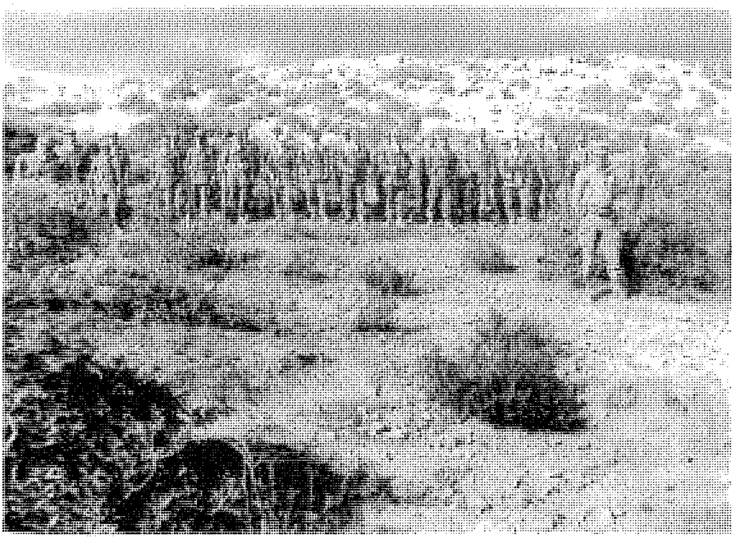
أثناء التوزيع في محطة أنقرة بعد نهاية الخدمة في تركيا



مع بعض قادة جيش التحرير الجزائري على الحدود المغربية الجزائرية



مع الصحفي إسماعيل الحبروك وهو يلقي كلمة للمناضلين الجزائريين في القاعدة



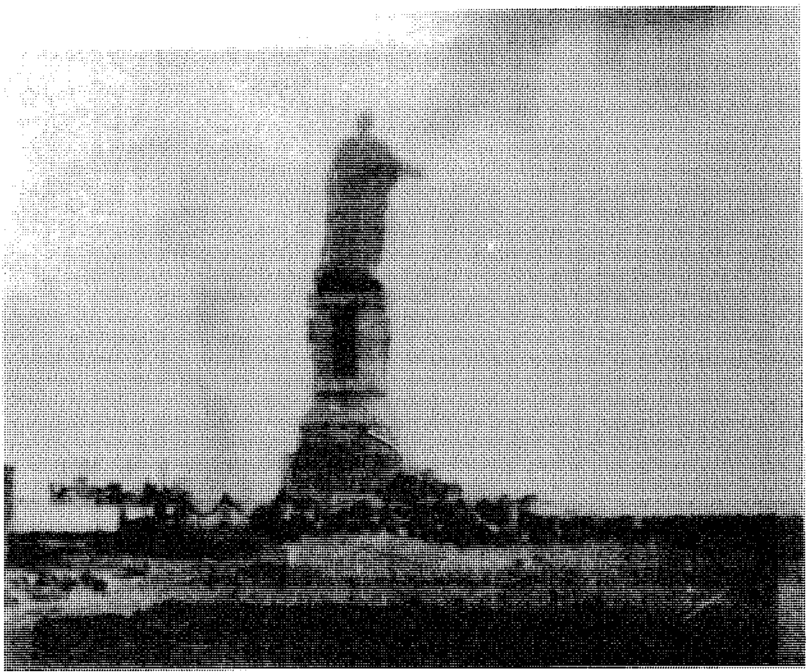
جيش التحرير الجزائري في قاعدة على حدود مع المغرب



أثناء المقاومة الشعبية في بورسعيد مع الصيادين
في القبوطي أثناء عدوان عام ١٩٦٧



مع المناضلين الجزائريين في القاعدة المغربية على الحدود الجزائرية وفي أقصى اليمين الصحفي المرحوم إسماعيل الحبروك



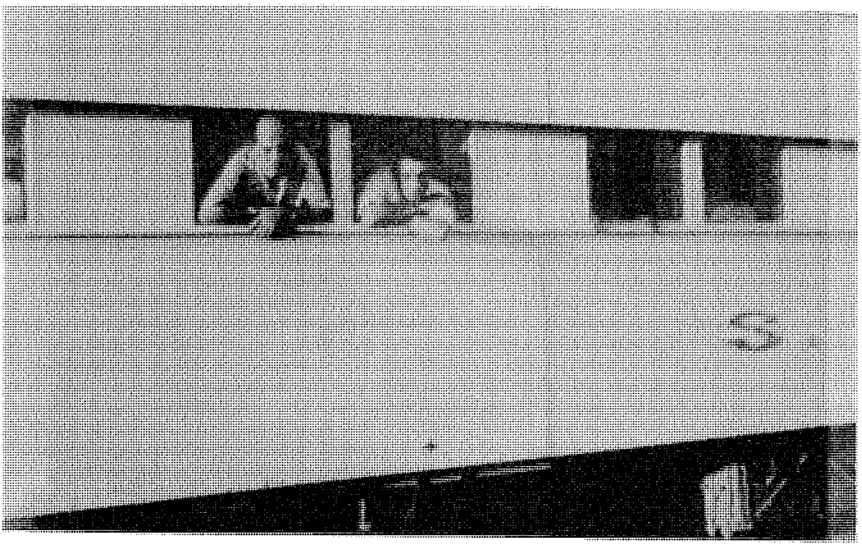
تفجير تمثال ديليسبس في بورسعيد أثناء العدوان الثلاثي



أثناء تمثيل مصر في مؤتمر السلام وإلى يميني الشاعر العراقي الكبير الجوهري



مع الفريق العسكري للمبارزة في كوبنهاجن



في الطريق إلى رحلة الأبيض أثناء العمل بالسودان



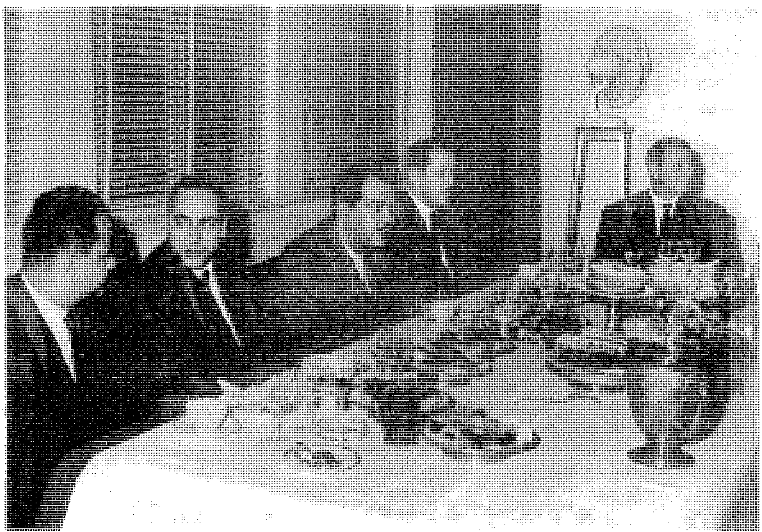
أثناء العمل في السودان



مع وفد مصر في مؤتمر السلام في سويسرا و رئيس الوفد خالد محيي الدين



مع وفد مصر في مؤتمر العلوم والتكنولوجيا في نيويورك

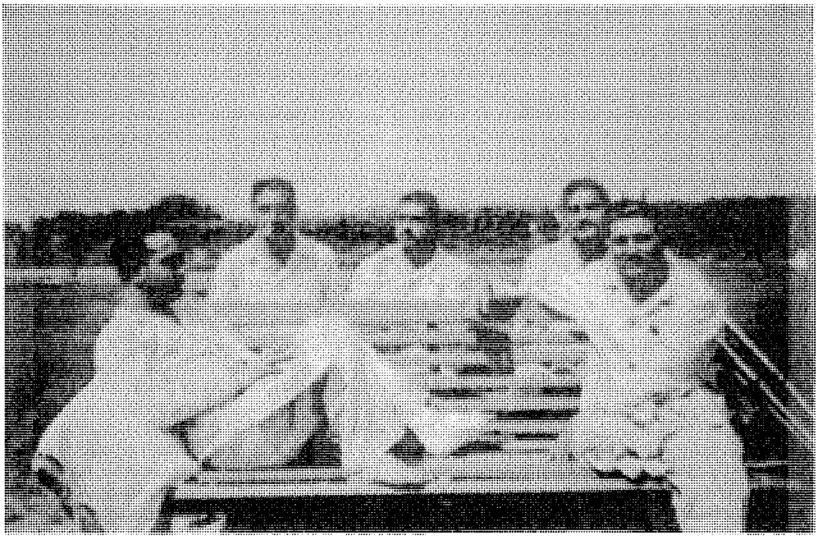


مع صلاح نصر وزملاء الخدمة في المخابرات العامة

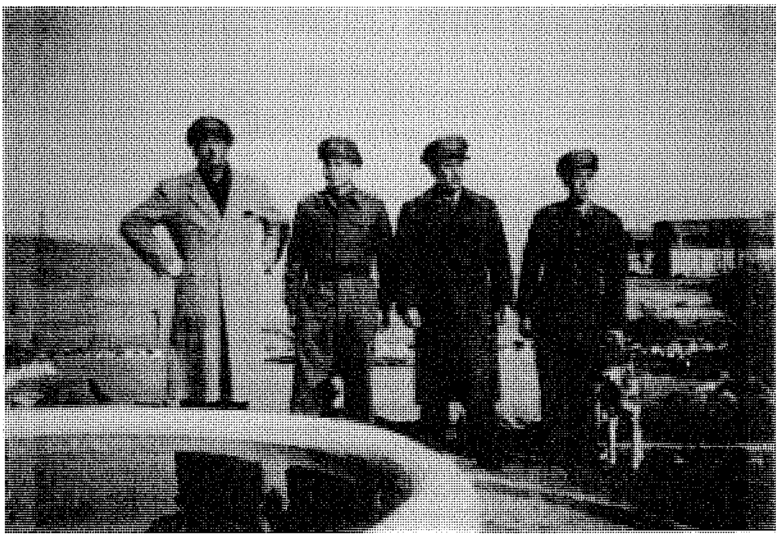


مع الزملاء كمال رفعت وسعد عفره ومحمود عبد الناصر وسمير غانم

في بداية العمل في المخابرات



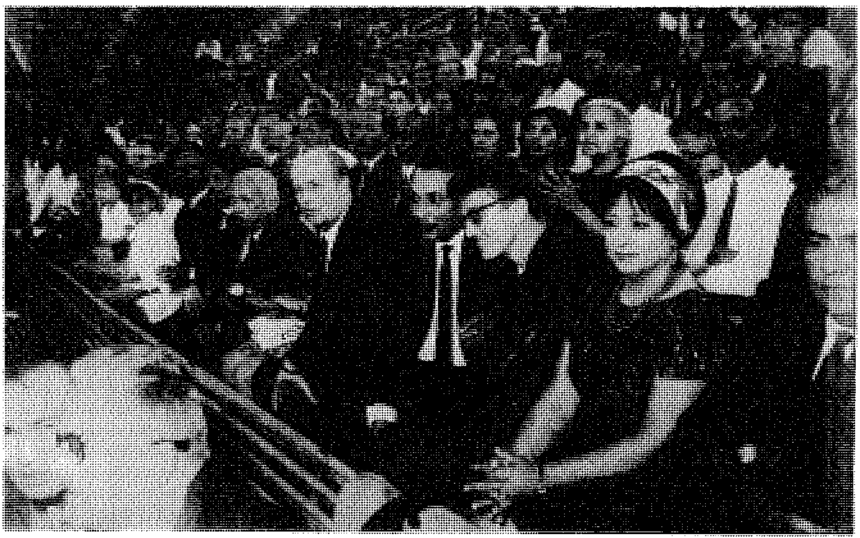
مع الضباط الجرحى في مستشفى الجمعية الخيرية أثناء حملة فلسطين



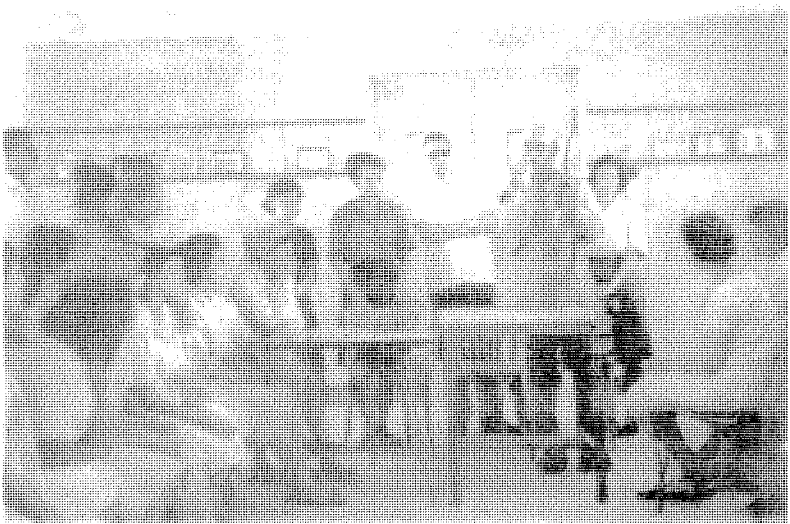
أثناء العمل بالسجن الحربي بعد حملة فلسطين



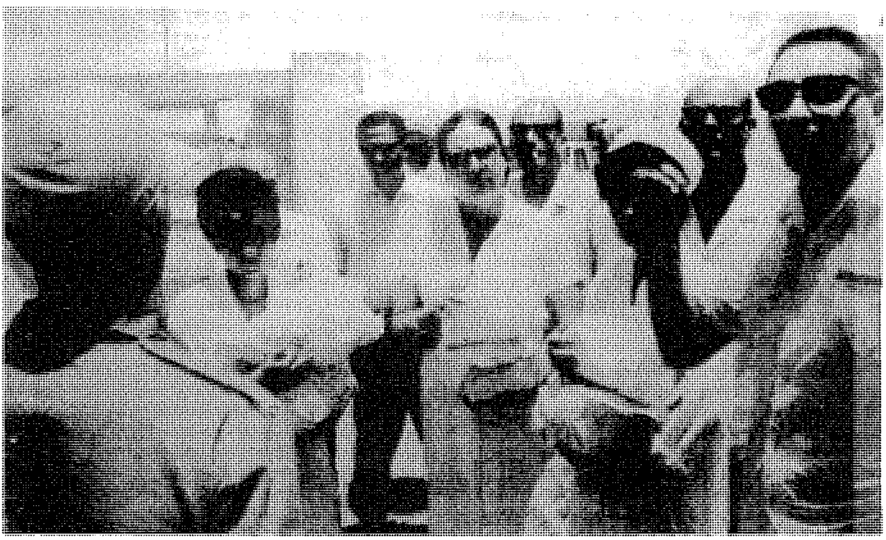
أسيرتين إسرائيليتين من حملة فلسطين وهما بالسجن الحربي



كرئيس اللجنة الأولمبية أثناء حضور مباراة مصر وألمانيا الديمقراطية
٣/ ٥/ ١٩٦٩

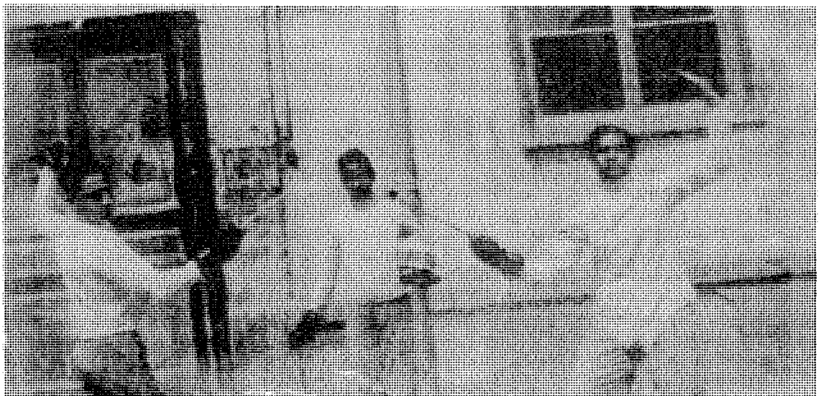


مع انسات بور سعيد أثناء تدريبهن للمقاومة في بور سعيد
إبان عدوان يونيو عام ١٩٦٧



مع سيدات الهلال الأحمر في زيارتهن للمقاتلين في بور فؤاد
عدوان يونيو عام ١٩٦٧





المبارزة في مرحلة الصبا إبريل عام ١٩٣٨

المحتويـــات

من مؤلفاته:

١ ـ كنت نائبا لرئيس المخابرات العامة	ـ دار الحرية للنشر .
٢ ـ تأملات في ثورة مصر ـ مقاومة الحملة الفرنسية	ـ الهيئة العامة للكتاب .
٣ ـ تأملات في ثورة مصر ـ ثورة سنة ١٩١٩	ـ الهيئة العامة للكتاب
٤ ـ تأملات في ثورة مصر ـ ٢٣ يوليو جزء أول	ـ الهيئة العامة للكتاب .
٥ ـ تأملات في ثورة مصر ـ ٢٣ يوليو جزء ثان	ـ الهيئة العامة للكتاب .
٦ ـ مصر والسودان بين الوئام والخصام	ـ دار الحرية للنشر .
٧ ـ الاستعمار الجديد في الدول النامية	ـ المركز الأعلى للشئون الإسلامية .
٨ ـ تأملات في ثورة عرابي	ـ الهيئة العامة للكتاب .
٩ ـ الصحوة المصرية في عهد محمد علي	ـ المركز الأعلى للثقافة .

رقم الإيداع ٩٠٤٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى 5 - 0723 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص ب ٨٠٦٤ ـ هاتف ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس ٨١٧٧٦٥ (٠١)